CORNELL UNIVERSITY LIBRARIES
JOHN M. OLIN LIBRARY
ITHACA, N.Y.

الأدب العربي في مصر

من الفتح الإسلامي إلى الفاطميين

تأليف
عبد الرزاق حميدة

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

مطبعة لجنة البيان العربي

CORNELL UNIVERSITY LIBRARY
3 1924 063 407 831

الأدب العربي في مصر

من الفتح الإسلامى إلى الفاطميين

تأليف

عبد الرزاق حميدة

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

مطبعة لجن

Ex Libris
J. Heyworth-Dunne
D. Lit. (London)
No. 9673

OLIN
PJ
8206
H21

CORNELL UNIVERSITY LIBRARIES
ITHACA, N.Y.

Adab al-Arabi Fi Miṣr

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

جاء العرب إلى مصر فاتحين ، ثم وفدوا عليها مقيمين ، فعلا شأنهم بها ، وانتشر دينهم ولغتهم فيها ؛ وعرف أدبهم طريقه إليها . فجاءها زائراً ، أو نشأ فيها وليداً وحاول أن ينمو ويحيا حياة طيبة ، حتى يضارع غيره من الآداب العربية فى البلاد الأخرى .

وبقيت البلاد تابعة للحجاز أو الشام أو العراق بعد الفتح ثلاث مئين وأربعين من السنين ، حتى جاءها الفاطميون سنة ٣٥٨ ﻫ فأصبح استقلالها تاما ، وسيادتها فى شئونها كاملة .

وكان أدبها قبل الطولونيين ضعيفاً ، والعناية به قليلة ، ورجاله مغمورين ، إلا فى فترات متباعده كان يزدهر فيها بنجوم تلمع فى آفاقه من الشرق ، مثل نصيب وابن قيس الرقيات وأبى نواس وأبى تمام والمتنبى .

وكان هذا الأدب الزائر ، فى جملته ، خاصاً بالمدح والهجاء . وما تأثر شعراؤه بالبلاد إلا قليلا . ولكنه على الرغم من ذلك صار جزءاً من أدبها ، لأنه نشأ فيها أو ارتحل به منشئوه إليها ، وقيل من أجلها ، فلا يذكره ذاكر إلا متصلا بها ، ولا يتحدث عنه متحدث إلا نسبه إليها باعتبار الباعث عليه ؛ وإن عد رجاله فى أدباء بلادهم الأولى : فنصيب شاعر حجازى لا مصرى ، وأبو نواس عراقى من بغداد جاء إلى مصر زائراً ، وكثير غيرهما كذلك . ولكنه لا يمكن

أن نغفل رحلتهم إلى مصر وأثرها فى أدبهم .

أما الأدب الذى أنشأه بعض الأدباء من أهل البلاد والمقيمين فيها فقليل ، وكثير منه ضعيف .

ولكنه استطاع ، على الرغم من هذا الضعف ، أن يثبت وجوده واستقلاله فى أكثر من ناحية ، وعلى الأخص ناحية الموضوعات التى طرقها ، وأرى من مظاهر هذا الاستقلال أنه تبع تاريخ البلاد فكان سجلا لكثير من حوادثها ، وكانت فيه صور صادقة لأحوالها وعاداتها .

وإذا قارناه بأدب الشرق والغرب تخلف وراءهما كثيراً إلى منتصف القرن الثالث ؛ فإن أدب الحجاز والشام والعراق كان أقوى منه ، وأعلى منزلة . وكان أدب الأندلس أرق أسلوبا وأوضح بياناً ، ورجاله أكثر عدداً . أما مصر التى كانت ملتقى الشرق والغرب ، وكان من حقها أن تكون واسطة العقد ، فلم تصل إلى منزلة مذكورة فى هذا الزمن .

وأغلب الظن أن وجود الخلافة فى الشرق طول هذا الزمن هيأ لأدبه مكان الصدارة ، وأن استقلال الأندلس (من سنة ١٤١ هـ) ، وقيام خلافة أموية بها تعادى العباسيين سياسياً ، وتنافسهم علمياً وأدبياً ، نهض أيضاً بالأندلس . وقد أتيحت هذه الفرصة لمصر عندما استقل بها ابن طولون ثم الإخشيديون .

هذا الأدب الوطنى الذى نبت فى البلاد قليلا أو هزيلا نما شيئاً فشيئاً حتى استوى على سوقه أدبا مصريا مستقلا تتنوع عوامله الفعالة فى تكوينه ، ويستمد كثيراً من وحيه من البلاد التى نشأ فيها ؛ وإن كان لا ينسى أنه أدب عربى له من قيود اللغة ، وماضى الأدب ، وتقليد الأدباء أو مجاراتهم فى البلاد العربية ، ما يقربه من الآداب العربية الأخرى كأدب الشام والعراق والأندلس . وكان للرحلة بين هذه الأقطار آثارها فى ذلك .

ويجد الباحث فى هذا « الأدب العربى بمصر » مجالا للقول ، وفرصة للحديث منذ أن صحب الفاتحين الأولين .

وقد زاد الاهتمام بهذا الأدب فى كل عصوره ، وانصرفت جهود كثيرة إلى الكتابة فيه وإلقاء المحاضرات عنه ، وإنشاء الكراسى الجامعية من أجله ، وأذكر من الكتب القيمة فى العصر الأول كتاب « أدب مصر الإسلامية » للدكتور محمد كامل حسين ، فقد نفعتنى قراءته . وإن كنت تخيرت طريقا آخر .

وهذه محاولة أتكلم فيها عن هذا الأدب ، فى الزمن الذى خضعت فيه مصر للخلافة الإسلامية فى الشرق .

والله ولى التوفيق .

القاهرة { يونيه سنة ١٩٥١
رمضان سنة ١٣٧٠

عبد الرزاق حميدة

186207

الفصل الأول

الفتح الإسلامي لمصر

معرفة العرب بها :

كان العرب يعرفون مصر من قديم الزمان ويتبادلون معها التجارة ، وكانت جيوش المصريين تجتاح شمال الجزيرة العربية فى حروبها المتعددة فى الشام وما وراءها فتعلم شيئاً عن هذه البلاد وأهلها وتعود منها بأسرى ، وكانت بعض الأمم الأسيوية تغزو مصر ، وتمر فى طريقها بهذه البلاد ، وتستعين بأبنائها فى غزواتها لمصر ، ومن هؤلاء أمة الفرس التى غزت مصر فى عهد قمبيز سنة ٥٢٥ ق . م ، وفى أواخر الدولة الرومانية سنة ٦١٧ م . وقد يستقر بها بعض هؤلاء العرب الذين يجيئون أسرى أو مع الغزاة ، وقد يرجعون إلى قومهم فيحدثونهم بما رأوا وما علموا عن مصر ، ومن المؤرخين من يجعل ملوك الهكسوس (الرعاة) عربا ، وقد حكموا البلاد زمناً قبل الميلاد بخمسة عشر قرنا ، بل إن زنوبيا ملكة تدمر قد غزت هذه البلاد سنة ٢٦٨ م وقاومها الرومان ، ولكنها هزمتهم ، وحكمت البلاد عامين ثم أخرجوها منها .

وصلة النسب بين مصر والعرب موجودة من قديم ؛ فقد تزوج إبراهيم الخليل عليه السلام هاجر ، فولدت له إسماعيل عليه السلام ، وذهب بها إلى الحجاز فأسكنها[1] هى وابنها بواد غير ذى زرع ، ودعا الله أن يجعل أفئدة من الناس

---

(١) النجوم الزاهرة ص ٢٣ ، ص ٢٩ .

تهوى إليهم . فاستجاب الله دعاءه وبارك فى ذريته ، وكانت العرب المستعربة من نسل إسماعيل عليه السلام .

والقرآن الكريم قص على العرب شيئا من تاريخ مصر ، فى قصة يوسف وفى قصة موسى عليهما السلام ، فعرفوا فى عهد الرسول بعض تاريخها القديم من مصدر سماوى . وعرفوا أن التجارة كانت متصلة بين الشام ومصر فى عهد يوسف عليه السلام كما كانت فى غيره من العهود ، وأن السيارة وجدته فأسرُّوه بضاعة ، وشروه بثمن بَخْس دراهم معدودة ، وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه ، وعرفوا أن « فرعونَ علا فى الأرض وجعلَ أهلها شِـيَعاً » و « استكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق » ، « ونادى فرعونُ فى قومه قال : يا قوم أليسَ لى مُـلْكُ مصرَ وهذه الأنهار تجرى من تحتى » ، إلى غير ذلك من الأخبار التى حدثهم بها القرآن الكريم .

وكانوا يستوردون القباطى من مصر قبيل الإسلام وهى ثياب رقيقة من الكتان تنسب إلى قبط مصر ، وقيل إنهم كتبوا عليها المعلقات(١) .

وأشهر ما كان من اتصال فى مبدأ الإسلام : أن النبى صلى الله عليه وسلم أرسل إلى المقوقس ، عظيم القبط فى مصر ، كتاباً مع حاطب بن أبى بلتعه سنة ست من الهجرة ، وهو :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القِبْط : سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد . فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسْلِمْ تَسْلَم يؤتكَ اللهُ أجركَ مرَّتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط ، يا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ، ألا نعبدَ إلا اللهَ ولا نشركَ به شيئا ولا يتخذَ بعضُنا بعضاً أرباباً من دون الله . فإن تولّوْا فقولُوا اشْهَدوا بأنا مسلمون » .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٩١ .

ولم يسلم المقوقس ، ولكنه رد على النبى صلى الله عليه وسلم يقول[١] :
« أما بعد فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وقد علمت أن نبيًّا بقى ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رُسُلك ، وبعثت إليك بجاريتين لهما مقام فى القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت إليك بغلة لتركبها ، والسلام » .

وكانت إحدى الجاريتين مارية القبطية ، التى تزوجها النبى صلى الله عليه وسلم وولدت له ابنه إبراهيم عليه السلام ، وماتت[٢] سنة ٦٣٣ م فلم تشهد فتح العرب لمصر .

وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم تنبأ بفتح العرب لمصر وأوصى الفاتحين بأهلها خيراً ، فإن لهم ذمة ورحما .

وهناك قصة رواها الكندى[٣] والمقريزى عن قدوم عمرو بن العاص إلى مصر فى الجاهلية ، واشتراكه فى حفل سنوى خاص بأولاد الذوات ، ووقعت فى حجره كرة مخصوصة ، وكان من وقعت فى حجره يحكم البلاد يوماً من الأيام ، وسوف نذكرها عند الكلام على القصص .

وهذه القصة الأدبية الطريفة لها دلالتها على وجود الصلة بين العرب ومصر . وهى صلة طبيعية كانت تسمح بها — أو تفرضها — ظروف الجوار ، وشهرة مصر فيما جاورها من البلاد بالخصب والثروة والحبوب والصناعة . فلما فتح الله للمسلمين بيت المقدس فكر عمرو بن العاص فى فتح مصر . كى ترفرف عليها راية الإسلام ، كما رفرفت من قبل فى الشام .

---

(١) صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٦٧ — وهناك صورة أخرى للرد فى الصفحة نفسها يظهر المقوقس فيها حسن استعداده للايمان ، وحسن ظنه بالرسول .
(٢) فتح العرب لمصر ص ١٢٦ عن حسن المحاضرة ج ١ ص ٤٣ .
(٣) الولاة ص ٦ وفى خطط المقريزى ج ١ ص ١٥٨ .

مسير عمرو إليها :

يحدثنا المؤرخون أن عمرو بن العاص كان صاحب الفكرة فى فتح مصر لسابق معرفته بها ، وأنه قد وصفها لأمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ، وحدثه عن ثروتها وسهولة غزوها . وأن عمر وافق على ذلك[١] ، وأرسله فى أربعة آلاف مقاتل ، وقال له : « سيأتيك كتابى سريعاً إن شاء الله تعالى ؛ فإن أنت أدركك كتابى آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف ، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك ، واستعن بالله ، واستنصره[٢] » .

وسار عمرو ففتح البلاد . واختلف المؤرخون فى سنة دخوله ، وفى كتاب عمر إليه وفى عدد رجاله ، ولكنهم لم يختلفوا فى أنه منفذ تلك الفكرة الجريئة ، وأن الله قد نصر فئته القليلة ، وأيده فى خطواته ، وكانت محفوفة بالأخطار .

دخل عمرو مصر فى أواخر سنة ١٨ هـ ، فسار على بركة الله ، وقاومه الروم فى الفرما وبلبيس وأم دنين (عند عين شمس) ، ثم حاصر حصن بابليون ، وأرسل إلى عمر يستمده وخرج إلى الفيوم فلم يفلح فى الاستيلاء عليها ، ثم رجع فوجد المدد بقيادة الزبير بن العوام ، فاستطاع أن يحاصر بابليون حصاراً شديداً حتى سلم الحصن ، ثم تقدم إلى الإسكندرية ، وفتح فى طريقه إليها عدداً من القرى والمدن ، ثم وصل إليها ففتحها بعد حصار شديد سنة ٢١ هـ .

---

(١) فى الولاة والقضاة للكندى ص ٨ أن عمرو بن العاص تقدم بأصحابه إلى مصر بغير إذن ، فكتب إليه عمر بن الخطاب : « من عمر بن الخطاب إلى العاصى ابن العاصى : أما بعد فانه بلغنى أنك سرت ومن معك إلى مصر وبها جموع الروم ، وإنما معك نفر يسير . ولعمرى لوكان ثكل أمك ماتقدمت ، فإذا جاءك كتابى هذا فإن لم تكن بلغت مصر فارجع » . فحمد عمرو ربه لأنه كان جاوز الحدود وصار فى مصر .

(٢) حسن المحاضرة ١ / ٤٦ خطط المقريزى ١ : ٢٨٨ .

وكان فى تسليم بابليون والاسكندرية أكبر مشجع للعرب على فتح بقية البلاد؛ وظلت تابعة للخلافة مدة قرنين ونصف من الزمان كانت متأثرة فيها بالحجاز أو الشام أو العراق ، ثم استقل بها أحمد بن طولون وبنوه زمنا (٢٥٤—٢٩٢ هـ) فكانت لها شخصية شبه مستقلة فى عهد الطولونيين ، ولكنها عادت إلى العباسيين . ثم استقل بها الأخشيديون سنة ٣٢٨ هـ حتى سنة ٣٥٨ هـ . ثم قامت بها خلافة فاطمية تنافس خلافة العباسيين ، وحاضرة تدانى بغداد ثم ترثها . وصارت لها مقوماتها السياسية والأدبية والدينية .

عوامل انتشار اللغة العربية فى مصر :

تأثر لسان العرب فى مصر بأمرين ساعدا على نشره ، وتعلم الناس له ؛ هذان الأمران هما : الإسلام ، وهجرة القبائل العربية إليها .

أما الأمر الأول وهو الإسلام ، فكان الغاية الأولى من فتح عمرو بن العاص لها ، وكان المسلمون يدعون إلى الإسلام إذا ذهبوا لفتح بلد ، فإذا أبى أهل البلد قبلوا منهم الجزية ، فإذا أبوا قاتلوهم حتى يعطوها ؛ وكذلك كان حالهم فى مصر . فأسلم كثير ؛ لما فى ذلك من مزايا ، كالمساواة فى الإسلام والإعفاء من الجزية ، وما تحمله من معنى الخضوع والحماية .

« وليس من العدل أن يقول قائل إن كل من أسلم منهم إنما كان يقصد الدنيا وزينتها ، فإنه مما لاشك فيه أن كثيراً منهم أسلم لما كان يطمع فيه من مساواة بالمسلمين الفاتحين ، حتى يكون له مالهم ، وينجو من دفع الجزية ؛ ولكن هذه المطامع ما كانت لتدفع إلا من كانت عقائدهم غير راسية ، وأما الحقيقة المرة فهى أن كثيرين من أهل الرأى والحصافة قد كرهوا المسيحية لما كان منها من عصيان لصاحبها ؛ إذ عصت ما أمر به المسيح من حب ورجاء فى الله ... ومنذ بدا ذلك

لهؤلاء العقلاء لجئوا إلى الإسلام فاعتصموا بأمنه ، واستظلوا بوداعته وطمأنينته وبساطته[١] » .

وكان دخول الناس فى الإسلام مبكرا ، وكان منهم الروم والقبط وقد أسلم « بعض عظماء الروم الملكانيين مثل « ميناس » حاكم مصر السفلى ، و « شنوده » حاكم الريف ، و « فيلوخينوس » حاكم أركاديا (الفيوم)[٢] » .

ومن أقدم من دخل فى الإسلام جماعة من القبط ، أخذوا بعد صلح بابليون « يختارون الإسلام ، ويفضلون الدخول فيه على دفع الجزية ؛ فقد رأى هؤلاء أن الإسلام يجعل لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين ، ويساويهم بالفاتحين فى شرف محلهم ، ويجعلهم إخوانهم فى كل شىء ، ويسهم لهم فى الفيء ، ولا يفرض عليهم الجزاء ، فكان فى ذلك باعث قوى لكثير منهم على الدخول فى الإسلام ، لا سيما وقد طحن المقوقس عقيدتهم طحنا ، وحطم يقينهم باضطهاده . وكذلك دخل فى الإسلام كثير من الروم ، بعضهم جنود وبعضهم ممن حل فى مصر ... وكان هؤلاء المسلمة يتظاهرون بأنهم من أشد الناس فى أمر الدين ، فيدفعهم ذلك إلى مساعدة إخوانهم العرب المسلمين على استصفاء أموال المسيحيين الذين أخرجتهم الحرب من ديارهم ، وصاروا يستبيحون لعنهم ، ويصفونهم بأنهم أعداء الله[٣] » .

وأسلم طائفة كبيرة من الأسرى عند مدينة بلهيب ، وقد جاء إلى عمرو وهو يحاصرها رد من الخليفة عمر بإقرار صلح الإسكندرية ، فقرأ عمرو كتاب الخليفة على الناس . وقد جاء فيه أن يخير الأسرى ، فمن رضى الدخول فى الإسلام منهم أطلق سراحه ، وصار للمسلمين أخا[٤] .

وقيل إن عمر بن عبد العزيز كان له وال على مصر كتب إليه يقول : إن

---

(١) فتح العرب لمصر ص ٣١٤ (٢) ص ٣٨٤
(٣) ص ٢٤٣ (٤) ص ٣٠٣

الإسلام أضر بالجزية حتى لقد نقص عشرون ألف دينار من عطاء أهل الديوان . فكتب إليه عمر بن عبد العزيز كتابا شديدا قال فيه[١] :

« أما بعد فقد بلغني كتابك . فقد وليتك جند مصر وأنا عارف بضعفك ، وقد أمرت رسولي أن يضربك على رأسك عشرين سوطا ، فضع الجزية عمن أسلم ، قبح الله رأيك . فإن الله إنما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هاديا ، ولم يبعثه جابيا ، ولعمري لَعُمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه » .

ويستدل بتلر[٢] على كثرة من أسلم بتناقص الجزية ، لأنها كانت فى عهد عمرو اثنى عشر ألف ألف دينار (١٢ مليونا) وصارت فى عهد ابن أبى السرح أربعة عشر ألف ألف دينار (١٤ مليونا) ، ثم صارت فى عهد معاوية خمسة آلاف ألف (٥ ملايين) ، بعد أن أسلم عدد عظيم من القبط ، وصارت فى خلافة الرشيد أربعة آلاف ألف (٤ ملايين) .

وهؤلاء دخلوا فى الإسلام بلا ضغط ولا إرهاب ، وكان القبط أحراراً فى عقيدتهم كما يقول مؤرخ منهم اسمه حنا النقيوسى (وهو لا يتورع عن أن يصف الإسلام بأبشع الأوصاف ويتهم من دخلوا فيه بأشد التهم[٣]) ، يقول عن عمرو : ولكنه لم يضع يده على شيء من ملك الكنائس ولم يرتكب شيئاً من الغصب أو النهب .

وخلاصة ما تقدم أن كثيراً من الروم والقبط أسلموا منذ أول الفتح راغبين ، وأن عددهم كان يزداد شيئاً فشيئاً ، وأن إيمانهم بالإسلام كان عظيما ، وأنهم زبحوا كثيراً من وراء اعتناق الإسلام .

ويترتب على ذلك انتشار اللغة العربية بينهم ، لأنها كانت ضرورة لازمة لفهم

---

(١) خطط المقريزي جـ ١ ص ٧٨

(٢) فتح العرب لمصر ص ٤٠٣

(٣) ص ٣٨٦ المصدر نفسه .

الدين ؛ ومن الأئمة من يجعلها فرضاً فى بعض العبادات مثل الخطابة والصلاة . وإذا كان هؤلاء المسلمون كما وصفهم « بتلر » ، من رغبة فى الإسلام وحب له ، فنتيجة ذلك أن يعكفوا على دراسته ، ووسيلتهم الأولى هى تعلم لغته ، يتعلمونها للتفاهم مع إخوانهم المسلمين ، ويتعلمونها ، ويتعلمها غيرهم من القبط لأنها لغة الفاتحين السادة ، والضرورة تدعو إلى التفاهم معهم .

أما الأمر الثانى المهم فى انتشار اللغة العربية بمصر فقد كان نزوح العرب بعد الإسلام من جزيرتهم أفراداً وجماعات إلى هذه البلاد وإقامتهم فيها ، ومخالطتهم لسكانها ، وانتشارهم فى البلاد من أقصاها إلى أقصاها[1] . وخلاصة القول فى هذه الهجرات :

١ — أنها ابتدأت منذ الفتح العربى واستمرت بعده قرونا :

جاء فى الولاة والقضاة أن عمرو بن العاص قدم مصر بثلاثة آلاف وخمسمائة ، ثلثهم من « غافق[2] » . وأكثر من ثلث الجند كانوا من « عك[3] » .

ثم نزلت همدان بالجيزة وكتب عمرو فى شأنهم إلى الخليفة ، فرد عليه أن يجمعهم معه ، فإذا أبوا بنى عليهم حصناً ، ففعل ؛ وسكن الجيزة مع همدان نافع وذو أصبح وغيرهم ، وبرزوا إلى أرض الحرث والزرع[4] . وفى هجرة بَلِىٍّ يقول المقريزى :

---

(١) تشير إلى ذلك كتب الخطط مثل خطط المقريزى فى « ذكر نزول العرب مصر واتخاذهم الزرع معاشا وماكان فى نزولهم من الأحداث ج ١ ص ١٢٨ » ومثل كتابه « البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب » وفى « صبح الأعشى » جزء ٣ ص ٣٣١ بيان عن هذه الهجرات من جزيرة العرب واستقرار أهلها فى نواحى مصر كما تجد فى كتاب « الولاه والقضاة » للكندى وغيره حديثا عن هذه القبائل غير مقصود لذاته ، يذكر فيه منازلها فى مصر أو مواطنها الأولى فى جزيرة العرب ، أو ظروف هجرتها ، أو تنقلها من مكان إلى مكان فى البلاد وهكذا .

(٢) ص ٨ (٣) فتح العرب ص ١٧٦

(٤) حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٩ وخطط المقريزى — القسطاط

« وبلى قبيل عظيم فيه بطون كثيرة . وكانت بلى بالشام ، فنادى رجل من بلى بالشام بالقضاعة ، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكتب إلى عامل الشام أن يُسَيِّر ثلث قضاعة إلى مصر ، فنظروا فإذا « بلى » ثلث قضاعة ،فسيروا إلى مصر (١)

ويقول : « وجذام من قدماء عربان مصر قدموا مع عمرو بن العاص (٢) » .

ولما عرض المقريزى لقيس قال (٣) : وبنو سليم من قيس . وكان نزول سليم وعدة قبائل من قيس فى أرض مصر سنة تسع ومائة ، وأمير مصر إذ ذاك الوليد ابن رفاعه بن خالد بن ثابت الفهمى ، ولم يكن بأرض مصر أحد من قيس قبل ذلك إلا من كان من فَهْم وعَدْوان ، فإنهما من قيس فى جَديلة .

وعن الهيثم بن عدى قال حدثنى غير واحد أن عبيد الله بن الحبحاب لما ولاه هشام مصر قال :ما أرى لقيس حظا فيها إلا لناس من جديلة — وهم فهم وعدوان — فكتب إلى هشام : إن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه قد شرف هذا الحى من قيس ونَعَشهم ورفع من ذكرهم ، وإنى قدمت مصر ، فلم أر لهم فيها حظا إلا أبياتا من فهم ، وفيها كور ليس فيها أحد ، وليس يضر بأهلها نزولهم معهم ، ولا يكسر ذلك خراجا ؛ وهى بلبيس ، فإن رأى أمير المؤمنين أن ينزلها هذا الحى من قيس فليفعل . فكتب إليه هشام : يترك الأمر إليه ، فبعث إلى البادية ، فقدم عليه مائة أهل بيت من بنى نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن ، ومائة أهل بيت من بنى عامر بن صعصعة ، ومائة أهل بيت من هوازن ... فأنزلهم بلبيس ، وأمرهم بالزرع ، ونظر إلى الصدقة من العشور فصرفها إليهم ، فاشتروا إبلا ، فكانوا يحملون الطعام إلى القُلْزم ، فكان الرجل يصيب فى الشهر العشرة دنانير وأكثر ، ثم أمرهم باشتراء

---

(١) ص ٣٧ (٢) ص ٣٣ البيان والإعراب .

(٣) ص ٦٤ البيان والإعراب .

الخيول ، فجمل الذى يشترى المهر لا يمكث إلا شهراً حتى يُركبَ ، وليس عليهم مئونة فى أعلاف إبلهم ولاخيلهم لجودة مراعيهم .

فلما بلغ ذلك عامة قومهم تحمل إليهم خمسمائة أهل بيت من البادية فكانوا على مثل ذلك . فأقاموا سنة فأتاهم نحو ألف وخمسمائة أهل بيت من قيس ، حتى إذا كان زمن مروان بن محمد ، وولى الحوثرة بن سهيل الباهلى مصر ، مالت إليه قيس ، فمات مروان وبها ثلاثة آلاف أهل بيت ، ثم توالدوا . وقدم عليهم من البادية من قدم ، فأحصوا فى ولاية محمد بن سعيد ، فوجدوا خمسة آلاف ومائتين ، ما بين صغير وكبير .

ويعين زمن قدوم أولاء الكنز فيقول[1] أصلهم من ربيعة وكانوا ينزلون اليمامة وقدموا أرض مصر فى خلافة المتوكل على الله أعوام بضع وأربعين ومائتين فى عدد كثير ، وانتشروا فى النواحى ، ونزل طائفة منهم بأعالى الصعيد ، وسكنوا بيوت الشعر فى براريها الجنوبية وأوديتها . وكانت « البجـة » تشن الغارات على القرى الشرقية فى كل وقت حتى أخربوها ، فقامت ربيعة فى منعهم من ذلك حتى كفوهم ، ثم تزوجوا منهم واستولوا على معدن الذهب العلاق ، فكثرت أموالهم واتسعت أحوالهم ، وصارت لهم مرافق ببلاد « البجة » واختطوا قرية تعرف بالنمامس ، وحفروا بها آباراً .

وَسَنْبَس من طي ، نزلوا بالبلاد سنة ٤٤٢هـ، وثعلبة وطائفة من جَرْم جاءوا إلى هذه البلاد زمن صلاح الدين . وعدة القبائل التى كانت بمصر عند مجىء الغُزِّ مع أسد الدين شيركوه كثير[2] .

٢ — ونزح المهاجرون من أماكن متفرقة فى بلاد العرب . فقيس وبَلِيٌّ من الشام ، ورهط كلب بن عدى من الحجاز ، وقريش من الحجاز من مكة ، والأنصار

---

(١) البيان والإعراب ص ٤٨

(٢) ص ٣٣

من المدينة ، ولخم وجذام وبنو هلال بن عامر وجهينة من اليمن[١] ، وأولاد الكنز أصلهم من اليمامة[٢] وهكذا .

٣ — أما منازلهم بأرض مصر فهى كثيرة كذلك ، وتكاد تشمل البلاد كلها من أسوان إلى البحر الأبيض ، مثل سنبس الذين نزلوا بالبحيرة فى ديار بنى قرة[٣] ، والعمريين الذين نزلوا البرلس[٤] ، وجذام الذين سكنوا بالحوف[٥] ، وسعود جذام الخمسة الذين نزلوا من منية غمر إلى زفيتا[٦] .

ونزل ببلاد الصعيد عدة قبائل من العرب : ففى بلاد أسوان وما تحتها بنو هلال ، وفى بلاد إخميم وما تحتها بلى ، وفى بلاد منفلوط وأسيوط جهينة ، وفي بلاد الأشمونين قريش . وكانت دور بنى سهم حول جامع عمرو بن العاص من الفسطاط إلى أن دثرت[٧] . وكانت عيذاب لبنى يونس من ربيعة ، ملكوها عند قدومهم من اليمامة ، فجرى بينهم وبين بنى بشر حروب انهزموا فيها ، ومضوا من عيذاب إلى الحجاز[٨] . ثم وقعت حروب بين بنى بشر قتل فيها اسحق بن بشر . فأحضروا إليها من بلبيس الشيخ أبا عبد الله محمد بن على[٩] فنزل إلى أسوان وأنشأ مكانه المعروف بساقية شعبان .

وكانت للعرب عدة إقطاعات منها هربيط وتل بسطه وغير ذلك . وكان اقطاع ثعلبة جميعه فى مناشير جذام . وإنما السلطان صلاح الدين وسع لثعلبة فى بلاد جذام .

ونزل بالصعيد طائفة من الأنصار منهم بنو محمد وبنو عكرمة وديارهم بحرى منفلوط .

---

(١) البيان والإعراب ص ٣٨ (٢) ص ٤٨ (٣) ص ٢٥

(٤) ص ٢٦ (٥) ص ٢٩ (٦) ص ٣٢

(٧) ص ٤٨ (٨) ص ٤٩ (٩) ص ٤٩

٤ — وبعضهم نزل فى أكثر من جهة من مصر ، وقد تشمل القرية الواحدة عدداً من البطون : فجذام نزلت فى أماكن متفرقة وامتزج من كان منهم مصر بولد زيد ، وهم بحرى الحوف إلى ما يلى أشموم ، وكانت قرارة بنى سعد تل طنبول إلى نوب طريف ، ومنهم بدقدوس ودمريط ، وضواحى القاهرة إلى أطراف الشرقية ، وبالإسكندرية جماعة من لخم وجذام[١] .

وكان بنو هلال أهل بلاد الصعيد إلى عيذاب . وبأخميم منهم بنو قُرَّة ، وبساقية قلته بنو عمرو . وبأصفون وإسنا بنو عقبة وبنو جميلة ، ومن بنى غافق بطن يعرفون بالقرافة ، سكنوا سفح المقطم ثم تركوا أماكنهم . وتفرقوا فى البلاد المصرية ، وصار مكانهم مقبرة للمسلمين فسميت المقبرة فى مصر بالقرافة ، نسبة إليهم[٢] .

وجهينة نزلت فى أماكن متفرقة[٣] وقريش كذلك .

وبنو الليث من كنانة سكان ساقية قلته وباقيهم فيما يليها[٤] . وعوف بن سليم فى بلاد الصعيد ، وفى الفيوم والبحيرة[٥] . وفزارة قيس منها جماعة بالصعيد وجماعة بضواحى القاهرة فى قليوب وما حولها[٦] ، ولخم نزلت أماكن متعددة[٧] وفى الدقهلية والمرتاحية عرب كثيرون وبنو سهم منهم أشتات بالصعيد[٨] .

٥ — بل إن بعضهم كان يلحق بالقبائل لقلة عدده ثم تأتي ظروف فيستقلون ؛ يقول الكندى[٩] :

ولما رأى بشر بن صفوان افتراق قضاعة كتب إلى يزيد بن عبد الملك يسأله الإذن له فى استخراج من كان منهم فى القبائل فيجعلهم دعوة منفردة ، فأذن له

---

(١) ص ٣٥
(٢) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٣٨ الأدب المصدر الإسلامى ص ١٨
(٣) ص ٣٨ (٤) ص ١٥ (٥) ص ٥٢
(٦) ص ٥٣ (٧) ص ٦١ — ٦١ (٨) ص ٤٧
(٩) ص ٧١ الكندى

يزيد بن عبد الملك بذلك ، فأخرج مهرة من كندة ، وأخرج تنوخا من الأزد ، وأخرج آل كعب بن عدى التنوخى من قريش ، وأخرج جهينة من أهل الراية ، وأخرج خشينا من لخم فجعلهم مع سائر قضاعة دعوة منفردة(١) .

وتدوين بشر هذا هو التدوين الرابع ، لأن الأول تدوين عمرو بن العاص ، والثانى تدوين عمرو بن عبد العزيز ، والثالث تدوين قرة بن شريك ، والرابع هو هذا ، ولم يكن بعد هذا فى الديوان شىء له ذكر إلا ما كان من إلحاق قيس فيه زمن هشام . وأشياء أحدثها المسودة من أرباعهم التى أحدثوها منه(٢) .

٦ — وأما أعمالهم فى مصر فكانت متعددة ، وأول عملهم كان الحرب والمرابطة ، ثم تملكوا وزرعوا ، أو اشتغلوا بغير ذلك .

كأولاد الزبير — رضى الله عنه — صارأ كثرهم صاحب معايش وأهل زرع وفلاحة وماشية وضرع(٣) .

٧ — وكانت هناك هجرة من الغرب أيضاً من لواتة ، ومن أشهر قبائلها هوارة ، وقد نزلت منازل متفرقة ، فنزل بعضهم بالبحيرة ، ونزل بالصعيد جماعة ، أنزلهم الظاهر سنة ٧٨٢ ﻫ وذلك أنه أقطع إسماعيل بن مازن ناحية جرجا وكانت خرابا فعمرها وأقام بها(٤) . وفى المنوفية من لواته وأحلافهم كثير .

كثرة العرب بمصر :

ومما يدل على كثرة العرب بمصر أن أعدادهم كانت كبيرة فى الحوادث والحروب ، فقدجاء عمرو إلى مصر ففتحها بأربعة آلاف ، واستمد أمير المؤمنين عمر

---

(١) ص ١٠٢ الكندى

(٢) ص ٧١ الكندى

(٣) ص ٤٧

(٤) ص ٦٠

فأمده بالزبير بن العوام على اثنى عشر ألفاً[١] وتتابعت الجنود بعد ذلك كلما احتاج إليهم ، وكانوا مرابطين حتى مات عمر رضى الله عنه ، وكان من سياسة عثمان ألا يمنع الناس من تملك الأراضى فاستقر قوم من العرب فى مصر ، ولكنهم كانوا بالفسطاط وما حولها والإسكندرية وما يتلوها[٢] ثم كثرت العرب حتى أن عتبة عقد لعلقمة بن يزيد العطيفى على الإسكندرية[٣] فى اثنى ألفاً من أهل الديوان يكونون بها رابطة ، فكتب علقمة « يشكى » قلة من معه من الجند وأنه يتخوف على نفسه وعليهم[٤] .

وبلغ من قوتهم أن انتصروا على الروم فى ذات الصوارى وهى أول حرب بحرية لهم ، ثم غزوا بعد ذلك فى البحر فغزا عقبة بن نافع رودس[٥] فكم كان عدد جند المسلمين فى تلك الغزوات ؟ .

ومن قصيدة عبد الرحمن بن الحكم التى قالها فى فتح مروان لمصر ترى أن كثيراً من القبائل كانت بمصر مع عدوه بن جَحْدم والى مصر لابن الزبير وقد قتل يومئذ خلق كثير من الجانبين ، يقول عبد الرحمن :

وجاشت لنا الأرض من نحوهم ... بحَيَّىْ تُجيبَ ومن غافِقِ
وأحياءِ مَذحِجَ والأَشعرين ... وحِمْيَرَ كالهب المحرق
وسدت مَعَافِرُ أفق البلاد ... بمرعد جيش لها مُبرق[٦]

وفى قتل الأكدر بن حمام على يد مروان يقول الكندى[٧] : « وتنادي الجند قتل الأكدر ! فلم يبق أحد حتى لبس سلاحه ، فحضر باب مروان منهم .

---

(١) ص ٩٠٨ الكندى عن ابن وهب عن لهيعة عن يزيد ابن أبى حبيب أن عمرو ابن العاص قد بثلاثة آلاف وخمسمائه ثلثهم من غانق ، ثم مد بالزبير بن العوام فى اثنى عشر ألف .

(٢) البيان للمقريزى ص ٤٧

(٣) الكندى ص ٣٦

(٤) خطط المقريزى جـ ٢ ص ٨٧

(٥) ص ٣٨ الكندى .

(٦) الولاة والقضاة .

(٧) ص ٤٦ .

زيادة على ثلاثين ألفاً » وكان الأكدر سيد لخم وشيخها ، فإن كان هذا العدد من أنصاره فهو كثير ، وإن كان من لخم وحدها فهو دليل أقوى على كثرة العرب بمصر ونحن ما زلنا فى سنة ٦٥ هـ . ثم إن امرأته كانت معه فهذا دليل الإقامة والاستقرار .

وعبد العزيز بن مروان ينشئ مدينة أخرى غير الفسطاط هى « حلوان » ويحيطها بأبهة الأمارة ، وينزل بها معه كثير من الناس[(١)] .

وأدل من ذلك على كثرة القبائل بمصر ما يرويه الكندى[(٢)] عن كرم عبد العزيز بن مروان قال : وكان لعبد العزيز ألف جفنة كل يوم تنصب حول داره ، وكانت له مائة جفنة يطاف بها على القبائل ، تحمل على العجل إلى قبائل مصر وقد استأذن الحر بن يوسف من هشام فى أن يبنى الناس فى أرض انكشف عنها النيل ليست لمسلم ولا لمعاهد ، وهم مضطرون إليها ، فأذن له فى بناء قيسارية هشام ، فابتدأ فيها فى رجب سنة ١٠٧ هـ ، وهذا أيضاً دليل الاستقرار والعمل عليه وضيق البلاد بالناس .

وقد انتجع العرب ريف مصر من أول الفتح[(٣)] فكان إذا جاء الربيع تفرق العرب فى البلدان فيذهب آل عمرو بن العاص وآل عبد الله بن سعد إلى منوف ووسيم ، وكانت هذيل تذهب إلى بيا وبوصير ، وتذهب عدوان إلى بوصير . وكانت فهم تذهب إلى « إتريب » وعين شمس ومنوف الخ وفى عهد العباسيين فى سنة ١٦٧ خرج من الحوف قيس واليمن على موسى بن مصعب[(٤)] ، ونسمع بقيس فى ثورات كثيرة بالحوف منها ثورتهم التى أدت إلى مقتل عمير بن الوليد سنة ٢١٤ هـ[(٥)] .

---

(١) ص ٤٩ .
(٢) ص ٥١ .
(٣) خطط المقريزى جـ ٢ ص ٢٦٠ .
(٤) ص ١٢٥ الكندى .
(٥) ص ١٨٦ الكندى .

ونسمع بلخم فى ثورة الجروى حوالى سنة ٢٠٠ ، وفى ثورة الصوفيـة والأندلسيين بالإسكندرية فقد عاضدوا هذين فى ثورتهما على عمر بن هلال [(١)] ، ثم فسد أمر لخم والأندلسيين ووقعت بينهم حرب انهزمت فيها لخم [(٢)] .

ونسمع بمُدْلج تحارب الأندلسيين [(٣)] وَيُغْـلَبون وينفيهم الأندلسيون من الإسكندرية ونسمع بهم يمدون القبط بسخا فى خروجهم على الجروى سنة ٢٠٢ وفى ثورة على الأفشين سنة ٢١١ [(٤)] .

ونسمع فى هذا التاريخ الطويل بحروب وانتقالات جيوش ، وثورات من أهل البلاد فى أنحاء مختلفة . ويذهب الجند لإخمادها ويقيمون بين الناس لحفظ الأمن ، وقد يتصلون بهم فى البيع والشراء ويشاركونهم فى الدور والغلات ويجمعون منهم الخراج والجزية ، ويقضون بينهم بالعدل فى الخصومات ، ويحدثونهم بلسان عربى ، ويخاطبهم هؤلاء بهذا اللسان ، لأنه لسان الدين ، ولسان الحاكمين .

ومما شجع العرب على الاستيطان أو دفعهم إليه دفعاً أن المعتصم قطع أعطياتهم وأسقطهم من الديوان وأرسل بذلك إلى كيدُر [(٥)] واليه على مصر فثار عليه يحيى بن الوزير الجروى فى جمع من لخم وجُذام ، وقال : هذا أمر لا نقوم فى أفضل منه لأنه منعنا حقنا وفيئنا ، فهزمهم مظفر بن كيدُر فى تنيس سنة ٢١٩ هـ [(٦)] .

ونحسن باشتراك المصالح بين القبط والمسلمين ونُصرة بعضهم لبعض ، فقد نصرت مدلج القبط فى ثورة سخا سنة ٢٠٢ هـ ، ولما ثار المصريون على المأمون سنة ٢١٦ هـ كان القبط والمسلمون جنباً إلى جنب [(٧)] .

أثر هذه الهجرات فى اللغة :

وكان من هذه الهجرات ، والتنقل بين الريف والحضر ، وفى السلم والحرب

---

(١) ص ١٦٢ الكندى . (٢) ص ١٦٣ (٣) ص ١٦٤
(٤) ص ١٩١ (٥) ص ١٩٣ (٦) ص ١٩٤ (٧) ص ١٩٠

واختلاط القبائل المختلفة اللهجات بعضها ببعض ، وبأهل البلاد مسلمين وغير مسلمين :

١ — أن صارت العربية لغة البلاد فى حديثها وأدبها وعلمها ؛ وإذا كانت القبطية ظلت أزماناً تستعمل فى بعض الجهات لغة حديث وكتابة وعبادة ، فإن مغالبة العربية لها ، واستعانةهذه بكثرة المهاجرين ، وكثرة من أسلم من أهل البلاد أضعفتها شيئاً فشيئاً حتى خلا الميدان للغة القرآن الكريم . وكانت مزاحمة العربية مبكرة ، فإن ساويرس ابن المقفع كتب كتابه « عن تاريخ حياة البطارقة » حوالى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، وقال فى مقدمته التى كتبها بنفسه إنه كان يلجأ إلى بعض القبط ليترجموا له الوثائق اليونانية والقبطية إلى العربية ؛ إذ أن اللغتين المذكورتين كانتا ، حتى عند ذلك الوقت ، غير معروفتين لأكثر المسيحيين ، ومنه يظهر مدى الاضمحلال الذى أصاب اللغتين (١) .

والحق أن اليونانية التى كانت لغة علم ودولة ، قد ضعفت بدخول الإسلام مصر ، وإن ظلت مستعملة قليلا فى بعض المدارس بالإسكندرية وفى بعض الأديرة الملكانية .

وأما السريانية فكانت لغة العلم وبخاصة الطب ، وظلت مستعملة حتى جاء عهد العباسيين ، فارتحلت إلى مدارس شمال العراق والشام وفارس وأودعت العربية ذخائرها الأصلية والمنقولة ، وبخاصة ما كان عن اليونانية .

٢ — وحلت بالبلاد لهجات عربية متعددة مع هؤلاء النازحين تشبه لهجاتهم فى موطنهم الأول ، وتأثرت فى وطنها الجديد بما جاورها من اللهجات العربية ، وباللغة المحلية التى كانت قبلها فى ذلك الوطن . أما مدى تأثرها فيختلف على قدر الاختلاط بغيرها ، وكثرة من يجاورها .

---

(١) فتح العرب لمصر ص ٢٩ — ٣٠

٣ — ولم تتأخر العربية عن استخدام بعض الألفاظ والـكلمات المحلية أو اليونانية إذا دعت إليها حاجة ، ولا عن الإكثار من كلمات عربية يكثر مدلولها فى مصر مما يتصل بالنيل والخصب والزراعة والحصاد والفيضان والمقاييس والخلجان والترع وغير ذلك .

ثم هؤلاء القوم الذين ورثوا البلاد من بعد أهلها ، وبدلوا دينها ولغتها ، وصاروا أصحاب تاريخها وحضارتها قد مهدوا للأدب العربى سبيلا إليها ، حتى صار الأدب الوحيد فيها بعد حين . وقد تنوعت فنونه ، وتعددت رجاله ، وكثرت الرحلة به ، وعظم الجزاء عليه ، وهذا حديثنا عنه فى الفصول التالية .

الفصل الثانى

الخطابة والوصايا فى مصر

(١) الخطابة :

كان من الطبيعى أن ينتقل البيان العربى إلى مصر مع الفاتحين ، وأن يكون استخدام هذا البيان بقدر ما تدعو إليه الضرورة أولا .

وكانت حاجة العرب فى أول هذا الفتح شديدة إلى خطابة يثبت بها القائد قلوب جيشه ، ويبعث بها الحمية والإقدام فى جنوده ، ويهون بها شأن أعدائهم ، ويذكرهم بما خرجوا من أجله وهو النصر أو الشهادة .

وكانت الجمعة فرصة مواتية يخطب فيها كل أسبوع ، فيتحدث فى الشئون العامة التى تشغلهم ، فإذا دعت الضرورة إلى خطابة فى أى وقت آخر كان القائد أو أحد أعوانه أسرع إليها ، وأقدر عليها ، وكانت استجابة الجند وغيرهم سريعة إليها .

وروى أن المسلمين كانوا فى يوم جمعة قد اجتمعوا للصلاة ، فسار بينهم عمرو بن العاص يحرضهم على القتال ، وكان ذلك فى أثناء حصار « بابليون » ، فرآهم ربيئة القوم ، وحمل إلى قومه فى الحصن خبر اجتماعهم ، فلما انتهى عمرو من خطبته نزل عن منصته الساذجة التى كان يخطب عليها ، وأم المسلمين فى الصلاة .

وفى هذا دليل على أن خطبة الجمعة كانت تدور حول ما يشغل المسلمين من أمرهم ، وأهم ما كان يشغلهم يومئذ فتح الحصن ، فكانت خطبة عمرو فى التحريض على القتال .

وكان قائد الفتح عمرو بن العاص رضى الله عنه ، أول خطباء العرب بهذه الديار وقد كان قائداً منصوراً ، وخطيباً فصيحاً ، ورسولاً معروفاً بالكياسة والدهاء .

وكان له فى مصر صفة القائد والحاكم والإمام ، فتنوعت خطابته بين الحرب والسياسة والدين ، وكثرت هذه الخطب وتعددت ، ولكن ما بقى منها قليل إذ كان التدوين قليلا ، وكان حفظ الخطب عسيراً . وإن ما بقى من هذه الخطب يدل دلالة كبيرة على بلاغة قائلها ، ووضوح عقله وصراحته . فتراه فى إحدى خطبه يقرر العلاقة بينه وبين أهل البلاد فى إيجاز وصراحة .

روى أنه رضى الله عنه خطب مرة على المنبر فقال : « لقد جلست مجلسى هذا فى هذا البلد ، وليس لأحد فيه علىَّ عهد ولا عقد ، إن شئت قتلت ، وإن شئت سبيت » .

وفى صفات عمرو أنه كان فصيحاً فصاحة جعلت سيدنا عمر رضى الله عنه يذكره لما رأى رجلا يتعثر فى كلامه ، فيقول « أشهد أن خالق هذا وخالق عمرو ابن العاص واحد » ، ومعنى ذلك أن الله خلق الفصيح مثل عمرو : والتمتام مثل ذلك الرجل ، وأن عمراً كان معروفاً بهذه الفصاحة حتى كان أقرب من يخطر ببال عمر عندما أراد المقارنة .

ومما يدل على اهتمامه ، واهتمام الناس جميعاً بالقول ، ما ورد عنه بعد فتح الإسكندرية ، فقد أراد أن يرسل معاوية بن حديج إلى الخليفة يبشره ، فطلب منه رسالة مكتوبة : فقال له عمرو : ألست امرءاً عربياً تقدر على وصف ما شهدته !

خطبة لعمرو :

وتبدو حكمة فاتح مصر فى خطبته التى قالها فى مسجده ، فى يوم جمعة [1] ، بعد أن استقرت الأمور .

قام عمرو فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ، ثم أمر الناس بالإحسان

(١) حسن المحاضرة جـ ١ ص ٥٣ .

والصدقة وطاعة الوالدين : وأمرهم بالقصد ، ونهي عن الإفراط والفضول ، وقد قال فيها :

« يامعشر الناس إياى وخلالا أربعاً ، فإنها تدعو إلى النَّـصب بعد الراحة ، وإلى الضيق بعد السـعة ، وإلى الذل بعد العز : إياى وكثرة العيال ، وانخفاض الحال ، وتضييع المال ، والقيل بعد القال ، فى غير دَرَك ولا نوال . إنه لا بد من فراغ يؤول المرء إليه فى توديع جسمه والتدبير لشأنه ، وتخليته بين نفسه وشهواتها ، فمن صار إلى ذلك فليأخذ بالقصد والنصيب الأقل ، ولا يضيع المرء فى فراغه نصيبَ نفسه من العلم ، فيكون من الخير عاطلا ، وعن حلال الله وحرامه عادلا .

يامعشر الناس قد تدلت الجوزاء ، وارتفعت الشِّـعرى ، وأقلعت السماء : وارتفع الوباء ، وقل الندى ، وطاب المرعي ، ووضعت الحوامل ، ودرجت السخائل ، وعلى الراعى حسن النظر ، فَحَىَّ بكم على بركة الله إلى ريفكم ، فتناولوا من خيره ولبنه ، وخِرافه وصيده ، وأَرْبِعُوا خيلكم وأسمنوها ، وصونوها وأكرموها ، فإنها جُنتكم من عدوكم ، وبها تنالون مغانمكم وأنفالكم . واستوصوا بمن جاورتم من القِـبْط خيراً ، وإياكم والمسوَّمات والمعسولات فإنهن يفسـدن الدين ويُقَصِّرْنَ الهمم .

حدثنى أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر ، فاستوصوا بقبطها خيراً ؛ فإن لكم فيها صِهراً وذمة » فكفوا أيديكم وفروجكم : وغُضوا أبصاركم .

فلا أعلمَنَّ ما أتى رجلٌ أسمن جسمه وأهزل فرسه ، واعلموا أنى معترض الخيل كاعتراض الرجال . فمن أهزل فرسـه من غير علة حططتُه من فريضته قدر ذلك . واعلموا أنكم فى رِباط إلى يوم القيامة ، لكثرة الأعداء حولكم ولإشراف قلوبهم إليكم وإلى داركم ، معدنِ الزرع والمال والخير الواسع والبركة التامة .

« حدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً فذلك الجند خير أجناد الأرض » . فقال له أبو بكر : ولِمَ يارسول الله ؟ قال : لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة فاحمدوا الله معشر النـاس على ما أولاكم ، فتمتعوا فى ريفكم ما طاب لكم ، فإذا يبس الزرع ، وسخن العمود ، وكثر الذباب ، وحمض اللبن ، وصَوَّح البقل ، وانقطع الورد من الشجر ، فحى إلى فسطاطكم على بركة الله . ولا يقدَمَن أحدٌ منكم ذو عيال على عياله إلا ومعه تُحْفَةٌ لعياله على ما أطاق من سَعَته أو عُسْرته . أقول قولى هذا وأستحفِظ الله عليكم » . (١)

هذه الخطبة من أطول الخطب التى حفظت لنا من تاريخ الولاة بمصر ، وأشملها ؛ فقد جمعت بين الموعظة والتحذير ، وبين الآداب العامة والخاصة ، ودعت إلى الراحة بعد النصب ، وإلى متابعة العمل فى وقت الفراغ ، وإلى تمتع المرء بالشهوات مع القصد والاعتدال .

ثم دعت المخاطبين إلى أن يذهبوا إلى الريف ، وأن يحسنوا الاستمتاع بخيره ، وأن يرعوا خيلهم حق رعايتهـا . ثم وصاهم عمرو بالقبط خيراً وذكر وصية النبى صلى الله عليه وسلم فيهم . ثم عاد إلى العناية بالخيل ، وما قاله صلى الله عليه وسلم فى جند مصر : وأمرهم بعد ذلك بالعودة إلى الفسطاط ومع كل منهم ما قدر ، تحفةً لعياله .

وإذا كان هناك ما يؤخذ عليها فهو ترك الكلام قبل أن يكتمل ، والحديث فى نقطة ثم العودة إليها ، بعد الكلام فى مسألة أخرى ، كالوصية بالقبط والحديث عن الخيل . وهذا اضطراب لا يتفق مع ما عرف به عمرو من حضور البديهة ، ولباقة الحديث . وربما كان جمعها من ألسنة الرواة عند تدوينها سبباً فى هذا القلق البادى فيها

(١) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٧١ .

فإذا نظرنا إليها مجزأة وجدنا فى معانيها ما يأباه الطبع العربى ، فكيف ينهى عن كثرة العيال والله هو الرزاق . ثم إن العرب يفخرون بكثرة الولادة . وإذا كانت حاجتهم إليها فى الجاهلية شديدة فحاجتهم إليها فى زمن الفتوح أشد .

لكنها كانت فى جملتها دستوراً طيباً لو سار عليه العرب لحفظوا لأنفسهم هيبتها ، وغرسوا فى قلوب جيرانهم من القبط محبتها ، وأخذوا للطوارئ عدتها ، وكان من الطبيعى أن تثير أحداث هذه الفترة روح الخطابة فى الجانب الآخر أيضاً ، ومن أشهر خطبائهم « قيرس » المقوقس بطريق المذهب الملكانى ومبعوث الإمبراطور . ومن أشهر خطبه خطبة ألقاها فى كنيسة « القيصريون » ، وقد أقيمت فيها صلاة التحية بمناسبة عودة هذا البطريق من القسطنطينية يوم الاحتفال بعيد الصليب . وفى حديث بتلر[1] عن قيرس « إنه رب البيان والبلاغة » وكان موضوع خطبته تذكيراً للناس بجهاد هرقل فى سبيل الصليب حتى استرده من الفرس وأقامه فى بيت المقدس .

ويرى بتلر فى هذه الإشارة إلى بيت المقدس غرضاً خفياً ، وهو تذكير السامعين بأن بيت المقدس قد صار الآن فى يد المسلمين ، يريد بذلك أن يوهن قلوبهم والمسلمون على أبواب الإسكندرية .

وهناك خطيب آخر من رجال الدين الأقباط وهو البطريق بنيامين الذى ذهب لمقابلة عمرو بعد فتح الإسكندرية فخطب بين يديه « خطبة جليلة » ، وكان عذب المنطق فى تؤدة ورزانة ، ولاشك أن عمراً لم يفهم منها حرفاً واحداً كما يقول بتلر ، ولكنه عندما عرف ما يقصده ، وفهم مراميه ، أحسن تلقيها وقبولها ، وجعله أميراً على قومه . ولاشك أن خطبة بنيامين قد ترجمت له فعرف منها ما يقصده[2] .

---

(١) فتح العرب لمصر ص ٢٧٢ (٢) ص ٣٨٤ المصدر نفسه .

الصلح بين عمرو والمقوقس:

خرج المقوقس ليلا من الحصن ، والمسلمون محاصرون له ، وعبر النيل إلى جزيرة الروضة ، ثم أرسل إلى عمرو جماعة ، كان منهم أسقف بابليون ، فلقيهم عمرو وأكرمهم ، فأدوا رسالتهم ، فقالوا : « إنكم قد ولجتم فى بلادنا وألححتم على قتالنا وطال مقامكم فى أرضنا ، وإنما أنتم عصبة يسيرة ، وقد أظلتكم الروم ، وجهزوا إليكم ، ومعهم من العدة والسلاح ، وقد أحاط بكم هذا النيل ، وإنما أنتم أسارى فى أيدينا ، فابعثوا إلينا رجالا منكم نسمع من كلامهم ، فلعله أن يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب ، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم ، فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه ، ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفاً لطلبتكم ورجائكم ، فابعثوا إلينا رجالا من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شىء » .

فلم يبعث عمرو جواب ما أتوا به ،وحبس الرسل عنده يومين حتى يروا حال المسلمين ، إذ أبيح لهم أن يسيروا فى العسكر ويروا ما فيه ، ثم بعث عمرو برده مع الرسل وقال : « ليس بينى وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال : إما أن دخلتم فى الإسلام فكنتم إخواننا : وكان لكم ما لنا ، وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم ، وهو خير الحاكمين .(١)

وعاد الرسل وقد وقع فى نفوسهم ما عند العرب من بساطة وإيمان فقالوا : « رأينا قوماً الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة . ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة ، إنما جلوسهم على التراب . وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد

(١) النجوم الزاهرة جـ ١ ص ١١

منهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد . يغسلون أطرافهم بالماء ، ويخشعون فى صلاتهم »[(١)]

فأقسم المقوقس : لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ، وما يقوى على هؤلاء أحد ، ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهـذا النيل لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض وقووا على الخروج من موضعهم .

وأرسل المقوقس إلى عمرو كى يرسل إليه وفداً للمفاوضة فأرسل إليه جماعة فيهم عبادة بن الصامت ، وكان أسود شديداً ، وأمره أن يكون متكلم القوم ، ولا يجيب الروم إلى شىء دعوه إليه إلا إحدى هذه الخصال الثلاث .

فركب العرب السفن إلى الروضة ، فلما دخل عبادة على المقوقس هابه وقال : « نحوا عنى ذلك الأسود وقدموا غيره يكلمنى » فقال العرب جميعاً : « إن هـذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً ، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا ، وإنما نرجع جميعاً إلى قوله ورأيه ، وقد أمره الأمير دوننا ، وأمرنا ألا نخـالف رأيه وقوله . ثم قالوا ، فكان قولهم عجيباً عند المقوقس : إن الأسود والأبيض سواء عندهم لا يفضل أحد أحدا إلا بفضـله وعقله وليس بلونه ، فدعا المقوقس عبادة أن يتكلم برفق حتى لا يزعجه ، فقال له عبادة :

« إن فيمن خلفت من أصحابى ألف رجل أسود ، كلهم أشد سواداً منى ... وإنى ما أهاب مائة رجل من عدوى لو استقبلونى جميعاً ، وكذلك أصحابى ؛ وذلك إنما رغبتنا وهمتنا فى الجهاد فى الله ، واتباع رضوانه ، وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة فى دنيا ، ولا طلب للاستكثار منها ... لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها ، يسد بها جوعه ليله ونهاره . وشملة يلتحفها ... لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ، ورخاؤها ليس برخاء . إنما النعيم والرخاء فى الآخرة » .

---

(١) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١١

فوقع هذا القول فى نفس المقوقس وقال لأصحابه : هل سمعتم مثل كلام هـذا الرجل ! إن هذا وأمثاله قد أخرجهم الله لخراب الأرض» ثم أقبل على عبادة فقال :

« أيها الرجل الصالح ، قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن أصحابك ، ولعمرى ما بلغتم ما بلغتم إلا بما ذكرت ، وما ظهرتم على من ظهرتم عليه إلا لحبهم للدنيا ورغبتهم فيها ، وقد توجه إلينا لقتالـكم من جمع الروم مما لا يحصى عدده : قوم معروفون بالنجدة والشدة ، ما يبالى أحدهم من لقى ولا من قاتل ، وإنا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم ... ، ونحن تطيب نفوسنا أن نصالحـكم على أن نفرض لـكل رجل منكم دينارين دينارين ولأميركم مائة دينار ، ولخليفتكم ألف دينار ، فتقبضونهـا ، وتنصرفون إلى بلادكم [قبل أن يغشاكم ما لا قوة لـكم به]

فقال عبادة :

« يا هذا ، لا تغرن نفسـك ولا أصحابك ، أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم ، وأنا لا نقوى عليهم ، فلعمرى ما كان هذا بالذى تخوفنا به ، وإن كان ما قلتم حقاً فذلك والله أرغب ما يكون فى قتالهم ، وأشد لحرصنا عليهم ، لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا ، إذا قدمنا عليه ؛ إن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا فى رضوانه وجنته ، وما شىء أقر لأعيننا ولا أحب لنا من ذلك ، وإنا منكم حينئذ لعلى إحدى الحسنيين ، إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بـكم ، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا ، وإنها لأحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا ، وإن الله عز وجل قال لنا فى كتابه : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصـابرين » وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحاً ومساء أن يرزقه الشهادة ، وألا يرده إلى أهله وولده ، وليس لأحد منا هم فيما خلفه ، وقد استودع كل واحد منا ربه أهله وولده ، وإنما همنا ما أمامنا . . فانظر الذى تريد ، فليس بيننا وبينك

خصلة نقبلها منك ولا نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث ، فاختر أيتها شئت ، ولا تطمع نفسك فى الباطل ؛ بذلك أمرنى الأمير ، وبها أمره أمير المؤمنين ، وهو عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل إلينا » .

جرت هذه المفاوضة بين العرب وعلى رأسهم عبادة ، وبين الروم وعلى رأسهم المقوقس ، وقد كان طابع هذه المفاوضة أدبياً سياسياً دينياً من جانب العرب ، تتجلى فيه صراحة الحق ووضوح البيان وقوة التعبير ، كما تتجلى فيه قوة الإيمان ، واليقين بالنصر ، والثقة فيما وعد الله به ، والرغبة فيما عنده من عاجل الثواب وآجل النعيم .

ولا أدرى كيف خوفهم المقوقس بكثرة العدد ثم عرض عليهم مالا لينصرفوا ألم يكن يعلم مواقفهم فى الشام ، وكيف يخاف من سواد عبادة وما جاءه إلا مفاوضاً ، وما شأنه برياسة وفد المسلمين ، ربما كان ذلك كله فرصة استطاع فيها عبادة ورجاله أن يقدموا للمقوقس صورة من المساواة والإخاء مع اختلاف اللون ، وأن يبينوا له ما فى الإسلام من مثل عالية فى معاملة العدو والصديق . أما دستورهم الذى ثبتوا عليه فهو دستور الإسلام : واحدة من ثلاث : الإسلام أو الجزية أو القتال .

ومن أحسن ما يعجبك فى هذه المفاوضة لباقة هذا البدوى الأسود وهو يرد على الرومى الأبيض . فقد حسب المقوقس أنه ينفذ إلى شجاعة العرب إذ يذكر لهم كثرة العدد ، وحسب أنه يغريهم بالمال فيصرفهم عما قصدوا إليه ، فكان رد عبادة على هذا التخويف والإغراء رداً صريحاً بعيداً عن المخادعة والمداورة وملزماً له وللمقوقس إذ يقول له : « أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم . . . . فلعمرى ما كان هذا بالذى تخوفنا به » . ثم يبين له أن ذلك أدعى للإقدام على الروم فإن هزمهم العرب كثرت الغنيمة ، وإن ماتوا فى سبيل الله ففى رحمته ورضوانه خير الجزاء ، وتلك أحب الخصلتين إليهم ، وبمثل هذا الإيمان ثبت فى نفس المقوقس أن هؤلاء لو استقبلوا الجبال لأزالوها .

وقد كان العرب عند حسن ظنه فأزالوا ملك الروم وثبتوا أركان الإسلام في البلاد .

توالت على هذه البلاد أحداث بعد عمرو بن العاص ، فقد عزله عنها عثمان رضى الله عنه ، وثارت فيها الفتن ، ونشطت الخطابة فى هذه الفتن ، ثم قتل عثمان بيد المصريين كما يقال ، وأرسل على كرم الله وجهه والياً من قبله هو قيس بن سعد بن عبادة . فلما بلغ مصر صعد المنبر فجلس عليه وأمر بكتاب معه من أمير المؤمنين فقرىء على أهل مصر (١) . وقد ذكر فى هذا الكتاب فضل الإسلام والرسول الكريم ، وأن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما قاما بأمر الإسلام بعد الرسول وعملا بالكتاب والسنة ، « ثم ولى بعدهما وال فأحدث أحداثاً ، فوجدت الأمة عليه مقالا فقالوا ، ثم نقموا عليه فغيروا ، ثم جاءوني فبايعوني ، فأستهدى الله عز وجل بالهدى ، ألا وإن لكم علينا العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والقيام عليكم بحقه ، والتنفيذ لسنته والنصح لكم بالغيب ، والله المستعان ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » . وأخبرهم أنه بعث إليهم قيس بن سعد أميراً . وختم الكتاب بتاريخه صفر سنة ٣٦ هـ .

ثم إن قيس بن سعد قام خطيبا فحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم وقال (٢) :

« الحمد لله الذى جاء بالحق ، وأمات الباطل وكبت الظالمين . أيها الناس إنا قد بايعنا خير من نعلم بعد محمد نبينا صلى الله عليه وسلم . فقوموا أيها الناس فبايعوا على كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فإن نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم » . فقام الناس وبايعوا واستقامت له الأمور زمناً حتى

(١) ص ٤٢٥ تاريخ الإسلام « النجار » ، النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٩٧

(٢) تاريخ الإسلام ص ٤٢٤ — ٤٢٧ .

أوقع معاوية به عند على فعزله . وتحركت جيوش معاوية بعد ذلك إلى مصر بقيادة عمرو بن العاص فاستولى عليها وظل بها حتى مات سنة ٤٣ هـ .

خطب عتبة :

ثم وليها عتبة بن أبى سفيان من قبل أخيه معاوية سنة ٤٣ هـ . وكان عهده على قصره كثير الخطب ، وهو أكثر من روى له التاريخ خطباً فى ولاة مصر ، وقد روى ابن عبد ربه فى العقد الفريد[1] له ست خطب . يصرح فى خمس منها بأنها كانت فى مصر ولأهل مصر ، ويتحدث فى السادسة حديث الوالى القادر إلى الرعية العاصية ، ولم نسمع بأنه ولى ولاية أخرى غير مصر . وهذه هى نصوصها كما أوردها ابن عبد ربه ، مع خلاف فى الترتيب :

١ — خطبة عتبة بن أبى سفيان :

بلغه عن أهل مصر شىء فأغضبه ، فقام فيهم فقال[2] بعد أن حمد الله وأثنى عليه : يا أهل مصر إياكم أن تكونوا للسيف حصيداً ، فإن لله فيكم ذبيحاً لعثمان أرجو أن يولينى الله نسكه ! إن الله جمعكم بأمير المؤمنين بعد الفرقة ، فأعطى كل ذى حق حقه ، وكان والله أذكركم إذا ذكر بخطه ، وأصفحكم — بعد المقدرة — عن خحقه ؛ نعمة من الله فيكم ، ونعمة منه عليكم . وقد بلغنا عنكم نجم قول أظهره تقدم عفو منا ، فلا تصيروا إلى وحشة الباطل بعد أنس الحق ، بإحياء الفتنة وإماتة السنة ، فأطأكم لله وطأة لا رمق معها ، حتى تنكروا منى ما كنتم تعرفون ، وتستخشنوا ما كنتم تستلينون ، وأنا أشهد عليكم الذى يعلم خائنة الأعين ، وما تخفى الصدور .

---

(١) جـ ٢ من ص ٣٨٩ — ٣٩١ .

(٢) ص ٣٨٩ العقد الفريد جـ ٢ .

٢ — وخطبة لعتبة :

قدم كتاب معاوية إلى عتبة بمصر: إن قبلك قوماً يطعنون على الولاة، ويعيبون السلف، فخطبهم فقال (١) :

يا أهل مصر؛ خفَّ على ألسنتكم صدع الحق ولا تفعلونه، وذم الباطل وأنتم تأتونه، كالحمار يحمل أسفاراً أثقله حملها: ولم ينفعه ثقلها، وأيم الله، لا أداويكم بالسيف ما صلحتم على السوط، ولا أبلغ السوط ما كفتنى الدرة، ولا أبطىء عن الأولى ما لم تسرعوا إلى الأخرى، فالزموا ما أمركم الله به تستوجبوا ما فرض الله لكم علينا. وإياكم وقال ويقول، قبل أن يقال: فعل ويفعل! وكونوا خير قوس سهما، بهذا اليوم الذى ما قبله عقاب، ولا بعده عتاب.

٣ — وخطبة لعتبة بن أبى سفيان :

سعد القصير قال: وجه عتبة بن أبى سفيان، ابنَ أخت أبي الأعور السلمى إلى مصر فمنعوه الخراج، فقدم عليه عتبة فقام خطيباً فقال (٢) :

يا أهل مصر، قد كنتم تعتذرون لبعض المنع منكم ببعض الجور عليكم، فقد وليكم من يقول ويفعل، ويفعل ويقول، فإن رددتم ترادكم بيده، وإن استصعبتم ترادكم بسيفه، ثم رجا فى الآخر ما أمل فى الأول. إن البيعة متتابعة، فلنا عليكم السمع والطاعة، ولكم علينا العدل. فأينا غدر فلا ذمة له عند صاحبه، والله ما انطلقت بها ألسنتنا حتى عقدت عليها قلوبنا، ولا طلبناها منكم حتى بذلناها لكم ناجزاً بناجز، ومن حذر كمن بشر.»

قال: فنادوه: سمعاً وطاعة، فناداهم عدلاً عدلا.

---

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٣٩١.

(٢) العقد الفريد ج ٢ ص ٣٩١، الولاة والقضاة ص ٣٥، النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٢٤.

٤ — وخطبة لعتبة :

العتبى ، قال سعد القصير : احتبست عنا كُتب معاوية بن أبى سفيان حين أرجف أهل مصر بموته ، ثم قدم علينا كتابه بسلامته ، فصعد عتبة المنبر والكتاب فى يده ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

يا أهل مصر قد طالت مُعاتبتنا إيا كم بأطراف الرماح وظبات السيوف ، حتى صرنا شَجًى فى لها كم ما تسيغه حلوقكم ، وأقذاء فى أعينكم ما تطرف عليها جفونكم ، أفحين اشتدت عرى الحق عليكم عقداً ، واسترخت عقد الباطل منكم حلا ، أرجفتم بالخليفة ، وأردتم تهوين الخلافة ، وخضتم الحق إلى الباطل . وأقدم عهد كم به حديث ، فأريحوا أنفسكم إذ خسرتم دينكم . فهذا كتاب أمير المؤمنين بالخبر السار عنه والعهد القريب منه . واعلموا أن سلطاننا على أبدانكم دون قلوبكم فأصلحوا لنا ما ظهر ، ونكلكم إلى الله فيما بطن ، وأظهروا خيراً وإن أضمرتم شراً ، فإنكم حاصدون ما أنتم زارعون ، وعلى الله أتوكل وبه أستعين . ثم نزل .

٥ — وخطبة لعتبة بن أبى سفيان فى أهل مصر :

يا حاملى ألأم أنوف ركبت بين أعين ! إنما قلمت أظافرى عنكم ليلين مسى إيا كم ، وسألتكم صلاحكم إذ كان فسادكم راجعاً عليكم ، فأما إذ أبيتم إلا الطعن على الولاة ، والتنقص للسلف ، فوالله لأقطعن على ظهوركم بطون السياط فإن حسمت داءكم وإلا فالسيف من ورائكم ، ولست أبخل عليكم بالعقوبة ، إذا جدتم لنا بالمعصية ، ولا أويسكم من مراجعة الحسنى إن صرتم إلى التى هى أبر وأتقى (١) .

٦ — خطبة لعتبة بن أبى سفيان :

لما اشتكى شكاته التى مات فيها تحامل إلى المنبر فقال :

---

(١) فى صبح الأعشى ج ١ ص ٢١٦ والأمالى ج ١ ص ٢٤٥

يا أهل مصر ، لا غنى عن الرب ، ولا مهرب من ذنب ، إنه قد تقدمت منى إليكم عقوبات كنت أرجو يومئذ الأجر فيها ، وأنا أخاف اليوم الوزر منها ، فليتنى لا أكون اخترت دنياى على معادى ، فأصلحتكم بفسادى ، وأنا أستغفر الله منكم وأتوب إليه فيكم ، فقد خفت ما كنت أرجو نفعاً عليه ، ورجوت ما كنت أخاف اغتيالاً به ، وقد شقى من هلك بين رحمة الله وعفوه ، والسلام عليكم ، سلام من لا ترونه عائداً إليكم .

قال : فلم يعد .

تعليق على هذه الخطب :

فالخطبة الأولى قد بدأت بالتحذير من السيف ، ووضحت أن لهذا السيف ثأراً فى رقابهم بما قتلوا عثمان ، وأن الأخذ بهذا الثأر قربة إلى الله يتمناها .

ويعود فيذكر أمير المؤمنين وفضله فى جمع الشمل ، وأهم من ذلك عنده وعندهم « العطاء » ، ثم يصل إلى ما كان حقه أن يبدأ به وهو ما بلغه عنهم ، ثم يحذر وينهى عن الخروج على الطاعة . وكأنه يلمس ناحية حساسة فى قلوبهم إذ يشهد عليهم الله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

ومما قدمت تظهر قوة خطبته من حيث ترتيب معانيها وعلاقتها بالسامعين . فإذا أضيف إلى ذلك جمال الأسلوب ، وحسن التصوير وبديع الزخرف بلا تكلف ولا تعمل زادت قوة . ففيها سجع لا تكلف فيه : وطباق فى وحشة الباطل وأنس الحق ، وإحياء الفتن وإماتة السنن ، والإنكار والمعرفة ، ويستخشنون ويستلينون. ويقوى الخطبة ويترك لها آثاراً فى النفوس إستناده إلى الحق ، وأنه إن وطئهم وطأة لا رمق معها فذلك « لله » .

وليس من المعقول أن يحلل السامع كل هذه تحليلا دراسياً ، ويفعل ما نفعله نحن : ولكن هذه الآثار تسرى إلى نفسه على هذا النحو الذى قدمته فتترك فعلها

فى قرارتها ، وتصل به إلى الإذعان رغبا ورهباً ، وهذا هو سر قوتها .

والخطبة الثانية : أقرب إلى اللين من السابقة ، وفيها تنديد قبل التهديد ، تهديد مشوب بروح العدل ، فهو لن يبدأ بالشدة ، ولن يلجأ إليها ما استقاموا على سبل الهدى : ولن يتأخر عن أداء الحق إلى من يلزم حدود الله ، ولعله يقصد بما أمرهم الله به طاعة أولى الأمر المطلوبة فى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم »(١)، وتشبيههم بالحمار يحمل أسفارا تشبيه غامض ، وإن فصله بعد ذلك ، والمراد به أن علمهم بالحق والباطل لم ينفعهم ، وهى فى جملتها أضعف من الخطبة الأولى تركيبا .

أما الخطبة الثالثة فلها ظرف خاص جاء به الكندى إذ يقول إن عتبة بعد إقامته فى الولاية أشهراً ، « وفد على أخيه بوفد من أشراف أهل مصر ، واستخلف على مصر عبد الله بن قيس بن الحارث ... وكانت أمه أخت أبى الأعور السلمى ، وكانت فيه شدة على أهل مصر ، فكرهوا ولايته وامتنعوا منها ، فبلغ ذلك عتبة فرجع إلى مصر » .

وفى رواية : « فكتب إلى عتبة ، فقدمها فدخل المسجد ورقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه » وقال الخطبة وفيها المعانى المكررة فى الخطبتين السابقتين تقريبا ، فهى تهديد مشوب بالترغيب فى الطاعة ، وكأنما كانت سياسته معهم قوله تعالى : « وإن تنتهوا فهو خير لكم ، وإن تعودوا نَعُدْ »(٢) .

وكانت عاقبة الخطبة خيراً ، فقد نادوه من جنبات المسجد سمعاً سمعاً ، فناداهم عدلاً عدلا .

أما الرابعة ، وهى خاصة بما أرجفوا به من مرض أخيه وموته ، فظاهر فيها

---

(١) سورة النساء آية ٥٩ .
(٢) سورة الأنفال آية ١٩ .

السخط على طول عصيانهم ، وعدم إيمانهم بحق الخلافة المقدس ، وفيها إشاعة روح اليأس فى نفوسهم ، ورغبة ملحة فى أن يستريح من ثوراتهم وأراجيفهم ، وإن أضمروا شراً ، فلا شأن له بالضمير .

وروح الخطبة الخامسة تهديد ووعيد وسباب وشتم . وختامها دعوة إلى الطاعة ووعد بالمثوبة عليها إن حدثت . وهى كالأولى فى زخرفها وزينتها وبخاصة الطباق فى « ظهور وبطون » والبخل والجود ، ثم حسن التقسيم ، واتساق الفواصل وقوة النغم .

وكل خطبة من هذه الخطب الخمس مثال واضح لعتبة ، وإذا كان هناك ما تجتمع فيه من الصفات فهو دورانها حول التحذير والإنذار بالعذاب الشديد ، والدعوة إلى الطاعة ليجزيهم خيراً بخير ، والإكبار لحق الخلافة وبيان فضلها ، وفى أسلوبه قوة ، وفى عباراته رنين ، وفى ألفاظه انسجام ، وفى زخرف جمله بُعد عن التكلف .

أما خطبته التى لم يعد بعدها إلى المنبر ، فهى خطبة التوبة والندم ، وهى خطبة النفس التى تحس بما قدمت ، وتخشى ما هى مقدمة عليه ، ففيها معنى الحسرة على ما فرط فى جَنْب الله ، وعلى ما يحتمل من ظلمه لعباد الله ، ولكنه واسع الرجاء فى المغفرة .

وهذه كلها خطب سياسية ، طابعها الشدة والتحذير والوعيد ، لأنها كانت فى عهد تكوين الدولة وتأسيس الملك الأموى ، والناس قريبو عهد بثورة ، ولكنها تتسم بسمات معاوية أخيه ، من اختلاط الوعد بالوعيد ، ومزج اللين بالشدة ، والإغراء بالعفو والجزاء .

ولا يفرقها عن غيرها من خطب هذا العهد فى قوة الأسلوب وحسن التصوير إلا أنها مصرية الموطن ، ولو قيلت فى العراق أو الشام لما اختلف إلا المخاطبون ،

وهذا يؤيد ما نكرره من أن أدب هذه العهود أدب عربى الصبغة ، صادف أن قيل فى أرض مصر فنسب إلى هذه الديار واتّصل بأدبها .

كلمة عامة عن الخطابة :

وكان عتبة آخر الخطباء الذين حفظ لهم الأدب خطباً من ولاة مصر ، ولكن الخطابة لم تمت بموته ، فدواعيها ظلت موجودة ، وولى أمر الناس رجال ذوو لسن وفصاحة ، ولكن النصوص التى تؤيد هذا القول غائبة ، وإن كانت أدلتها شاهدة فمن الأحداث الهامة التى حدثت بمصر ثورة محمد بن أبى حذيفة على عقبة بن عامر ، وإخراجه من الفسطاط ، والدعوة إلى خلع عثمان . ومثل هذه الثورة على عثمان لا يمكن أن تثور بلا مثير ، ومن أهم وسائل الإثارة أن يخطب الساخطون ، بالطعن على عثمان ، وبيان ما يأخذونه عليه ؛ وكانت لابن أبى حذيفة طريقة ماكرة فى التغرير بالناس ، فقد كان يكتب الكتب على ألسنة أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم يأخذ الرواحل فيضمرها ثم يأخذ الرجال الذين يريد أن يبعث بذلك معهم ، فيجعلهم على ظهور البيوت ، فيستقبلون الشمس بوجوههم لتلوحهم تلويح المسافر ، ثم يأمرهم أن يخرجوا إلى طريق المدينة بمصر ، وأن يرسلوا رسلا يخبرون بهم الناس ليلقوهم ، وأمرهم إذا لقيهم الناس أن يقولوا : ليس عندنا خبر ، الخبر فى الكتب ثم يخرج محمد بن أبى حذيفة والناس للقائهم ، كأنه يتلقى رسل أزواج النبى عليه السلام ، فإذا لقوهم قالوا : لا خبر عندنا ، عليكم بالمسجد ، فيجتمع الناس فى المسجد اجتماعاً ليس فيه تقصير ، فيقرأ عليهم كتب أزواج النبى ، ثم يقوم القارئ بالكتاب فيقول : إنا لنشكوا إلى الله وإليكم ما عمل فى الإسلام وما صنع فى الإسلام . . . ثم يقول ، ثم ينزل عن المنبر ، وينفر الناس بما قرئ عليهم (١) .

---

(١) الولاة والقضاء ص ١٤ .

وبعث إليهم عثمان بسعد بن أبى وقاص يعطيهم ما سألوا ، فبلغ ذلك ابن أبى حذيفة فخطبهم ، ثم قال . ألا إن الكذاب — كذا وكذا — قد بعث إليكم سعد بن مالك ليُقِل جماعتكم ، ويشتت كلمتكم ، ويوقع التخاذل فيكم ، فانفروا إليه . فخرج إليه منهم مائة أو نحوها ، فلقوه بمرحلة بنى سعد وقد ضرب فسطاطه وهو قائل ، فقلبوه عليه ، وشجّوه وسبوه ، فركب راحلته وعاد راحلا من حيث جاء(١) .

هذه مرة أشير فيها إلى المنبر والخطبة في ثورة ابن أبى حذيفة ، ولا بد أن المنبر والخطبة كانا وسيلتهم لإيقاظ الفتنة وإشعالها .

وكيف يمر النزاع بين على ومعاوية بلا خطب ، وقد كان لكل منهما أنصار بمصر ؟ وكيف يمر ما كان بين ابن الزبير وبنى أمية بلا خطب ، وقد كثر مثيله فى الحجاز والعراق والشام !

ونسمع مرة أخرى بالخطابة فى عهد عمر بن عبد العزيز(٢) ، فقد طلب أن يدلوه على رجل من أهل مصر له شرف وصلاح يوليه صلاتها ، فدلوه على أيوب بن شرحبيل ، فكتب إليه بولايته ، وأمر البريد أن تكون موافاته يوم جمعة ، ففعل . فراح أيوب إلى المسجد فركع قريباً من المنبر : فلما أذن المؤذن صعد أيوب المنبر ، فخطب الناس وصلى بهم الجمعة وانصرفوا .

وهناك موقف تثور فيه العاطفة وتنطلق الألسنة ، كان المنبر أظهر وسائل البيان فيه ؛ فإنه لما قتل زيد بن على زين العابدين رضى الله عنه قدم أبو الحكم بن أبى الأبيض العبسى إلى مصر سنة ١٢٢ خطيباً برأسه ، واجتمع الناس إليه فى المسجد الجامع ، ولعله رثاه وبكاه ، واستنهض الناس للقيام بثورة على قاتليه ، وبين لهم عيوبهم وسيئاتهم ، ولكن نص خطبته أو شيء منها ليس مذكورا(٣) .

(١) الولاة والقضاة ص ١٦ (٢) ص ٦٧ (٣) ص ٨١

وقد يشير الراوى إلى هيئة الخطيب ، ويسترعى انتباهه ملبسه وهندامه ، فيذكر ذلك ولايذكر خطبته ، قالوا ، كان والى مصر سنة ١٢٤ هـ حنظلة بن صفوان ، وكانت له ريطة مثنية يلبسها ويصلى فيها ، فإذا كان يوم الجمعة احتزم بها على قباء أبيض ، وتقلد السيف ، ثم يصعد المنبر فيخطب (١) .

وقد يكون المنبر سلم ضراعة ودعاء : روى أن حفص بن الوليد استسقى بالناس فى إمارة هشام بن عبد الملك ؛ قال بكر بن مضر فرأيته رقى المنبر ، واستقبل الناس بوجهه يخطب ، ودعا ، ثم حول ظهره إلى الناس ، واستقبل القبلة يدعو . وحول رداءه ودعا الله ، ثم حول وجهه إلى الناس ، ثم نزل فصلى ركعتين (٢) .

ولا بد أنه كان يدعو بالمأثور فى الاستسقاء ، يسأل الله أن ينزل الغيث عميا ، وأن يجعله حول الناس والدور لا عليهم ، وأن يجعله كثيراً الخ .

وفى عهد مروان بن محمد كان ثابت بن نعيم ممن خالف عليه ، وقدم مصر ومعه نفر من اليمانية ، فخطبوا فى مسجد مصر ، ودعوا الناس إلى خلع مروان . فموضوع الخطبة ظاهر ، وهى خطبة سياسية بلا شك (٣) .

ولما ولى حوثرة بن سهيل الباهلى مصر سنة ١٢٨ ، أرسل الخليفة كتاباً بشأنه يقول فيه : قد بعثت إليكم رجلا أعرابياً بدوياً فصيح اللسان . فاجمعوا له رجلا فيه مثل فضاله « لعلها خصاله » يسدده فى القضاء ، ويصوبه فى النظر .

فأجمع الناس كلهم على الليث بن سعد وفيهم معلماه يزيد بن أبى حبيب وعمرو ابن الحارث ، وجمع الجند إلى المسجد فخطبهم الحوثرة بشعر بليغ (٤) ومنه :

دعوت أبا ليلى إلى الصلح كى يبو	برأى أصيل أو يرد إلى حـلم
دعانى لشبِّ الحرب بينى وبينه	فقلت له مهلا هلم إلى السلم

---

(١) الولاة والقضاة ص ٨٢

(٢) ص ٨٢

(٣) ص ٨٥

(٤) ص ٨٨

ولما وليها عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير ، من قبل مروان بن محمد سنة ١٣٢ هـ ، أمر الناس باتخاذ المنابر فى الكور ، ولم تكن قبله ، وإنما كانت ولاة الكور يخطبون على العصى إلى جانب القبلة[1] .

فهذا الاهتمام بالأشياء المتصلة بالخطابة كرجالها ومنابرها وموضوعاتها يدل على وجود هذه الخطابة ، ومن البديهى أن تكون موجودة ، ولكن النص الأدبى الذى نحتكم إليه عند ما نريد أن نحكم على قوتها أو ضعفها ، أو اتجاهاتها العامة والخاصة ، أو تنوعها ، أوغير ذلك من صفاتها ، ليس بين أيدينا .

والظاهر مما تقدم أنها كانت قوية ، وكانت متنوعة ، فكان منها السياسى كخطبة أيوب بن شرحبيل ، ومنها الدينى كخطبة حفص بن الوليد ، ومنها الثورى كخطبة ثابت بن نعيم ، ومنه الهادئ كخطبة الحوثرة .

أما الخطب الحربية فكان لها موضعها فى أول الفتح ، وفى عهد النزاع بين على ومعاوية ، وعند هجوم مروان على جند ابن الزبير بمصر ، وفى عهد زحف العباسيين عليها سنة ١٣٢ هـ .

وقد تشمل الخطبة أكثر من موضوع ، كخطبة عمرو المتقدمة[2] .

وعند كتب التاريخ من أخبار الفتن والثورات والأحداث إلى قيام العباسيين ما يجعل المؤرخ للخطابة يرجح وجودها وقوتها بسبب هذه الدواعى كاضطراب الأمر على بنى أميـــة ، وهرب مروان بن محمد إلى مصر ، وقدوم جيوش المسودة وراءه .

فمقتضى هذه الثورات والفتن والأحداث أن يكون للخطابة شأنها لقلة شأن الكتابة عندئذ ، وعدم غنائها فى مثل هذه الظروف ، وعدم غناء الشعر فى مناقشة

---

(١) الولاة والقضاة ص ٩٣ .

(٢) أنظر ص ٢٠ من هذا الكتاب .

آراء ، أو بيان حق ، أو دعوة إلى نصرة ، أو ما شابه ذلك . ولكنها كانت أقل عدداً ورجالاً منها فى العراق والشام والحجاز .

وما حفظه التاريخ من هذه الخطب قليل نادر ، وليس هناك نص كامل لخطبة من هذه الخطب . وأسباب قلة المروى من الخطابة العربية تتلخص فيما يلى :

١ — كانت بيئة الفصاحة والبيان فى جزيرة العرب مهد الفصحى ، والشام والعراق مهاجرها فى عهد بنى أمية ، نخرج فى هذه البلاد مشاهير الشعراء ، كما ظهر فيها مشاهير الخطباء من الخلفاء ، كمعاوية ، وعبد الملك ، وعمر بن عبد العزيز ، وهشام ، ومن فصحاء الولاة كزياد والحجاج وخالد القسرى ، ومن زعماء الغاضبين على بنى أمية ، كالحسين وابن الزبير وابن الأشعث ، وزعماء الخوارج كنافع بن الأزرق ، وقطرى بن الفُجاءة ، وأبى حمزة .

٢ — جد من الحوادث والفتن فى تلك البلاد ما جعل الخطابة تشتعل مع هذه الثورات المشتعلة ، وكان بنو أمية فى شغل بأمر ولاية العهد ، ولكل منهم هوى فى ابنه بدلا من أخيه أو ابن عمه مثلا ، ويبدأ ذلك من عهد معاوية . فتشغل الخطابة فى بيعة يزيد طويلا . وابن الزبير يغضب لهذه البيعة وتسنح الفرصة لخروجه بعد معاوية ، ويستولى على أكثر البلاد الإسلامية ، وتشغل الخطابة مؤيدة ومعارضة ، وبخاصة فى الحجاز والعراق .

ويغضب الشيعة لما يصيبهم من محن ، فتثور ثوراتهم ، وتعلو منابرهم . ويخرج الخوارج ، ويشغلون بنى أمية ، ويكادون يذهبون بملكها ، فيكثر فيهم أعيان الخطباء ، وتشغل الدولة بهم أكثر مما تشغل بغيرهم .

ولا ينام آل البيت على ضيمهم ، فكانوا كلما أصيبوا فى ثورة نهضوا لأخرى ؛ وكان البيان من أقوى وسائلهم لنشر دعوتهم ، وبخاصة فى بلاد المشرق ، فنهضت هناك خطابة مثيرة ، ولكنها كانت تحاول أن تكون منطقية أيضا . وفى هذه

البلاد الشرقية ، ظهر دعاة بنى العباس من الفرس ، وعلت أصواتهم كما لمعت سيوفهم .

٣ — كان للبيان منزلته عند الخلفاء ، وكان مزية من مزايا الولاة . فإذا ظهر وال من ولاتهم بحسن الإدارة ومعالجة الفتن مثل الحجاج ، كانت الخطابة من مزاياه أيضا ، وكانت الحاجة إلى هذا النوع شديدة فى العراق لا فى مصر ، كما كانت ولاية العراق جزاء وفاقا لإخلاص هؤلاء الولاة وجهودهم ، إذ كانت أهم ولاية فى الدولة من حيث الأعباء الملقاة على عاتق واليها ، ومن حيث المنزلة العالية التى لها .

٤ — ثم إن الرواة الذين يتحملون الخطب وينقلونها كانوا كثيرين فى العراق والحجاز والشام ، حيث يكثر الأدب وتروج سوقه عند الأمراء والولاة والأعيان . فرووا ما كان حولهم من هذا الأدب القوى خطابة وشعراً .

٥ — وتدوين التاريخ الأدبى فيما بعد كان له أثر فى إهمال الأدب المصرى ، فقد عنى بالشام لأنها مركز الخلافة ، وبالحجاز لأنها موئل العربية ومنبعها ، وبالعراق لأنها مركز حركة أدبية وثورات سياسية أنبتت أدبا عظيما .

فى عهد العباسيين :

قامت دولة بنى العباس على أنقاض الدولة الأموية ، واتخذت البيان سلاحاً واعتمد رجالها على البلاغة — بين ما اعتمدوا عليه — ليكسبوا عطف الناس وقلوبهم ، وليثيروا النفوس على أعدائهم حتى إذا مكن الله لهم فى الأرض ولوا من أمور المسلمين ما كان يليه الأمويون ، وصارت لهم الإمامة وخطبة الجمعة وقيادة الجيوش ، فقويت دواعى الخطابة فى أيامهم وظهر فيهم خطباء مصاقع كما ظهر من ولاتهم ورجال دولتهم من يذكرهم تاريخ الأدب كلما عرض لهذا النوع من البيان .

وتوحى ظروف مصر فى القرن الثانى وأوائل الثالث بنشاط الخطابة وقوتها

بسبب الأحداث والفتن الكثيرة . وتؤيدنا كتب التاريخ فى الإشارة إلى هذه الخطب ورجالها ، لكننا نفتقر إلى نصوص أدبية نجعلها عمادنا فى الحديث عن الخطابة المصرية زمن العباسيين .

ومن خطباء الولاة موسى بن كعب[1] ، والى المنصور عليها سنة ١٤١ ، ويؤثر عنه أنه كان يقول فى خطبته : « من كان يريد جارية فارهة أو غلاماً فارهاً فليرفع يديه إلى الله » وقال فى خطبته « هذا أخوكم عبد الغفار الأزدى كان معكم منذ ثلاث سنوات ثم مات . فلا تغفلوا عما نزل به » .

ولا شئ فى خطبته يشير إلى مصر ، ولكنه خطبها فى مصر وعلى منابرها . وهو فى هذا الأمر المأثور عنه يوجه الناس إلى باب الكريم ، ويأمرهم أن يدعوا الله لغناهم ، ولعله كان ضيق الصدر برغبات المحتاجين . وعبارة الكندى تدل على أنه كان يكرر النص الأول ، أما النص الثانى فهو أقرب إلى الوعظ .

وكان المنبر للطعن فى الأعداء وشفاء النفس من المنافسين :

يروى أن محمد بن بجير كان والياً على الشرطة لمحمد بن الأشعث والى مصر سنة ١٤١ وكان فى نفسه ثورة على أبى عون والى مصر قبل ذلك . فكان ابن بجير يصعد المنبر ويقول : النخاس ، الكذاب[2] .

ووليها للمنصور يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب[3] (سنة ١٤٤ — ١٥٢) وفى ولايته ظهرت دعوة بنى حسن بمصر ، وتكلم بها الناس ، وبايع كثير منهم لعلى بن محمد بن عبد الله بن حسن ، وهو أول علوى قدم مصر ، وإن دعوة كهذه

(١) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٥٥ .
كان موسى من نقباء بنى العباس وقد اتهم بأنه من المسودة فى أيام الأمويين ، فأمر به أسد ابن عبد الله البجلى فألجم بلجام ، ثم كسرت أسنانه ، فلما صار الأمر إلى بنى هاشم أمالوا على موسى الدنيا ، فكان يقول : كانت لنا أسنان وليس عندنا خبز ، ولما جاء الخبز ذهبت الأسنان .

(٢) الولاة والقضاة ص ١٠٩ . (٣) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١ .

لتحتاج إلى بيان وخطابة ، ومن طبيعة اجتماعاتها أن يكون فيها مناقشة وجدل ، وحجج تؤيد بعض الآراء وأخرى تدحضها وهكذا .

وقدمت الخطباء إلى مصر برأس إبراهيم بن عبد الله بن حسن فى سنة ١٤٥ ، فنصبوه فى المسجد الجامع ، وقامت الخطباء فذكروا أمره ، ومنهم شبة بن عقال(١) .

وربما أغرب بعض الخطباء فى ملابسهم فروى المؤرخ ذلك وأهمل الخطبة ، فقد روى أن عكرمة بن قحزم كان على شرطة أبى عون نخطب وعليه رداء نارنجى ، وكان ابن بجير على شرطة ابن الأشعب يخطب فى قميص وساج . وأول من خطب فى السواد عبد بن الله عبد الرحمن بن معاوية بن حديج(٢) .

ومن التلميحات السريعة عن الخطابة ما روى أن أبا يحيى الصدفى(٣) قال : « رأيت موسى بن عُلَىّ بن رباح والى مصر لأبى جعفر يخطب على منبر صغير خارج من المقصورة » .

وفى عهد موسى بن مصعب(٤) ثارت القيسية واليمانية ، وكاتبوا أهل مصر فاتفقوا عليه ، وانهزم عنه أصحابه وقتل ، ولم يتكلم أحد من أهل مصر لأجله كلمة واحدة . وكان موسى هذا ظالماً غاشماً . سمعه الليث بن سعد يقرأ فى خطبته : « إنا اعتدْنا للظالمين ناراً أحاط بهم سُرادِقُها » فقال الليث : اللهم لا تَقِهْ منها .

وقال ابن عُفير(٥) : ما رأيت أحداً على هذه الأعواد أخطب من إسماعيل بن صالح (والى الرشيد على مصر سنة ١٨١ — ١٨٢) . وشهادة ابن عفير لها قيمتها ؛ لأنه أديب ومحدث ثقة ، فشهادته مقبولة .

ولما مات موسى الرضا واتخذ ابراهيم بن المهدى ، كتب المأمون إلى السرى

---

(١) الولاة والقضاة ص ١١٤ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٧ .

(٣) الولاة والقضاة ص ١١٩ .

(٤) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٥٤ .

(٥) الولاة والقضاة ص ١٣٨ .

بذلك وبغسل المنابر التى دعى عليها لعلى بن موسى [1] .

من الطولونيين إلى الفاطميين :

استمرت الخطابة ولكنه لم يعد يذكر عنها شىء إلا ما كانت تشتمل عليه من دعاء للخلفاء ومن يشاركهم فى سلطانهم . وقد يكون ذلك بصيغ خاصة تدون ثم تتلى فى كل خطبة .

روى أن الموفق سجن أخاه المعتمد سنة ٢٩٦ وكتب ابن طولون بذلك إلى نائبه فى مصر ، ووصف فى كتابه بؤس المعتمد وبكاءه مما صار إليه حاله ، فخطب الخاطب يوم الجمعة فذكر ما نزل بالمعتمد ، وزاد فى خطبته (اللهمّ فاكفه من حصره ومن ظلمه [2] .)

وكان يُدْعَى على الموفق فى مصر ، فلما صالح خمارويه دُعى له على المنابر بدلاً من الدعاء عليه .

وانتهى أمر الدولة الطولونية ، وأحرقت القطائع ، ونهبت الفسطاط سنة ٢٩٢ وأطلق من فى السجون . وأمر محمد بن سليمان ، الوالى الجديد ، بأن يدعى على المنابر لأمير المؤمنين المكتفى بالله وحده . وهكذا حتى وليها محمد بن طغج [3] وفى سنة ٣٢٧ زيد فى لقبه الإخشيد ودعى له بذلك على المنابر .

ثم استبد كافور بأمر البلاد ودعى باسمه على المنابر سنة ٣٥٥ .

وانتهى أمر الطولونيين سنة ٣٥٨ بدخول القائد جوهر فاتحاً باسم المعز لدين الله وخطب له على المنابر ثم جاء المعز نفسه سنة ٣٦٢ هـ .

ولاشك أن الخطابة قد ضعفت فى عهد العباسيين ، وكانت بمصر أضعف ، وبخاصة

---

(١) الولاة والقضاة ص ١٧٠ .

(٢) الولاة والقضاة ص ٢٢٦ . (٣) الولاة والقضاة ص ٢٨٨ .

فى القرن الثالث، وذلك لقيام الكتابة مقامها، وعدم الاطمئنان إلى الخطابة فى المواقف التى تحتاج إلى الدقة، ووزن الكلمات، والحذر من عثرات اللسان، كالأمور السياسية. فإذا أضيف إلى ذلك ضعف ولاة الأمور والناس عامة فى اللغة، عرفنا أن الخطابة قد صار أمرها إلى الضعف، وأن الكتابة أغنت غناءها، وصارت الكتب تعد بعناية وتتلى من فوق المنابر؛ ففى خلع الموفق كتب أحمد بن طولون كتاب الخلع على نسخ، وأنفذ إلى كل عمل من أعماله نسخة تقرأ على المنبر فى جميع الأمصار [1].

ويقول ابن عبدكان [2]: لقد أمرنى أحمد بن طولون يوماً بإنشاء كتاب يقرأ على المنبر، فأنشأته، ودفعته إلى محبوب ليقرأه. وفى رسالة ابن طولون إلى ابنه العباس تهديد من الأب إلى ابنه بأن يرسل إلى الأقطار التى يحكمها كتباً تقرأ على المنابر فيها لعن العباس والبراءة منه يتناقلها آخر عن أول، وتخلد فى بطون الصحف، وتحملها الركبان، ويتحدث بها فى الآفاق [3].

وفى كتاب ابن طولون هذا، بيان لفضل الكتابة على الخطابة بأنها أبقى على الزمن، وأذيع فى الآفاق، وأدق عند الانتقال من بلد إلى بلد، أو من جيل إلى جيل.

ومع هذا فمن العسير أن نسلم بفناء الخطابة أو ذهاب رجالها، وإنما الذى نعنيه هو قلة دواعيها وضعف الناس فى اللغة ضعفاً يقعدهم عن بديهة الخطابة،

ولكن ورد فى سيرة ابن طولون أن محبوب بن رجاء كان فصيحاً، وأنه ذكر فى مجلس ابن عبدكان يوما فقال عنه: إنه كان بَيِّن الفضل، فصيح اللسان، وإنه لما

---

(١) سيرة ابن طولون ص ٢٩٥.

(٢) سيرة ابن طولون للبلوى ص ٢٩٥ (٣) صبح الأعشى ج ٧ ص ٥

تسلم الكتاب المشار إليه قريبا ، وهو الذى كتبه ابن عبدكان ليقرأ على المنابر ، دفعه إلى صاحب دواته ليسلمه إليه فى الجامع ، فنسى الغلام وحمل شيئاً آخر ، وهو يظن أنه الكتاب ، وركب الأمير إلى الجامع ، وصعد محبوب المنبر ومعه ذلك الشىء الآخر الذى حمله إليه الغلام . فلما نشره محبوب علم أن الغلام أخطأ . فاندفع محبوب ، ومضى يقرأ ، وينشر ما فى يده ويطويه ، ليوهم من يراه أنه يقرأ الكتاب ، وكانت ألفاظه عذبة حسنة فى المعنى الذى كان قصده ، وفطن لذلك ابن عبدكان وحده لأنه صاحب الكتاب الأول(١) .

ويدل ذلك على أن الخطب قد صارت كتباً تعد وتتلى من فوق المنابر ، وأن الكتاب هم الذين كانوا ينشئونها ، وتدل هذه الحادثة التى ظهرت فيها فصاحة محبوب بن رجاء وحسن تصرفه على أن الزمن قد يجود بمن يستطيع القول على البديهة ، والتخلص من المآزق ، والإجادة فوق المنابر .

وهذا مثال آخر يدل على أنه كان فى زمن ابن طولون قوم من ذوى البديهة الحاضرة ، والبلاغة المواتية ، والحيلة المنجية :

من ذلك أنه راح فى يوم جمعة إلى المسجد فلما رقى الخطيب المنبر وخطب ، دعا للمعتمد ولولده ، ونسي أن يدعو لأحمد بن طولون ، ونزل عن المنبر مرقاةً ، فأشار ابن طولون إلى سوار الخادم أن إذا فرغ من صلاته وخرج اضربه خمسمائة سوط ، فتذكر الإمامُ وهو على المرقاة الثانية ، فرجع إلى أعلى المنبر وقال : الحمد لله وصلى الله على محمد ، « ولقد عَـهِدْنا إلى آدمَ من قبلُ فنسى ولم نَجِـدْ لهُ عَزْما » اللهم وأصلح الأمير أبا العباس أحمد بن طولون . وزاد فى الدعاء له ثم نزل عن المنبر . قال سوار : فنظر إلىَّ مولاى وقال لى : اجعلها دنانير . ووقف الخطيب على ما كان منه فحمد الله جل اسمه على سلامته ، وهنأه الناس بالسلامة(٢) .

---

(١) سيرة ابن طولون ص ١٤٧ (٢) سيرة ابن طولون ص ١٥٩ ، وفى خطط المقريزى أن هذا الخطيب كان أبا يعقوب البلخى .

(ب) الوصـــايا

هى نوع من الأدب غايته التوجيه والإرشاد ، والحث على اكتساب المحامد ، والتبصير بحسن السياسة ، والدعوة إلى مكارم الأخلاق .

والوصايا تلحق بالخطب ، لما يجمع بينهما من مشافهة المخاطبين ، والحرص على إقناعهم فى أسلوب قوى محكم ؛ ثم يختلفان فيما عدا ذلك ، فتكون الخطابة لجماعة حاضرة تسمع قول الخطيب ، والوصية لجمع ولواحد ، وللغائب والشاهد ، وتكون نثراً كما تكون شعرا ، وتكون كتابة وقولا . وموضوع الخطب أعم من الوصايا ، فهذه لنفع المخاطبين دائما ، أما الخطب فقد تبعد عن ذلك ، فتكون تهديداً أو رثاء ، أو مدحاً ، أو دعوة إلى مذهب ...

وهذه الوصايا المتنوعة ، تختلف بين الطول والقصر ، ومنها : الوصايا السياسية ، والحربية ، كوصية أبى بكر رضى الله عنه إلى قواده وقد أرسلهم لفتح البلاد(١) . ومنها الوصايا الفنية كوصية عبد الحميد بن يحيى إلى أهل صناعة الكتابة(٢) . ومن أحسن وصايا النساء وصية امرأة عوف بن محلم الشيبانى لبنتها وقد تزوجت ، وهى التى وصتها فيها بزوجها ، وابتدأتها بقولها : « كوني له أمة يكن لك عبدا(٣) » .

وقد تكون الوصية شعراً ونثراً كوصية عبد الله بن شداد لابنه ، وقد أراد سفرا(٤) ، وقد تكون شعراً خالصاً كوصية ابن سعيد المغربى لابنه(٥) أبى الحسن ومطلعها :

---

(١) ص ٢٥٤ تاريخ الأمم الإسلامية خضرى أول (٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢١٥
(٣) العقد الفريد ج ٤ ص ١٤٧ (٤) الأمالى ج ٢ ص ٢٠٢
(٥) هو من شعراء القرن السابع توفى سنة ٦٧٣ هـ .

أودِعك الرحمنَ فى غربتكْ مرتقباً رُحمـاه فى أوبتك

ومن خير هذه الوصايا وأشملها وأجملها كتاب مشهور من طاهر بن الحسين إلى ابنه عبد الله ، لما ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما ، فكتب إليه أبوه ذلك الكتاب ، ووصاه بجميع ما يحتاج إليه فى دولته وسلطانه : من الآداب الدينية والخلقية ، والسياسة الشرعية والملوكية ، وحثه على مكارم الأخلاق ، ومحاسن الشيم ، بما لا يستغنى عنه ملك ولا سوقة .

وهو كتاب شامل ، قيل إنه لما علم المأمون به حرص على أن يذاع على الولاة فى جميع الأمصار ، فكتب نسخة منه إلى كل مصر فى دولته(١) .

أما جانبه الأدبى فيكفى فى وصفه ، من حيث القوة والوضوح والسهولة ، والاسترسال ، أنه من إنشاء طاهر بن الحسين .

ولا يختص بالوصايا زمان ولا مكان ، فهى شائعة ما احتاج الناس إلى موعظة . وقد حفظ الأدب قليلا من هذه الوصايا فى عهد الولاة بمصر ، ومن أولها وصية قيس بن سعدبن عبادة ، والى مصر لسيدنا على ، يوصى بها محمدبن أبى بكر ، خلفه فى منصبه ، وهذه قصتها :

عزل على رضى الله عنه قيس بن سعد بن عبادة عن مصر ، وولى مكانه محمد بن أبى بكر ، ثم إن قيساً لقى محمد بن أبى بكر فقال له (٢) :

« إنه لا يمنعنى نصحى لك ولأمير المؤمنين عَزْلُه إياى ، ولقد عزلنى من غير وَهْن ولا عَجْز ، فاحفظ عنى ما أوصيك به يَدُمْ صلاح حالك ، دع معاوية بنَ حُدَيْج ، ومسلمةَ بن مُخَلَّد وبُسْرَ بنَ أبى أرطاة ، ومن ضَوَى إليهم ، على ما هم

---

(١) الكتاب بتمامه فى مقدمة ابن خلدون ص ٢٦٤ .

(٢) ص ٢٧ الولاة والقضاة .

عليه تكشفهم عن رأيهم ، فإن أتوك ولم يفعلوا فاقبلهم ، وإن تخلفوا عليك فلا تطلبهم . وانظر هذا الحىَّ من مضر فأنت أولى بهم منى ، فألن لهم جناحك وقَرِّبْ عليهم مكانك ، وارفع عنهم حجابك ؛ وانظر هذا الحى من مُذْحِج فدعهم وما غلبوا عليه ، يَكُفُّوا عنك شأنهم ، وأنزل الناس من بَعْدُ على قدر منازلهم ؛ وإن استطعت أن تعود المرضى وتشهد الجنائز فافعل ، فإن هذا لا ينقصك . ولن تفعل ! إنك ، والله ، ما علمتُ : لَتظهرُ الُخيَلاء وتحب الرياسة ، وتسارع إلى ما هو ساقط عنك . والله موفقك » .

فعمل محمد بخلاف ما أوصاه قيس ، واشتد مع الخوارج فلاقوه بأشد مما أعد لهم ، فلما علم أنه لا قوة له بهم أمسك عنهم .

وهذه الوصية سياسية يرسم فيها منهجاً واضحاً لخلفه ، كى تستقيم له الأمور . وتجتمع عليه القلوب ، ويسكت عنه الأعداء ، وقد أحسن المقدمة إذ تناسى الظرف الذى هو فيه ، ظرف العزل عن الولاية ، وقدم نصيحته خالصة ، ولكنه ختمها بما يحمل على مخالفتها ، إذ قال لمحمد « ولن تفعلْ فإنك والله لتظهر الخيلاء وتحب الرياسة ، وتسارع إلى ما هو ساقط عنك » فكأنه كان يحرضه فى ختامها على رفضها وليس ذلك محموداً فى النصيحة ، فإذا كانت من معزول إلى خلفه كانت موضع شك واتهام ، وكان الميل إلى الخروج عليها أشد . فكيف يذكر له عيوبه ، ويختم بها وصيته ؟

وأما مروان فقد جاء مصر فاتحاً ، وانتصر ، وولى ابنه عبد العزيز أمرها ، ثم رجع بعد أن وصاه . ويقول صاحب النجوم الزاهرة « ثم خرج من مصر بعد أن أوصى ولده عبد العزيز بوصايا كثيرة مضمونها الرفق بأهل مصر »[1] . ومن هذه الوصايا التى حفظها التاريخ عن مروان بن الحكم ثلاث وصايا نعرضها هنا :

---

(١) ص جـ ١ .

أولاها وصية سياسية تبدو فيها مهارة مروان ؛ إذ أوصى ابنه أن يستغل عواطف الناس وطبائعهم ، وأن يرضى فيهم غرورهم ، ليكونوا له عوناً على أموره . وذلك أنه لما انتصر مروان بمصر على جيوش ابن الزبير ، وقبل صالح بن جَحْدَم شروط الصلح ، كتب مروان بيده كتاباً لأهل مصر ، ثم ولى عبد العزيز عليها ، فقال له : يا أمير المؤمنين كيف المقام ببلد ليس به أحد من بنى أبى ؟ فقال له : « يا بنى ، عُمَّهم بإحسانك يكونوا كلهم بنى أبيك ، واجعل وجهك طلْقا تَصْفُ لك مودتهم ، وأوقِعْ إلى كل رئيس منهم أنه خاصَّتُك دونَ غيره يكن عيناً لك على غيره ، وينقادُ قومه إليك . وقد جعلت معك أخاك بشراً مؤنساً ، وجعلت لك موسى بن نصير وزيراً ومشيراً ، وما عليك يا بنى أن تكون أميراً بأقصى الأرض ، أليس ذلك أحسنَ من إغلاق بابك ، وخمولك فى منزلك[١] »

أوصاه بالجود واشتراء الرقاب ، وتلك خطة طالما أفلحت فى حمل الناس على الطاعة ، وأوصاه أن يكون طلق الوجه كى يخلصوا له المحبة ، ولم يقف عند هذا الحد ، بل انقلب سياسيا يريد أن يفرق بين الناس كى لا يجتمعوا عليه ؛ وأخص ما أراه فى هذه النصيحة أن قائلها يعرف نواحى الضعف فى النفس الإنسانية ، ويريد لابنه أن يستغلها لمنفعته . ومنها حب المال وإرضاء ما فى النفس من غرور ؛ وهذه الوصية نتيجة تجارب طويلة فى الأعمال التى كان يليها لمعاوية ، ووحى بصيرة نافذة تعرف ما يصلح للعرب من سياسة .

والثانية وصية دينية . خلقية . يهتم فيها بالشورى ، قال عبد العزيز بن مروان : أوصانى مروان حين ودعته عند مخرجه من مصر إلى الشام فقال[١] :

« أوصيك بتقوى الله فى سر أمرك وعلانيتك ، فإن الله مع الذين اتقَوا والذين هم محسنون ، وأوصيك ألا تجعل لداعى الله عليك سبيلا ، فإن المؤذنين يدعون إلى فريضة افترضها الله عليك ، « إن الصلاةَ كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً » .

(١) الولاة والقضاة ص ٤٧ .

وأوصيك ألا تعجل فى شىء من الحكم حتى تستشير ، فان الله عز وجل لو أغنى أحداً عن ذلك لأغنى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بالوحى الذى يأتيه ؛ قال الله عز وجل « وشاوِرْهم فى الأمر » .

إنها وصية أب صالح يرقب ربه ، ويرعى أوامره ، ويدرك أن ابنه فى عمله هذا ذو سلطان مستمد من الدين ، فهو أولى الناس باتباع أوامره ، ومن أول هذه الأوامر أداء الصلاة فى وقتها .

والوفاء بالوعد صفة حميدة يدعو إليها الدين ، ويدعو إليها الخلق العربى ، والشورى لها مزاياها ، والدين يأمر بها ويمدحها .

وتراه يقوى هذه الوصية بآيات القرآن الكريم . فهى فى جملتها وصية صالحة من خليفة المسلمين ، إلى من يلى أمراً من أمور المسلمين .

ولما انصرف « مروان بن الحكم » من مصر إلى الشام ولى « عبد العزيز » ابنه على مصر ، وقال له حين ودعه :

« أرسل حكيما ولا توصه » ، أى بنى ؛ انظر إلى عمالك فان كان لهم عندك حق غُدوَةً ، فلا تؤخرهم إلى عشية ، وإن كان لهم عشيةً فلا تؤخرهم الى غدوة ، وأعطهم حقوقهم عند محلها ، تستوجب بذلك الطاعة منهم ، وإياك أن يظهر لرعيتك منك كذب [فان تعلقوا عليك بكذبة [1]] لم يصدقوك فى الحق ، واستشر جلساءك وأهل العلم ، فان لم يستبن لك فاكتب إلىَّ يأتك رأيى فيه إن شاء الله تعالى ، وإن كان بك غضب على أحد من رعيتك فلا تؤاخذه به عند سَوْرة الغضب ، واحبس عنه عقوبتك حتى يسكن غضبك ، ثم يكون منك ما يكون وأنت ساكن الغضب ، مُطفأ الجمرة ، فان أول من جعل السجن كان حليما ذا أناة ، ثم انظر إلى ذوى الحسب والدين والمروءة ، فليكونوا أصحابك وجلساءك ،

---

(١) زيادة يتم بها المعنى وهى غير موجودة فى الأصل .

ثم اعرف منازلهم منك على غيرهم . على غير استرسال ولا انقباض . أقول قولى هذا واستخلف الله عليك[1] » .

هذه الوصية الثالثة أطول وصايا مروان وأشملها ، فهى سياسية : توصى بالعمال خيراً ، لما لهم من فضل فى إدارة البلاد ، وأول ما يجب لهم أن ينالوا جزاءهم فى وقته ، وأن يأخذوا حقهم فى موعده ، فإنهم إذا شبعت بطونهم عفت نفوسهم ، ودامت طاعتهم .

وهى خلقية توصى بالصدق فى معاملة الرعية ، واستشارة أهل الشورى من الجلساء والعلماء . وإذا كانت هذه منزلتهم فعلى الوالى أن يحسن اختيارهم من أهل الحسب والدين والمروءة ، وأن يعرف منازلهم مع احتفاظه بوقاره .

أما الدعوة إلى الحكم فى وقت الهدوء والسكينة فذلك لأن سورة الغضب قد تحمل على مجاوزة الحد . والأخذ بأكثر من الذنب ، وتلك الدعوة مصدرها أوامر الدين وروحه .

ولا أستطيع أن أقول بشمول هذه الوصايا لكل ما يجب أن يوصى به . وإنما هى آراء رآها « مروان » صالحة لمستقبل ابنه فى ولايته ، فصاغها هذه الصياغة الفنية الجميلة .

وقد جعل « الكندى » الوصية الثانية عند خروج مروان من مصر عائداً إلى الشام ، وجعل « ابن عبد ربه » الوصية الثالثة عند انصراف « مروان » من مصر كذلك . فهما وصيتان لا وصية واحدة ، لما بينهما من اختلاف فى النصائح والأسلوب ؛ وكأن أباه أدرك حاجته إلى كثرة الوصايا فكررها .

هذه هى كل ما وجدت من عهد بنى أمية بمصر، ثم يسكت الأدب طويلا بعد ذلك حتى يأتى عهد ابن طولون فيحفظ مؤرخو دولته من وصاياه السياسية الأبوية شيئاً كوصايا مروان ، وهذه وصية دعت إليها رغبته فى دوام الألفة بين أولاده :

وصى احمد بن طولون ولده العباس حينما رضى عليه ، وأطلقه من قيده ، وخلع

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٢٣

عليه ، وقلده جميع الأعمال الخارجة عن أعمال مصر من الشامات والثغور . وقال له[(١)]

« أنا أوصيك يابنى بتقوى الله عز وجل ، ومكافأة أخيك ، والإمساك عن الاستطالة عليه ، بزيادة سِنّك على سِنّه ، فلا تتركَنّ لمن يقصدكما من العراق مدخلا بينكما ، يتأتى منه لكما ، ولا تسمع ممن يطلب صلاح نفسه بفساد ما بينكما ، ولا تضمرَنّ لأخيك غير ما تظهره ، فان القلوب مجندة . واعلم أن جوار أخيك لك أصلح من جوار غيره ، ولا تضمرله خلافا فتبسطا ما بينكما ، ويجدَ عدوكما بذلك سبباً إلى هلاككما . وقد تقدمتُ بإزاحة علل رجالك ، فاحرص أن يكون خروجك إلى عملك قبل وفاتي ، فان الراغب عنك كثير ، أكثرُ من المائل إليك ، وأخاف أن تتلوَّم على الطمع فى موضعى وتتريث ، فتذهبَ نفسك ! بصَّرك الله رشدك ووفقك ، ووقاك ما أخافه عليك ، وأحاذره فيك ، بمَنّه » .

وأرى فى هذه الوصية حرصاً من الوالد على هدوء الحال ، وإصلاح ما بين الإخوة ، وتنبيهاً إلى خطر الساعين بالفساد .

ودعته إلى الوصية الثانية رغبة ملحة فى دوام الملك فى بيته ، وعماد ذلك رضا الرعية ، بلين الجانب وحسن المعاملة ، ثم بحسن تدبير المال ، والإنفاق منه عند الضرورة فقط : وهذه هى :[(٢)]

وصى « أحمد بن طولون » ولده « أبا الجيش خمارويه » قبل وفاته فقال له :

يا بنى لا تعدلن عن مشورتى عليك ، فلن تجد أبداً أنصح لك منى ، قد خلفت دَخْل بلدك يزيد على ماينوبك بجيشك وسائرمؤونتك ، فلا تطلقن فيه يداً بِجَوْر ، فيختل أمرك بخرابه ، ولا تقبل نصيحة من ينتصح لك ، بما يؤول إلى خراب بلدك ، والإجحاف بِعامليك فيه ، فانه عدو مبين من حيث لا تعلم ، فانبِذه عنك ، ولا تقربه منك . وقد خلفت لك رعيتك لايطلبون منك إلا لين الجانب ، والأمن من المخاوف ؛

(١) سيرة ابن طولون ص ٣٤٢ (٢) سيرة ابن طولون ص ٣٣٩

ولم أكن أمنعهم لين جانبي بخلاً به عليهم ، ولـكني آثرتك على نفسي ، بمنعي لهم لين جانبي ، والأمن من مخافتي ، فاستعمل أنت ذلك معهم فتملك قلوبهم ، ويبادروا إلى طاعتك ، ويهشوا إلى التصرف بين أمرك ونهيك ، في صغير أمرك وكبيره ، ولم أترك لك عدواً أخافه عليك ، واعلم يابني أن كل سرف يَئُول إلى اختلال وتلف . ولا تمد يدك إلى المال المخزون عند خير الخادم ، واجعله ذخيرة لمملكتك ، وأقمه مَقام جارحة من جوارحك ، لا تبذلها إلا في شدة تخاف معها فَساد سائر جسدك ، أو عندما تقدر باخراجها صلاح سائر جسدك» — وكان خير الخادم هذا خادم المتوكل — ثم قال له : «واسلك يا بني سبيلي ، واقتفِ آثاري في سائر من خلفتُ ، يأنسوا بناحيتك ، ويحسنوا طاعتك ، ولا يميلوا إلى عدو يخالفك ، ولا تقبلن مقال السعاة فيما تقوى به سُوقهم عندك ، فكل شر وسوء يئول إلى اضمحلال وزوال ، ويهلك في ذلك من سلكه » .

وإذا كان مروان سخياً في وصيته ، فقد كان ابن طولون حذراً ممسكا ، يذكر المال شحيحاً به ، داعياً إلى الحرص عليه ، والجانب الأدبي في وصايا مروان لابنه أقوى منه عند ابن طولون ، وسهولة الموعظة وصراحتها واضحة عند مروان ، أما ابن طولون فقد شاب وصيته أحياناً شيء من غرابة المعنى ، وغرابة تعليله ، إذ يقول في وصيته لخمارويه : « ولم أكن أمنعهم لين جانبي بخلاً به عليهم ، ولـكني آثرتك على نفسي بمنعي لهم لين جانبي »

وإذا كان مروان قد رأى في وصيته الأولى أن يعمهم ابنه باحسانه ليكونوا جميعاً بني أبيه ؛ فقد كان ابن طولون يرى اللين مؤديا إلى نفس الغاية ، أما المال فلا يدعو إلى بذله إلا عندما تشتد الأمور ، ولا يكون هناك مفر من بذله ، وكان مروان أصح رأياً ، وأعمق إدراكا للنفوس .

الفصل الثالث

القصص

فى أدب كل أمة قصص يروونها ، وهم يقصدون التسلية وقطع أوقات الفراغ ، أو يبغون إشاعة السرور والبشر ، أو يريدون تهذيب النفس وتلقين الأخلاق وآداب السلوك . وقد يقصدون القيمة الفنية التى تشتمل عليها هذه القصص ، فيعيدون ما يعيدونه منها فى مجالسهم ومجتمعاتهم ، ويلقونه إلى خاصتهم وعامتهم ، رغبة فى إمتاع السامع بجمال البيان ، وحسن السبك ، ولطف التنميق ، ودقة المعنى ، وطرافة الخيال ، وسمو الفكرة ، ونبل المقصد ، وغير ذلك مما يشتمل عليه هذا الأدب ، ويفيده بلفظه ومعناه .

وكان لمصر حظها من القصص ، وهو حظ لا بأس به ، إنه لا يقارب حظ الشام أو العراق أو الحجاز ، من حيث الكثرة والتنوع والذيوع ! ولكنه لا يقل عنه فى ناحيته الفنية ، فالنمط واحد فى قوة الأسلوب ، والمذهب واحد فى طريقة العرض ، والشبه قوى فى الغاية .

متى ظهر القصص فى الإسلام :

ظهر القصص فى الإسلام مبكرا . ونسب إلى « تميم الدارى[1] » أنه أول من قص فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأنه استأذن « عمر » أن يذكر الناس فأبى عليه ، ثم أذن له فى آخر ولايته أن يذكر الناس فى يوم الجمعة

---

(١) ص ١٩٠ فجر الإسلام .

واستأذن « عثمان » فأذن له أن يذكر يومين فى الجمعة . وقيل إن القصص أُحدث فى زمن « عثمان » . وأن « تميما الدارى » أول من قص ، وأن هذه النزعة نصرانية بقيت عنده بعد الإسلام[١] .

أول من قص بمصر :

إذا كان « تميم » أول من قص فى الإسلام فإن « سليم بن عِتر التُّجيبى » كان أول من قص بمصر . وقد قام بذلك فى سنة تسع وثلاثين . ثم لما كان عام الجماعة سنة ٤٠ ولاه «معاوية» القضاء أيضا ثم عزل عن القضاء وأفرد بالقصص[٢] ، وروى أنه كان يقص على الناس وهو قائم . فلم يرض بذلك القصص « صُلة بن الحارث الغفارى » من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقال له : والله ما تركنا عهد نبينا ، ولا قطعنا أرحامنا حتى قمت أنت وأصحابك بين أظهرنا[٣] .

وكان ظهور « سليم بن عتر » وأصحابه رداً من « معاوية » على ما فعله سيدنا « على » بعد صفين ، فقد روى أنه قنت ، فدعا على من خالفه ، فبلغ ذلك معاوية ، فأمر من يقص بعد الصبح وبعد المغرب، أن يدعو له ولأهل الشام ، وكتب بذلك إلى الأمصار .

وروى عن سعيد بن عفير عن أبيه قال : كان سليم بن عتر قاصّ الجند زمان عمرو بن العاص ، وكان ممن شهد خطبة عمر رضى الله عنه بالجابية ، وحضر فتح مصر[٤] .

---

(١) كان تميم من نصارى اليمن . أسلم سنة ٩ هـ وذكر للنبى صلى الله عليه وسلم قصة الجساسة والدجال . الإصابة جـ ١ ص ١٩١ .

(٢) حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٢٩ .

(٣) ابن عبد الحكم ص ٢٣٢ ، ١٠٤ .

(٤) الولاة والقضاة ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ .

وقد ظل والياً على القضاء حتى موت معاوية سنة ٦٠ هـ فعزل عنه ، وبقى له القصص حتى مات سنة ٧٥ هـ .

ويظهر أن طريقته فى القصص كانت ترضى عبد الله بن عمرو بن العاص . فإنه قد ذهب إليه فى جماعة يريد أن يأخذ عليه البيعة ليزيد . فقال له : « وأما أنت يا سليم بن عتر فكنت قاصاً ، فكان معك ملكان يُفتيانك ويُذَكِّرانك ، ثم صرت قاضياً فمعك شيطانان يُزيغانِك عن الحق ويفتنانك .

صورة هذا القصص :

وكانت صورة هذا القصص أن يجلس القاص فى المسجد وحوله الناس فيذكرهم بالله ، ويقص عليهم حكايات وأحاديث وقصصاً عن الأمم الأخرى ، وأساطير ونحو ذلك . لا يعتمد فيها على الصدق بقدر ما يعتمد على الترغيب والترهيب[1] . وقد روى عن الليث بن سعد[2] أنه جعل القصص نوعين : قصص العامة ويجتمع النفر من الناس إلى القاص يعظهم ويذكرهم ، فذلك مكروه لمن فعله ولمن استمعه ، وأما قصص الخاصة فهو الذى جعله « معاوية » : ولى رجلا على القصص ، فإذا سلم من صلاة الصبح جلس ، وذكر الله عز وجل ، وحمده ومجده ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ودعا للخليفة ولأهل ولايته وحشمه وجنوده ، ودعا على أهل حربه ، وعلى المشركين كافة .

وقول الليث بن سعد : « إن قصص العامة مكروه لمن فعله ولمن استمعه » . فذلك لأن القصاص أكثروا من الكذب ، وأضافوا من الأخبار والقصص ما لم يحدث ، وربما أضافوا ما لا يقره العقل من خرافات وسخافات ، حتى روى أن

(١) فجر الإسلام ج ١ ص ١٩١ .

(٢) خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٥٣ .

علياً رضى الله عنه طردهم من المساجد . ولم يسلم كثير منهم من الطعن ، حتى الصالحون ، مثل سليم بن عِتْر . فإذا كان عبدالله بن عمرو شهد له بحسن القصص فإن شهادة صِلة بن الحارث الغفارى لم تكن طيبة .

وفى كلام السيوطى عن يزيد بن أبى حبيب الأزدى (توفى سنة ١٢٨ هـ) يقول[١] : إنه أول من أظهر العلم فى مصر والمسائل فى الحلال والحرام . وقبل ذلك كانوا يتحدثون فى الترغيب والملاحم والفتن . ويَقصد بالترغيب المواعظ والقصص ، وبالملاحم والفتن الكلام فى التاريخ .

ولم يكن يزيد بن أبى حبيب حداً فاصلا ، فإن الكلام فى القصص والمواعظ كان سابقاً له ومتأخراً عنه . ونحن نسمع بالقصاص فى عهد الطولونيين : فإنه حينما تزايدت العلة على أحمد بن طولون أمر الناس بالدعاء له ، فغدوا إلى مسجد بسفح المقطم سنة ٢٧٠ هـ وحضر معهم القُصاص فدعوا له[٢] .

والتاريخ لم يخل من « الفتن والملاحم » فيما بعد ، ويكفى أن نقرأ فتوح مصر لابن عبد الحكم — وهو أول كتاب عنى بتاريخ مصر — فنجد فيه بعض القصص عن تاريخ مصر قبل الإسلام وبعده ، لا تتفق مع الواقع ، وقد يرفضها العقل أحياناً ، كما نجد فيه بعض القصص المحتملة الوقوع فى جملتها ، ولا تخفى الزيادة القصصية فيها ، ثم عرف كثير من تلك القصص طريقه إلى التدوين فجمعه المؤرخون .

ومن القصص التى رويت فى تاريخ مصر ، قصة مجىء عمرو إلى مصر فى الجاهلية ، أو قصة عمرو والكرة ، وهذه هى :

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٣١ .

(٢) الولاة والقضاة ص ٢٣١ .

قصة عمرو والكرة :

قال القضاعي ومن عجائب مصر الاسكندرية وما بهـا من العجائب ، فمن عجائبها المنارة ، والسوارى ، والملعب الذى كانوا يجتمعون فيه فى يوم من السنة ، ثم يرمون بأكرة ، فلا تقع فى حجر أحد إلا ملك مصر ، وحضر عيداً من أعيادهم عمرو بن العاص ، فوقعت الأكرة فى حجره ، فملك البلد بعد ذلك فى الإسلام(١) .

وكان عمرو قد دخل فى الجاهلية مصر ، وعرف طرقها ، ورأى كثرة ما فيها ، وكان سبب دخوله إياها أنه قدم إلى بيت المقدس لتجارة فى نفر من قريش ، فإذا هم بِشَـمَّاس من شمامسة الروم من أهل الاسكندرية ، قدم للصلاة فى بيت المقدس؛ فخرج فى بعض جبالها يسيح ، وكان عمرو يرعى إبله وإبل أصحابه ، وكانت رعية الإبل نوبا بينهم ، فبينما عمرو يرعى إبله إذ مر به ذلك الشماس وقد أصابه عطش شديد فى يوم شديد الحر ، فوقف على عمرو فاستسقاه ، فسـقاه عمرو من قِربة له ، فشرب حتى روى ، ونام الشماس مكانه ؛ وكانت إلى جنب الشماس حيث نام ، حفرة ، فخرجت منها حية عظيمة ، فبصر بها عمرو فنزع لها بسهم فقتلها . فلما استيقظ الشماس نظر إلى حية عظيمة قد أنجاه الله منها . فقال لعمرو : ما هذه ؟ فأخبره عمرو أنه رماها فقتلها ، فأقبل إلى عمرو فقبل رأسه وقال : قد أحيانى الله بك مرتين ، مرة من شدة العطش ، ومرة من هذه الحية : فما أقدمك هذه البلاد ؟ قال قدمت مع أصحاب لى نطلب الفضل فى تجارتنا . وكم تراك ترجو أن تصيب فى تجارتك ؟ قال رجائى أن أصيب ما أشترى به بعيراً ، فإنى لا أملك إلا بعيرين ، فـآمل أن أصيب بعيرا آخر فتكون ثلاثة أبعرة . فقال له الشماس : أرأيت دية أحدكم بينـكم كم هى؟ قال مائة من الإبل : فقال له الشماس : لسنا أصحاب إبل ، وإنما نحن أصحاب

---

(١) خطط المقريزى جـ ١ ص ١٥٨ .

دنانير . قال تكون ألف دينار : فقال له الشماس : إنى رجل غريب فى هذه البلاد ، وإنما قدمت أصلى فى كنيسة بيت المقدس ، وأسيح فى هذه الجبال شهراً ، جعلت ذلك نذرا على نفسى ، وقد قضيت ذلك ، وأنا أريد الرجوع إلى بلادى ، فهل لك أن تتبعنى إلى بلادى ، ولك على عهد الله وميثاقه أن أعطيك ديتين ؛ لأن الله عز وجل أحيانى بك مرتين ؟ فقال له عمرو : أين بلادك ؟ قال مصر ، فى مدينة يقال لها الاسكندرية . فقال له عمرو لا أعرفها ولم أدخلها قط . فقال له الشماس : لو دخلتها لعلمتَ أنك لم تدخل قط مثلها ، فقال له عمرو : وتفى لى بما تقول ، ولى عليك بذلك العهد والميثاق ؟ فقال له الشماس : نعم ، لك والله على العهد والميثاق أن أفى لك ، وأن أردك إلى أصحابك . فقال له عمرو : وكم يكون مكثى فى ذلك ؟ قال شهراً ، تنطلق معى ذاهبا عشرا ، وتقيم عندنا عشرا ، وترجع فى عشر ، ولك علىَّ أن أحفظك ذاهبا ، وأن أبعث معك من يحفظك راجعا ، فقال له عمرو : أنظرنى حتى أشاور أصحابى فى ذلك .

فانطلق عمرو إلى أصحابه فأخبرهم بما عاهد عليه الشماس ، وقال لهم تقيمون حتى أرجع إليكم ، ولكم علىَّ العهد أن أعطيكم شطر ذلك ، على أن يصحبنى رجل منكم آنس به . فقالوا نعم ، وبعثوا معه رجلا منهم فانطلق عمرو وصاحبه مع الشماس حتى انتهوا إلى مصر ، فرأى عمرو من عمارتها وكثرة أهلها . وما بها من الأموال والخير ، ما أعجبه ، فقال عمرو للشماس ما رأيت مثل ذلك ، ومضى إلى الاسكندرية ، فنظر عمرو إلى كثرة ما فيها من الأموال والعمارة ، وجودة بنائها ، وكثرة أهلها ، فازداد عجبا .

ووافق دخولُ عمرو الاسكندرية عيدا فيها عظيما ، يجتمع فيه ملوكهم وأشرافهم . ولهم كرة من ذهب مكللة ، يترامى بها ملوكهم ، وهم يتلقونها بأكمامهم ، وفيما اختبروا من تلك الكرة ، على ما وصفها من مضى منهم ، أنه من وقعت الكرة فى كمه واستقرت

فيه لم يمت حتى يملـكهم . فلما قدم عمرو الاسكندرية أكرمه الشماس الإكرام كله وكساه ثوب ديباج ألبسه إياه ، وجلس عمرو والشماس مع الناس فى ذلك المجلس ، حيث يترامون بالـكرة ، وهم يتلقونها بأكمامهم . فرمى بها رجل منهم ، فأقبلت تهوى حتى وقعت فى كم عمرو ، فعجبوا من ذلك وقالوا : ما كذبتنا هذه الـكرة قط إلا هذه المرة ، أترى هذا الإعرابى يملـكنا ؟ هذا ما لا يكون أبداً . ثم إن ذلك الشماس مشى فى أهل الاسكندرية وأعلمهم أن عمراً أحياه مرتين ، وأنه قد ضمن له ألفى دينار ، وسألهم أن يجمعوا ذلك فيما بينهم ، ففعلوا ودفعوها إلى عمرو ، فانطلق عمرو وصاحبه ، وبعث معهما الشماس دليلا ورسولا ، وزودهما وأكرمهما حتى رجع هو وصاحبه إلى أصحابهما .

فبذلك عرف عمرو مدخلها ومخرجها ، ورأى منها ما علم أنها أفضل البلاد وأكثرها أموالا . فلما رجع عمرو إلى أصحابه دفع إليهم فيما بينهم ألف دينار ، وأمسك لنفسه ألفا ، قال عمرو : وكان أول مال اعتقدته وتأملته .

هذه القصة تروى فى كتب التاريخ ، ولسنا هنا بصدد تأييد وقوعها أو نفيه ، فذلك من عمل النقد التاريخى ، أو التحقيق التاريخى ، الذى يناقش وقائعها هى وأمثالها من الآثار الأدبية .

وإنما الذى يهم مؤرخ الأدب فى هذه الآثار الأدبية أن تـكون صحيحة النسبة إلى عصرها الذى تنسب إليـه ، فإن كانت تاريخية وقعت حوادثها ، كان عليه أن يدرس مدى تأثر الأدب بهذه الحوادث ، وإن كانت مخترعة درس مبلغ الإبداع فيها ، وقوة الخيال فى إنشائها ، والعوامل الخاصة والعامة التى أثرت فيها .

وإذا خالف الأديب التاريخ ، أونسب إليه ما ليس منه لم يطعن ذلك فى أدبه ، فقد يخترع شخصيات يكمل بها قصة ، وقد يزيد حوادث يصور بهـا بطولة ، أو يوضح بها فـكرة ، فلا يؤخذ عليه هذا ، فالأدب يعتمد على الخيال كما يعتمد على الواقع .

وإذا كانت قصة كقصة « عمرو والكرة » محلا للأخذ والرد عند المؤرخ ، فهى مقبولة عند الأديب ، ينظر إلى فكرتها العامة ، وهى أن عمراً جاء إلى مصر قبل الإسلام ، ودل طالعه على أنه سيحكم هذه البلاد ، وللوصول إلى هذه الغاية جىء بعمرو من الشام إلى الإسكندرية ، وأحسن ابن عبد الحكم [1] سبك المقدمة فى روايته فقد كان عمرو فى الشام يرعى إبلاً فلاقى هناك شماساً جاء لزيارة الأماكن المقدسة ، وأنقذ عمرو ذلك الشماس من خطرين : خطر الموت عطشا ، وخطر الحية ، فأحسن إليه مرتين . فأراد الشماس جزاءه على معروفه ، واتفقا على طريقة الدفع ونوعه ومقداره ومكانه ، فجاء عمرو إلى مصر ليقبض ثمن معروفه ، وأخذه الشماس إلى الاسكندرية ، وذهب به إلى تلك الحفلة ، وبقى مع الخاصة حتى لعبوا بالكرة فوقعت فى حجره ، فاستنكر اللاعبون ذلك وقالوا : أنى لهذا الأعرابى أن يملك الاسكندرية أو مصر ! ولكن جرت المقادير بغير ما قدروا وضحكت منهم الأقدار فزال سلطانهم على يد هذا الأعرابى العظيم .

متى ظهرت هذه القصة ؟ ؟

إن أقدم كتاب رأيتها فيه هو كتاب فتوح مصر لابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٦ هـ ، ثم رواها الكندى بعده بحوالى قرن (توفى الكندى سنة ٣٥٠ هـ) ويرجعها كل منهما إلى رجل يقال له خالد بن يزيد ، وهو خالد بن يزيد الجمحى المصرى كان فقيهاً مفتياً ، قال النسائى عنه : إنه ثقة وتوفى سنة ١٣٩ هـ [2] .

ولكن الكندى يشرك معه عبيد الله بن أبى جعفر ، ويقول إنهما روياها عمن أدركا من مشايخهما ، وابن أبى جعفر معاصر لخالد إذ توفى سنة ١٣٢ ، وربما نسبها خالد إلى رجل يقال له : حنش بن عبد الله [3] ، وهو شامى قدم مصر بعد

---

(١) فتح مصر طبع اوربا ص ٥٢

(٢) تهذيب التهذيب جـ ٢ (٣) الكندى ص ٨

قتل على ، وغزا المغرب والأندلس ، وكان له عقب بمصر [(١)] ، وتوفى بمصر سنة ١٠٠ هـ ، وذلك فى خلافة عمر بن عبد العزيز .

وابن أبى جعفر ثالث ثلاثة جعل عمر بن عبد العزيز الفتيا إليهم بمصر ، وهو يروى بعض أخبار مصر فى ذلك العهد [(٢)] .

فابن أبى جعفر ، وحنش كانا متعاصرين ، وكانت مصر دار إقامة لكل منهما ، وإذا كانت الرواية قد وقفت عند حنش هذا ، فمن المحتمل أنها تسبق ذلك وإن لم يصلها الرواة ، وأرجح أنها كانت مما قصه سليم بن عتر ، إذ كان حنش يعرفه ويقدره . فقد روى عن حنش هذا أنه سئل عن قول الله عز وجل : « كانوا قليلاً من الليل ما يَهْجَعُون » ، فقال : هذه والله صفة أبى عبد الله الحلى وسليم بن عتر . ولا بد أنه قد رآه ، فهما مصريان ، والفرق بين موتهما خمسة وعشرون عاما (توفى سليم بن عتر سنة ٧٥ بدمياط) .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن سليم بن عتر كان قاصّ الجند زمن عمرو بن العاص رجحنا أن تكون هذه القصة معروفة بمصر قبل الرواة الذين انتهى عندهم الكندى وابن عبد الحكم .

أما حذف الجزء الأول فى الكندى ، فيرجع إلى رغبته فى الإيجاز كما هو ظاهر فى الكتاب من أوله إلى آخره ؛ أو لعله استكثر أن يقع هذا الجزء الأول وأبى أن يصدقه فحذفه ؛ أما أن تكون الرواية التى وصلت إليه مختصرة ، فأنا أستبعد هذا ، إذ أن ابن عبد الحكم يسبقه ، وكان الكندى يعرف ما فى كتابه .

وأما تناسق هذه القصة ، وائتلاف أجزائها ، وتسلسل حوادثها ، فواضح فى رواية

---

(١) تاريخ ابن عساكر جـ ٥ ص ٧ — ٩

(٢) الكندى ص ٣٣٣ و ٣٣٤ و ٣٣٥

ابن عبد الحكم لها ، فإنك إذا قرأتها لا تحس باضطراب فى سير الحوادث ، ولا بغموض فى أسلوبها ، ولا بغرابة فى أشخاصها ؛ وترى أن مؤلفها قد أحسن صنعاً عند ما جعل عمراً وحنشاً يتلاقيان فى الشام ولكل منهما غاية من رحلته .

وقد أرحلهما معاً إلى الإسكندرية لغاية غير ما تنتهى إليه القصة ، أرحلهما ليقبض عمرو جزاء ما قدم لهذا الشماس ، ولكن الرجل أراد أن يزيد فى إكرام عمرو فأشهده حفلة من حفلات الخاصة ، مبالغة فى إكرامه ، فاهتدت إليه الكرة فى هذا الحفل ، وتنبأت بأنه سيكون حاكم البلاد . وقد صح ما تنبأت به وكان له فى تاريخها أثر خالد . أما حسن العرض ، وجمال التصوير ، وسلامة الأسلوب ، وحسن الانتقال من نقطة إلى نقطة ، فظاهرة كلها فيما تقدم .

عمرو فى مأزق :

وهذه قصة أخرى عن عمرو (١) لا تقل طرافة وقوة ، مع إيجازها :

ورووا عنه أنه كان فى الاسكندرية وأنه اقتحم بعض حصونها مع فريق من الجند ثم رجعوا وبقى هو وثلاثة من صحبه ، فعرض عليهم الروم أن يخرجوا إليهم ليبارزوهم واحداً لواحد ، فتصدى هو للمبارزة لولا أن منعه صاحبه مسلمة بن مخلّد ، وقف دونه وهو يقول : ما هذا ؟ « تخطئ مرتين فتشذ عن أصحابك وأنت أمير ، وإنما قوامهم بك وقلوبهم معلقة نحوك ، لا يدرون ما أمرك ، حتى تبارز وتتعرض للقتل ، فإن قتلت كان ذلك بلاء على أصحابك ! مكانك وأنا أكفيك إن شاء الله » .

قالوا ومثل بين يدى البطريق فعجب هذا من أنفته وقوة جوابه ، فالتفت إلى من فى مجلسه وقال لهم باليونانية : « يظهر من أنفة هذا الرجل وكبر نفسه أنه من وجوه العرب ، وربما كان من كبار قوادهم ، فلا ينبغى أن نتخلى عن قتله . .

وكان مولاه وردان يفهم اليونانية ، فأحب أن يريهم خطأهم ، ويبين لهم أن الذى يكلمهم إنما هو رجل من عامة الجند ، فأسرع إليه فلطمه صائحاً به : ما أنت وهذا

(١) اعلام الإسلام عمرو بن العاص ص ٣٦ للعقاد

يا لكع . دع هذا المقال لمن هو أولى منك بالكلام عن قومه :
فكانت هذه اللطمة سبب نجاته .

اليمامة والفسطاط :

وقد رويت قصة أخرى أو أقصوصة فيها مثال سام من أخلاق العربى ورعايته لحق الجار ، ولو كان طيرا ، تلك قصة الفسطاط واليمامة [1] وقد روى سعيد بن عفير عن أشياخه أنه لما حاز المسلمون حصن بابليون بما فيه ، أجمع عمرو على المسير إلى الإسكندرية ، فسار إليها فى ربيع الأول سنة ٢٠ هـ ، وأمر بفسطاطه أن يقوض ، فإذا بيمامة قد باضت فى أعلاه ، فقال : « لقد تحرمت بجوارنا . أقروا الفسطاط حتى تنقف وتطير فراخها » . فأقروا الفسطاط ووكل به ألا يهاج حتى تستقل فراخها فلذلك سميت الفسطاط فسطاطا .

وكم فى تاريخ مصر من قصص رواها الرواة من قديمها وحديثها ، بعضها يأباه التاريخ وينكره ، مثل كثير من الخرافات التى رواها ابن عبد الحكم فى القسم الأول من كتابه فتوح مصر ، وذكر فيها فضائل مصر وتاريخها . وبعض هذه القصص صحيح تاريخى . ولكن الخيال لم يزينه ولم يزد فيه فظل مقصوراً على الحقائق . وأذكر من ذلك قصة وقعت فى عهد على بن الحسين بن حرب الذى ولى قضاء مصر سنة ٢٩٣ بعد زوال الدولة الطولونية وهى :

قصة التوءمين السجنين :

وقد رواها الكندى ص ٥٢٨ قال :

كان بمصر توءمان تكهلا ، ولا يفرقُ بينهما من رآهما ، من قوة الشبه بينهما ، فوجب على أحدهما دين ، فحبسه القاضى . وكان أخوه يجىء إليه زائراً فيجلس فى الحبس عِوَضَه ، ويتوجه ذلك ، فاشتهر هذا حتى بلغ أبا عبيد على بن حرب ،

(١) ص ٩ الولاة والقضاة

فأحضرهما فقال لهما : أيكما المحبوس ؟ فبادر كل منهما فقال : أنا هو . فأطرق ، ثم طلب الغريم فدفع إليه الدين الذى ثبت له ،فراراً من الشفعة والغلط فى الحكم .

وكثيراً ما يحدث هذا التشابه بين الإخوة ، والتوائم منهم خاصة ، وكثيرا ما يخلط الناس بين هؤلاء المتشابهين ، فإذا قيض الله أديبا عبقريا لمثل هذه الأخطاء المتكررة ، استطاع أن يخلق منها قصة عظيمة ، أو مسرحية لطيفة ، كما فعل شكسبير فى مسرحية « فكاهة الأخطاء » "The Comedy of Errors" .

وتدورحوادث هذه المسرحية حول مايجره التشابه بين التوائم من أخطاء؛ فقد ولد احد السادة فى بلد من البلاد توءمين متشابهين تشابها عظيما جدا ، وكان له عبد ، فولد توءمين على نفس الصفة ، ثم فرقت الأيام بين الأولاد ، وعاش سيد وعبد صغيران منهما فى بلد ، وسيد آخر وعبده فى بلد آخر ، ثم التقوا لما بلغوا مبلغ الرجال ، فحدث من الأخطاء والمشكلات ما حير عقولهم ، وعقول كثير معهم ؛ حتى ظنوا بأنفسهم الظنون . وأخيرا عُرف مبدإ القصة فحلت المشكلات ، وزال ماحدث من سوء التفاهم ، وعرفت شخصية كل واحد وعلاماته المميزة .

فأين قصتنا الساذجة البسيطة من هذه القصة الفنية ، ذات العقدة والحل ، والربط المحكم بين الحوادث حتى تصل إلى غايتها ؟

إن عناصر القصص وموادها الأولى موجودة فى حياة الشعوب وحوادث الأمم وصروف الدهور ، ولكن بعض الأمم تسعد بمن يستطيع أن يصوغ من هذه العناصر قصصا جميلة محكمة ، ذات طابع فنى يميز كاتبها من غيره ، أو يميزها من فنون الأدب الأخرى ، وقد استخدمت القصة فى ظروف كثيرة للتهذيب والتربية ،أو للهو والتسلية ؛ او لنشر المبادئ والآراء ، أو لمحاربة بعض العقائد والعادات او غير ذلك

وقد ظهر فى الأدب العربى كتاب قصص منظم ، يعد من أقدم كتب القصص عندنا ، وهو كتاب مصرى فى القرن الرابع الهجرى ، أعنى به :

كتاب المكافأة :

وقد ألفه أحمد بن يوسف بن ابراهيم من كتاب مصر فى أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع . ولأبيه شهرة فى الكتابة والتأليف . قال ياقوت[١] عن أبيه إنه « كان من جِلَّة الكتاب بمصر » . وكان بغداديا ، ولا يدرى كيف جاء إلى مصر . ولكنه لما جاء اتصل بابن طولون وخدم دولته ، وذاق أذاه حياً وميتاً ؛ فقد قبض عليه مرة ، ولكن أسرى معروفه استعطفوا الأمير فعفا عنه ؛ ووردت قصة هذا الأذى فى كتاب المكافأة ، الحكاية الثالثة عشرة من قسم « مكافأة الحسن بالحسن »

أما الحكاية التى قصها أحمد بن يوسف عما نال والده من الأذى ميتا فهى الخامسة والعشرون من هذا القسم : أرسل ابن طولون من يهاجم دار يوسف بن ابراهيم حين وفاته ، فلم يجدوا فيها شيئا إلا دفتر عطاياه ، فأخذوه ، وأخذوا ولديه إلى ابن طولون فلم يجد شيئاً يأخذ يوسف به ، وكان عند الأمير أحد أشراف الطالبيين فاعترف بفضل يوسف عليه . فترحم عليه أحمد بن طولون ، وأطلق سراح ولديه . وانصرف الطالبى معهما فحضر الجنازة وأحسن مكافأة ولديه .

وعُرف أحمد بن يوسف بابن الداية ، وإن كان هذا اللقب أكثر صلة بأبيه لأنه كان ولد داية إبراهيم بن المهدى ورضيع إبراهيم ؛ وذكره ابن زولاق فقال : « كان أبو جعفر — رحمه الله — فى غاية الافتنان ، أحد وجوه الكتاب الفصحاء والحساب والمنجمين ، مجسطى أوقليدسى ، حسن المجالسة ، حسن الشعر ، قد خرج من شعره أجزاء .

وله مؤلفات كثيرة منها : سيرة أحمد بن طولون ، وأخبار غلمان أحمد بن طولون

---

(١) معجم الأدباء جـ ٥ ص ١٥٤ — ص ١٦٠

وأخبار الأطباء ، وكتاب الطبيخ . ومنها موضوع حديثنا وهو : « كتاب المكافأة وحسن العقبى » .

أقسام الكتاب :

والكتاب ثلاثة أقسام : القسم الأول قصص غايتها مكافأة الحسن بالحسن ، وهى إحدى وثلاثون قصة ، والثانى قصص غايتها مكافأة القبيح بالقبيح ، وهى إحدى وعشرون قصة ، والثالث قصص ابتلى أصحابها فصبروا ، فكانت عاقبة أمرهم خيراً ، وعددها تسع عشرة قصة .

وهو يقدم لكل مجموعة بمقدمة عامة تبين فضل هذه القصص فى حمل الناس على تقليدها ؛ كأن يقول فى القسم الأول :

« وقد رأيتك لا تزيد من رغبت إليه فيما تحدوه على برك ، وتحثه لما أغفل من أمرك ، على نَـصِّ مكارم من سلف . وترى أنه يهش إلى مساجلتهم ، فلا يبلغ فى هذا أكثر من إحراز الفضيلة للمرغوب إليه الخ » .

ويقول فى ختام القسم الأول وبدء القسم الثانى :

« وقال أفلاطون : من حسنت مكافأته لم تغضبه خيبته فيما التمسه ؛ لأنه يقيم العوارف مقام ديون يتحملها ، لا يسعه إغفال قضائها . وإنما يغضب من المنع من آثر تحصيل العارفة وإغفال المكافأة عليها . ولأن المرغوب إليه إذا كان يحتاج إلى مطالعة حسن المكافأة للاحسان فيثابر عليه ، وسوء المكافأة على الإساءة فيتأخر عنه ؛ كان الراغب محتاجاً أن يكون فى خلده من أخبار من أساء الصنيع فساءت مكافأته ، ما يوازى ما أثبتناه من حسن المكافأة للاحسان .

ويقدم للقصص التى أوردها فى حسن العقبى بقوله :

« وإذ وفينا ما وعدناك به من أخبار المكافأة على الحسن والقبيح . ما رجونا

أن يكون عونا للاستكثار من مواصلة الخير ، وتطلب العارفة فى الحسن ، وزجر النفس عن متابعة الشر ، وإبعادها عن سورة الانتقام فى القبيح — وقد قالوا : الخير بالخير والبادى أخير ، والشر بالشر والبادى أظلم — رأيت أن أصل ذلك ، حفظك الله ، بطرف من أخبار من ابتلى فصبر ، فكان ثمرة صبره حسن العقبى ، لأن النفس إذا لم تُمَن عند الشدائد بما يجدد قواها تولى عليها اليأس فأهلكها . وقد علم الإنسان أن سفور الحالة عن ضدها حتم لا بد منه ، كما علم أن انجلاء الليل يسفر عن النهار ، ولكن خور الطبيعة أشد ما يلازم النفس عند نزول الكوارث ، فإذا لم تعالج بالدواء اشتدت العلة ، وازدادت المحنة . والتفكر فى أخبار هذا الباب مما يشجع النفس ، ويبعثها على ملازمة الصبر . وحسن الأدب مع الرب عز وجل يحسن الظن فى مواتاة الإحسان عند نهاية الامتحان ، والله ولى التوفيق » .

آثرت نقل هذه النصوص الثلاثة ليستبين القارىء منها غاية المؤلف فى كل قسم . وقد كانت مقدمة القسمين الأول والثانى غامضة تحتاج إلى وقفة عندها قبل أن يظهر المراد منها . أما هذه الفقرة الأخيرة فأسلوبها واضح، والمفهوم منها معين . وكذلك القصص التى أوردها فى كتاب المكافأة فإنها تسير على نحو هذا القسم الأخير فى الوضوح والسهولة غالبا .

تخير المؤلف قصصه من أمم وعصور وبيئات مختلفة ، فكان منها العراقى والمصرى ، وكان منها العربى والفارسى والرومى ، وكان منها الطولوني والعباسى ، والإسلامى والجاهلى . كما اشتملت على قصص من أخبار السادة والعامة ، والصالحين والطالحين ، ولكنها كلها كانت مختارة ، بحيث تؤدى إلى الغاية المقصودة منها فى القسم الذى تضمنها .

وتصويرها قوى للعصر الذى أخذت منه ، كالقصة الحادية والعشرين من مكافأة القبيح بالقبيح ، وانظر كيف تحدث فى القصة الثانية عشرة عن الغلاء

واضطراب الرعية بسببه فى زمن احمد بن طولون ، وأنه ركب ، وتقدم بعقوبة القماحين وازدحمت النظارة من السطوح عليه .

وترى فيها صوراً من عادات النـاس وأخلاقهم ، كاهتمام قابلة أولاد خمارويه بحلوى العيد من أجل صُبيانها ، وذهابها إلى أختها كى تقترض منها مالاً تشترى به هذه الحلوى (١) .

وقد يصور النفس الإنسانية على حقيقتها فى بساطة وسهولة ، كما صور محبة الأم لابنتها ،وحرصها على جهازها ، وإن أدى بها ذلك إلى احتيالها على زوجها حتى فرط فى وديعة عنده ، ولم تعبأ به عندما جاء صاحب الوديعة يطلبها ، واكتفت بالنجاح الأول فى أخذ الوديعة وشراء الجهاز بها « وسوف تأتى هذه القصة » .

وتراه يحاول أن ينقل صورة الحوار الذى يجرى بين اثنين من أبطال القصة ، فيزيدها بذلك قوة ؛ وانظر إلى هذا الحوار بين الأختين ، الغنية والفقيرة (٢) :

تقول الفقيرة : « فكنت أجاهد فى مئونة ولدى ، وإذا وقف أمرى صرت إلى أختى فقلت : أقرضينى كذا وكذا ، استحياء من أن أقول لها : هبى لى . ودخل رمضان فلما مضى نصفه اشتهوا علىَّ صبيانى حلوى فى العيد ، فصرت إلى أختى فقلت لها : أقرضينى ديناراً أعمل به للصبيان حلوى فى العيد . فقالت : يا أختى تغيظينى بقولك أقرضينى ! وإذا قرضتك من أين تعطينى ؟ أمن غلة دورك أو بستانك . لو قلت : هَبى لى كان أحسن ! فقلت لها : أقضيك من لطف الله تعالى الذى لا يحتسب ... فتضاحكتْ وقالت : يا أختى هذا والله من المُنَى ، والمنى بضائع النَّوْكى (٣) . فانصرفت عنها أجر رجلى إلى منزلى » .

وتكاد تلمس فى هذه الفقرة وحوارها استحياء الفقيرة وأدبها ، وتحس حرصها

---

(١) قصة ١٦ حسن العقبى . (٢) قصة ١٦ حسن العقبى .

(٣) الحمق .

على ألا تكسر قلوب أولادها فى العيد . وترى فيها حرص الغنية على مالها وعلى الظهور بمظهر المحسن المتفضل ؛ وسخريتها من الاعتماد على الآمال .

وفى هذه الفقرة أيضاً طريقة التعبير العامية ، فى إثبات واو الجماعة مع الفاعل ، « اشتهوا على صبيانى » وحذف النون من المضارع المتصل بياء المخاطبة ، مثل « يا أختى تغيظينى بقولك : أقرضينى . وإذا قرضتك من أين تعطينى » .

فإذا كان ابن يوسف قد أراد بهذا التعبير العامى مطابقة القول للغة القائل ، كان غريبا فى حرصه على دقة التصوير وهو ينقل عبارات المتكلم العامية . أما إذا كان ذلك لهجة مصرية فى اللغة العربية الأدبية بمصر ، فى زمن احمد بن طولون ، فهو نص تاريخى نستدل به على وجود هذه اللهجة فى ذلك الحين .

وفيها من الكلمات والأمثال ما لا يزال باقياً فى عاميتنا كقوله : فوجدناه قد ركب كخَّصلنى على الباب[1] . ويستعمل كلمة « حاصل » بمعنى خزانة فيقول : لم يصبح فى حاصلى درهم واحد[2] « وأسباب السلطان بمعنى عماله » . وكلمة التَّليس بمعنى الزكيبة مكررة مرات فى قصة إليون ملك الروم[3] . والمثل العامى « من عمود لعمود يأتى الله بالفرج » له أصل عنده إذ يقول : « إن من عمود إلى عمود فرجا[4] » . وكذلك قول المستيقظ من حلم « خير إن شاء الله[5] » .

ويستفهم بلا أداة إن كانت هل أو الهمزة كأن يسأل « ها هنا منزل محمد الغورى ؟ » فى ثالث قصة نذكرها ، وكقوله : يحسن لشيخ مثلى أن يتربح فى المعروف ؟[6] .

وتمتاز قصصه بالإيجاز والسهولة ، وقلة الحوادث والشخصيات ، والوصول إلى

---

(١) قصة ١٥ القسم الأول
(٢) قصة ١٨ القسم الأول
(٣) قصة ١٦ القسم الثانى
(٤) قصة ٥ القسم الثاني
(٥) ١٢ القسم الثانى
(٦) القصة الثالثة من القسم الأول

الغاية من أقرب طريق ، وقوة الربط بين القصة وغايتها غالبا .

وهذه قصص ثلاث ، واحدة من كل نوع :

(ا) من مكافأة الحسن بالحسن (١) .

« وحدثنى أحمد بن سقلاب قال :

كان بمصر رجل من الفقهاء مشهور الاسم ، وله حلقة عظيمة بالجامع . فبينا هو فى صدرها إذ وافى علان بن المغيرة ، فلما رآه مقبلا نحوه قام إليه على رجليه ، ثم خطا إليه حتى لقيه . فأكثرت الجماعة قيام شيخ مثله إلى حدث مثل علاّن ، وتحفّيه به ، وعَرْض نفسه عليه ، وأنه لم يدع شيئاً يفعله تابع بمتبوع إلا بذله ، وأسررنا الموجدة عليه . فلما قام علان . قال لجماعتنا : ما أعلمنى بما أضمرتم ، ولكنى أريكم عذرى فيما خرجت إليه :

كانت عندى ألف دينار ، وديعة لرجل بالمغرب ، قد طال مقامها ، وطالب زوج ابنتى بإدخال امرأته عليه . فجلست أمها بحضرتى ، فقالت لى : ما الذى تراه فيما قد ألح فيه هذا الرجل ؟ فقلت لها : نستعمل فيه التّجوز . فقالت لى : لنا حساد نخاف شماتتهم ، ولا بد من أن تعيننى على التجمل . فقلت : إن كان ما تريدين فى قدرتى لم أبخل به عليكم . قالت : هو فى قدرتك . قلت : ما هو ؟ قالت : تمكننى من هذه الوديعة ، ونحتاط فيما نبتاعه من الجهاز حتى يصل إلينا ثمنه فى أى وقت أردناه ، وندخل هذه الصبية على زوجها ، فإن جاء صاحب الوديعة بعنا ما اشتريناه ولم نوضع فيه إلا ما يسهل غُرْمه . قلت : هذا قبيح عند الله وعند خلقه . فلم تزل تلح بى وتحتال على حتى أجبتها . فجهزت ابنتها بجميع المال ، وأدخلتها على زوجها .

فلم يمض بنا بعد ذلك إلا شهران حتى وافى صاحب الوديعة يطلبها . فقلت لها

---

(١) المكافأة ص ٤٥ .

ما تفعلين ؟ فقالت : أمضى فأحمل المتاع وأبيعه ، فمضت إلى ابنتها ورجعت إلى فقالت : لا تشغل نفسك بهذا المتاع ؛ فقد حلف زوجها بطلاقها أنه لا يخرج منه شيء عن منزله . فَسُقِط فى يدىّ ، ورأيت الفضيحة فى الدارين متصدية لى . فوُضع إفطارى بين يدى فلم أطعَم ، واعترانى ما خفت منه على عقلى ، وبت ليلة ما بِتُّ بمثلها ، وأنا أتبين سهولة ذلك على زوجتى فى جنب ما أحرزته لبنتها . ثم انتبهتُ قبل الفجر بمنازل ، فصحت بالغلام : أسْرِجْ لى . فقام وأسرج وقال : ياسيدى ، أين تمضى ! فقلت : ليس لك الاعتراض على . وركبت وسرت بطوع عنانى ، فلم يزل بغلى يسير حتى دخلت زقاق علان بن المغيرة . فوقفت على باب داره وصاح الغلام بالبواب وعرفه بموضعى . فسمعت حركة فى داره ، ثم فتح الباب وأذن لى بالدخول ، فدخلت عليه فوجدت بين يديه شمعة وهو يكتب جواباتِ كتبٍ وكلائه . فلما رآنى قام إلى ، وقال لمن حضره من الغلمان : تنحوا . وأقبل على فقال : والله لو بعثتَ إلىّ لسرت إليك ، ولم أجشمك السعى إلىّ ، فاشرح لى أمرك . فغلبتنى العبرة ، وحالت بينى وبين الكلام ، فما زال يسكننى حتى قصصت له إنفاق الوديعة . وهو مغموم بأمرى . ثم قال : فكم هذه الوديعة ؟ فقلت ألف دينار . فضحك وقال : فرّجت والله عنى ! ما توسمتُ أنى أملكها ، فكان الغم يقع بها ! فأما وهى فى القدرة فما أسهلها علىّ ، وأخفها لدى ! ثم قال لغلامه : جئنى بتلك الصرار التى وردت علينا من المغرب فى هذا الشهر ، فجاء بأربع صرار ، فنظر فيما عليها وجمعه ، وقال هذا ألف وخمسمائة دينار ، ألف للوديعة ، وخمسمائة تصلح بها ما بينك وبين من عندك . ثم قال لى : متى أشكر إفرادك إياى ، بعد الله عز وجل ذكره ، بتأميلى فى حادثة حدثت عليك ، فأعاننى الله على مكافأتك ؟ وأضاف إلىّ من خفرنى إلى منزلى .

فقالت الجماعة : قد سمعنا عذرك ، وعلينا عهد الله إن لقيناه أبدا إلا قياما » .

ب — ومن مكافأة القبيح بالقبيح ، ما رواه أحمد بن يوسف قال :

« حدثني نسيم الخادم أيضاً[١] .

أن أحمد بن طولون كان مذعوراً من خروج أبي عبد الرحمن العمرى ، فوافاه الخبر بقتل غلمان أبي عبد الرحمن إياه ، وانتشار أمره . ثم صار إليه جماعة تقارب العشرة ومعهم رأس . فقالوا : نحن غلمان العمرى وهذا رأسه . فجمع الخاص والعام وأدخلهم إليه ، واستحضر قوما استأمنوا إليه فسألهم عن الرأس . فأجمعوا على أنه رأس أبي عبد الرحمن ، وأن الغلمان من خاصته .

فقال أحمد بن طولون لهم : هل كان مسيئاً إليكم . قالوا : لا والله ولقد كان محسناً إلينا ، ومفضلا علينا . قال : فما حملكم على قتله ؟ قالوا : طلبنا الحظوة عندك والمكانة منك . فقال : قتلتم مولاكم المحسن إليكم بالتطرب إلى المزيد . ثم أمر بهم فشق عن جماعتهم ، وأخذتهم السياط حتى سقطوا ، وضربوا على رءوسهم بالشدوخ[٢] حتى ماتوا جميعاً ، وأمر بدفن رأس أبي عبد الرحمن .

حـ — ومن قصص حسن العقبى .

حدثني محمد بن صالح الغورى قال[٣] :

كانت لى بضاعة أعود بفضلها على شملى . فافترقت فى معاملات فى الصعيد ، وخرجت إلى من عاملته فجمعتها ، وكان مقدارها خمسمائة دينار . وخرجت أريد الفسطاط فى رفقة كثيرة الجمع . فلما كان منتصف طريقنا وافى جمع من الصعاليك فسلب الناس جميعا . ودهشت ، فرأيت منهم شابا حسن الصورة . فقلت له : والله ما أملك غير هذا الكيس فارفعه لى عندك . فقال : وأين بيتك بالفسطاط ؟ فقلت فى دور عباس بن وليد . فقال : ما اسمك ؟ قلت : محمد الغورى . قال : امض لشأنك

---

(١) ص ٦٤ المكافأة

(٢) الشدوخ أداة يكسر بها .

(٣) ص ٩٩ المكافأة

وجاء منهم من قلع ثيابى وسراويلى وانصرفوا عنا . ولم أزد أن سوغت واحدا منهم جميع ما كان معى . ودخلنا إلى الفسطاط ونحن فقراء . فرجع كل واحد منهم إلى ما تخلف له ، وبقيت ليس معى درهم أنفقه .

وإنى لجالس على درجة المسجد بين المغرب وعشاء الآخرة حتى رأيت رجلا قد وقف بى . فقال لى : ها هنا منزل محمد الغورى ؟ قلت : أنا هو ولا والله ما اهتديت إلى الرجل الذى أعطيته المال ، لأنه كان عندى أول مال ذاهب[١] . فقال لى : عنيتنى . وأخرج الكيس فدفعه إلى . فرُدَّت علىَّ جِدَتى وتطعَّمتُ الحياة . وكان بالقرب منا قائد يعرف بابن قرا ، كنت معاملا له وكان له محل . فسألت اللص المبيت عندى ففعل . فأصبحت وصرت إلى ابن قرا ، وقصصت عليه قصة الرجل . فقال لى : ألطف لى فيه ، فوالله لأنوّهنّ باسمه ، ولأكافئنه عنك . فَرُحت إليه فأخبرته ، فوالله ما ارتاع ولا اضطرب ومضى معى . فأحسن تلقيه ، وخلع عليه ، وصيرّه سيَارةً لعمله ، وضم إليه عدةً وافرة . ولم يزل فى حيزه إلى أن توفى .

وكان يعاصره أبو محمد عبد الله بن محمد المدينى البلوى ، واقتبس فى كتابه « سيرة أحمد بن طولون » نحو خمسين قصة من قصص ابن الداية المذكورة فى كتابيه : « سيرة ابن طولون ، والمكافأة » ، وزاد من عنده نحو أربعين قصة . وكثير من حكايات البلوى مفصلة فيها زيادات[٢] .

وقد قابلت بين القصة الثالثة من القسم الأول مكافأة الحسن بالحسن ، ومثيلتها فى صفحة ٢٣ سيرة ابن طولون للبلوى وعنوانها « أعرابى أراد أن يفدى صاحبه بماله ودمه » ، فلم أجد فرقاً فى عناصر القصة ، وكل ما هنالك اختلاف فى التعبير ،

---

(١) العبارة غامضة .

(٢) كتابه « سيرة أحمد بن طولون » مطبوع بتحقيق العلامة محمد كرد على سنة ١٣٥٨ هـ .

فقد يورد ابن الداية المعنى فى جملة كقوله : « فكتب إلى يستخبرنى عن حاله » ويوردها البلوى مع إضافة يسيرة كقوله فى نفس القصة ، « فكتب إلى يستخبرنى عما أقف عليه من حاله » . وقد يزيد على جملة ، ويفصل فى بعض المواقف ، ولكنه لا يخرج عن الحوادث والغاية والأشخاص ، ويقل الاختلاف فى أول القصة ، ثم يكثر فى أثنائها .

وقابلت بعض قصص أخرى فى المكافأة بمثلها فى سيرة أحمد بن طولون للبلوى ، فتبين لى دقة الحكم الذى جاء به العلامة محمد كرد على عندما قارن بين سيرة ابن طولون ، وبين كتابى أحمد بن يوسف « سيرة ابن طولون ، والمكافأة » فى مقدمة الكتاب الأول[1] .

ويظهر من قوله أن ابن الداية أسبق من البلوى ، وأن البلوى ناقل أحيانا ؛ وله بعض التصرف ، وحسن التعبير وشىء كثير أو قليل من الزيادة أحيانا أخرى ، ويأخذ عليه أنه لم يشر إلى الأصل الذى أخذ منه .

أما قوله عن أحمد بن يوسف : « وَحَوْكُ ابن الداية من أجمل ما حاك بلغاء العربية » ، فهو قول صحيح فى جملته . وإن أخذ عليه بعض الغموض أحيانا . ومن ذلك ما قدّمته بين يدى القسم الأول والثانى من قصص الكتاب[2] .

وها نحن أولاء نرى مصر فى أوائل القرن الرابع قد شهدت ظهور قصص أدبى حى له غاية ، وفيه تصوير قوى . مع السهولة والإيجاز .

---

(١) ص ١٠ ، ١١

(٢) ص ٦٧ من هذا الكتاب .

الفصل الرابع

كتابة الرسـائل

— ١ —

من عمرو إلى ابن طولون

كتابة الرسائل ، أو الكتابة الإنشائية ، نوع من النثر الفنى المسطور الذى يعتمد على الأفكار المنظمة تنظيما جميلا ، وعلى صياغة هذه الأفكار فى عبارات وألفاظ متخيرة ويكون التراسل به بين طرفين غالباً ، وله رسوم فى البدء والختام تميزه عن غيره من أنواع النثر الأخرى .

ويطلق مؤرخو الأدب العربى كلمة الكتابة على هذا النوع ، ومن ذلك القول الشائع : « بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد » — وإن لم تختم إلى الآن — .

ويقسمون الرسائل قسمين عامة وخاصة ، وتسمى الأولى الديوانية ويقصدون بها الرسائل الإنشائية التى تصدر عن الخلفاء والأمراء والسادة والقادة ، فى شأن من شئون الدولة ، أو فى مسألة عامة يهتم بها الحاكمون . والثانية الإخوانية ويقصدون بها الرسائل الخاصة التى تجرى بين الناس فى أمور تعنيهم . وتطور هذا النوع من الكتابة حتى شمل مختلف الشئون التى تهم الأفراد والجماعات . وتغير لفظه ومعناه ، وأساليبه وعباراته وموضوعاته ؛ فصار من العسير أن تعين له موضوعا ، أو أن تقصره على نوع من المعانى ، أو أن تخصه بطائفة من الأفكار ، ووصل إلى غاية سامية من التنوع والقوة فى القرن الرابع الهجرى ، وشمل من المعانى

العاطفية رسائل العتاب والشفاعة والاعتذار والشكوى والتهديد والاشتياق والمدح وغير ذلك .

وولى أمر الكتابة رجال عرفوا بسعة المعارف ، وجودة الروية ، وحسن التصرف ، وجمال التعبير .

وكان استقلال ابن طولون فاصلا بين عهدين من عهود الكتابة الإنشائية بمصر ؛ أولهما من عمرو بن العاص إلى ابن طولون ، وثانيهما من ابن طولون إلى قيام الفاطميين .

وفى هذا الفصل حديث الكتابة إلى زمن ابن طولون :

(ا) فى زمن الراشدين .

لما قدم عمرو بن العاص بجنوده لغزو مصر ، وقادهم إلى نصر مؤزر ، وفتح مبين فدانت لهم البلاد ، وفتح الله عليهم هذا الوادى الخصيب . كان أهم ما يشغلهم فى عهدهم الأول — عهد عمر — أن تكون صلتهم بالمدينة المنورة متصلة ، وأن تجرى بينهم وبينها مراسلات ، يخبرون الخليفة فيها بأخبار الحرب والصلح والنصر والغنائم والخراج ، وبكل ماله ارتباط بإدارة البلاد وسياستها مما يحتاجون فيه إلى رأى الخليفة وأوامره ، فكانوا يطلبون منه العون عند الحاجة ، ويخبرونه بشروط الصلح إذا كان صلح ، ويبشرونه بالنصر إذا جاءهم به الله ، وقد يصفون له أحوال البلاد ، ويذكرون له طبيعة أرضها ، وما تنبته من زروع وثمار ؛ ويصفون أحوال النهر الذى يسقى هذه البلاد ، وزمان فيضه وغيضه ، ويذكرون له أزمان الحصاد ، ومقدار الخراج ومواعيد الجباية ، وغير ذلك من شئون السياسة والحرب والإدارة .

وكان العرب فى مصر ، كما كانوا فى الحجاز والشام والعراق ، حديثى عهد بالكتابة ،ليس لهم فيها نظام قديم ، ولا تقاليد سابقة ، ولا فروق معينة بين نوع

منها ونوع . فكانوا من أجل هذا أحراراً فى رسائلهم ، يكتب كل منهم على سجيته ، لا يقيده إلا عبارات البدء والختام الدينية وفكرته عن الموضوع ؛ كان حراً فى أن يكتب عن المعانى التى تدور فى خاطره عندما يعتزم الكتابة ، مع الإيجاز وحسن الأداء . فامتزج الأدب برسائل السياسة والإدارة ، وصبغت هذه الرسائل بصبغة أدبية ، حتى فى الموضوعات التى تبدو إدارية خالصة . وندر أن تشذ رسالة أو عهد أو وصية عن هذا . وليس غريباً أن تكون كتابتهم على هذه الصفة إذا عرفنا أن الذين كانوا يتولونها هم سادتهم وكبراؤهم من الخلفاء وقواد الجيوش ، ومستشاريهم وأعوانهم .

ويمثل هؤلاء السادة فى مصر عمرو بن العاص رضى الله عنه . وقد رويت عنه رسائل قوية الأداء جميلة التعبير . ومن أقوى رسائله وأشهرها رسالته فى وصف مصر كتب إليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يسأله وصفها(١) ، فكتب إليه :

« إن مصر تربة غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشرٌ ، يكنُفها جبل أغبر ، ورمل أعفر ، يخط وسطها نهرٌ ميمُون الغدُوات ، مباركُ الروحات ، تجرى فيه الزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر ، له أوانٌ ، تظهر به عيون الأرض وينابيعها ، حتى إذا عَجَّ عجاجه ، وتعظمت أمواجه ، لم يكن وصولُ بعضٍ أهل القرى إلى بعض إلا فى خِفافِ القَوازِب وصِغار المراكب ، فإذا تكامل فى زيادته نكَص على عقبه ، كأولِ ما بدا فى شدته ، وطَما فى حِدَّته ، فعند ذلك يخرج القوم ليحرثوا بطون أوديته وروابيه ، يبذرون الحب ويرجون الثمار من الرب ، حتى إذا أشرقَ وأشرف ، سقاه من فوقه الندى ، وغذاه من تحته الثرى ، فعند ذلك يَدِرُّ حِلابُه ، ويغنى ذُبَابُه . فبينما هى يا أمير المؤمنين ورقةٌ بيضاء ، إذا هى عنبرةٌ سوداء وإذا هى زبرجدة خضراء ، فتعالى الله

(١) عمرو بن العاص للعقاد ص ٣٢ .

الفعال لما يشاء » .

« والذى يصلح هذه البلاد وينميها ألا يقبل قول خسيسها فى رئيسها . وألا يستأدَى خراج ثمرة إلا فى أوانها ، وأن يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وترعها .

فإذا تقرر الحال مع العمال فى هذه الأحوال ، تضاعف ارتفاع المال ، والله تعالى يوفق فى المبتدأ والمآل » .

وأظهر ما فى هذه الرسالة غلبة السجع عليها ، لـكنه سجع لا تـكلف فيه ولا تعَـمُّل ، فهو عذب سائغ ؛ وتظهر فيها دقة الوصف وشموله أيضاً ، فقد وصف جانبيها الجديب والخصيب ، وبين ذَرْعها طولا وعرضاً ، وتحدث عن نهرها فى حالتيه ، فوصفه خالياً وطامياً ؛ ووصف الناس وأعمالهم زمن الفيضان وبعده . إلى آخر ما جاء فيها .

وقد وُجِّه إلى هذه الرسالة طعون تنـكر نسبتها إلى عمرو والى هذا العصر ؛ وتنسبها إلى غيره من العصور المتأخرة التى نضجت فيها الـكتابة العربية ، واهتم رجالها بالحلية اللفظية ، وترتيب المعانى واستقرائها . ونسبت بعض الروايات(١) إلى هذه الرسالة دعاءً فى أولها لأمير المؤمنين . وأنها لم تبدأ بحمد الله ولا بسلام على المرسل إليه فى تلك الرواية .

وعندى أن هذا كله لا يكفى لإنكار نسبتها فى جملتها لعمرو بن العاص ؛ فهذا الوصف الذى كتبه وصف حسى ، يستطيع أن يكتبه كل من عنده قدر من الملاحظة . وقد عرفها عمرو قبل الإسـلام ، ثم نزلها فاتحاً فوجب أن يعرف شيئاً عن طبيعة البلاد ، وطاف فى كثير من أرجائها عند فتحها(٢) .

وطالت إقامته فيها فشاهد كل ما وصفه فى رسالته . وكان وصفه لها بعد أن

---

(١) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٢ (٢) ص ٤ من هذا الـكتاب .

استوصفه عمر ؛ إذ كان حريصاً على معرفة أحوال المسلمين ، والبلاد التى ينزلون بها ؛ ليرى رأيه فى أحوالهم ومنازلهم ، ويأمر بما يراه صالحاً لهم . وشبيه ذلك ما فعله بالعراق ، فقد أرسل إلى سعد بن أبي وقاص أيضاً وهو فى القادسية يقول له : « فصف منازل المسلمين ، والبلد الذى بينكم وبين المدائن ، صفةً كأنى أنظر إليها واجعلنى من أمركم على الجَـلِيـَّة »(١) . فكتب إليه سعد يصف القادسية وما حولها.

أما ميل عمرو رضى الله عنه إلى الوصف فله أكثر من مثال : منها الوصف الذى تقدم ، ومنها وصفه للاسكندرية(٢) بعد فتحها ، ومنها وصفه للبحر .

وما علينا من حرج فى أن نذكر قصة هذا الوصف :

روى أن معاوية — وهو وال على الشام — أرسل إلى الخليفة عمر يستأذنه فى فتح قبرص ، ويذكر له قربها من الساحل ، حتى قال له : « إن قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نُباحَ كلابهم ، وصِياحَ دَجاجهم (يقصد قبرص) » ، فكاد ذلك يأخذ بقلب عمر : ولكنه اتهمه ، وكتب إلى عمرو بن العاص : أن صف لى البحر وراكبه ؛ فإن نفسى تنازعنى إليه .

فكتب إليه عمرو :

إنى رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير ، إن ركَنَ خرَّق القلوب ، وإن تحرك أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة : والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود إن مال غرِق ، وإن نجا بَرِق(٣) .

وكتب هذا الوصف للبحر وهو وال على مصر .

وقد عرف عن عمرو انه وصف نفسه أيضا(٤) .

---

(١) تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى جـ ١ ص ٢٩٩ .

(٢) المقريزى جـ ١ ص ١٦٦ .

(٣) تاريخ الإسلام للنجار ص ٨٨ .

(٤) النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٦٢ .

فعمرو وصاف للبلاد والمدن والبحر والرجال .

أما الناحية اللفظية أو الناحية الشكلية ، فليست ضعيفة أمام الطعن الذى يوجه إليها ، إذ أن السجع فيها ليس غريبا على عمرو بن العاص ، واقرأ خطبته السابقة[1] ووصفه القريب للبحر ؛ ففيهما السجع المقبول ، كما فى رسالته التى نتحدث عنها ، وفى إنشاء عصره كثير من السجع أيضا . فليس السجع غريبا عليه ولا على زمنه .

وأما خلو الرسالة من بعض عبارات البدء والختام التى كانت متبعة فى عصره كالبسملة أو الحمدلة أو السلام ، فلا يطعن فى الرسالة أيضا ، إذ أن الرواة كانوا يشيرون إلى ذلك ، وقد يتركونه اكتفاء بما هو معروف من التزام الكتاب والخطباء لهذه العبارات . ولو أن شيئاً منها قد أهمل فى رسالة عمرو لالتفت إليه الرواة ونصوا عليه ، كما التفتوا إلى إهمال زياد أن يبدأ خطبته بحمد الله ، فسموها « البتراء » .

لكن هذا الدفاع عنها لا يمنع أن يكون الدعاء لأمير المؤمنين ، الوارد فى بعض رواياتها ، شيئاً أضيف إليها فيما بعد ، وكذلك الجزء الأخير منها ؛ لأنه ضعيف السجع متكلف التركيب ، بادى الهزال .

واختلاف الروايات فى هذه الرسالة يقطع بأن بعض التغيير والتبديل قد أصابها إما من فعل الرواة أو من عمل النساخ . كما حدث هذا فى كثير من النصوص الأدبية التى تداولتها الأيام رواية وحفظا .

وكان لعمرو رسائل أخرى يرد بها على أمير المؤمنين فى حسابه العسير الذى كان يصيبه ويصيب غيره من عمال الدولة . ولدينا من ذلك مراسلات بينهما يبدأ الخليفة فيها باتهام عمرو ، ويدفع عمرو عن نفسه بأعذار يراها مبررة ، ولا يقبل الخليفة

---

(١) ص ٢١ من هذا الكتاب .

منه عذره . وهذه بعض الرسائل :

كتب عمر بن الخطاب :

«من عبدالله عمربن الخطاب إلى عمرو بن العاص . سلام عليك فإنه بلغنى أنه فَشَتْ لك فاشية من خيل وإبل وغنم وبقر وعبيد ، وعهدى بك قبل ذلك ألا مال لك ، فاكتب إلى من أين أصل هذا المال ولا تكتمه » .

فكتب إليه :

« من عمرو بن العاص إلى عبد الله أمير المؤمنين ، سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد . فإنى أتانى كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه ما فشا لى، وأنه يعرفنى قبل ذلك لا مال لى . وإنى أُعلِم أمير المؤمنين أنى ببلد السعرُ فيه رخيص ، وإنى أعالج فيه من الحرفة والزراعة ما يعالج أهله ، وفى رزق أمير المؤمنين سَعة . والله لو رأيت خيانتك حلالا ماخنتك ، فأقصر أيها الرجل ، فإن لنا أحسابا هى خير من العمل لك ، إن رجعنا إليها عشنا بها ! ولعمرى إن عندك من تذم معيشته ولا تذم له ، فأنى كان ذلك ولم يفتح قفلك ؛ ولم نشركك فى عملك » .

فرد عليه عمر :

« أما بعد . فإنى والله ما أنا من أساطيرك التى تسطر ، ونسقك الكلام فى غير مرجع ، لا يغنى عنك أن تزكى نفسك ، وقد بعثت إليك محمد بن مسلمة فشاطره مالك ، فإنكم أيها الرهط الأمراء جلستم على عيون المال ... تجمعون لأبنائكم ، وتمهدون لأنفسكم . أما إنكم تجمعون العار ، وتورثون النار ، والسلام » .

وذهب إليه محمد بن مسلمة وشاطره ، وأبى أن يشرب عنده شربة ماء ، وغضب عمرو وسخط ؛ فكتم محمد بن مسلمة ذلك ولم يخبر به أمير المؤمنين (١) .

ونرى فى رد عمرو أنه بدأ هادئاً ، يفند التهم ويعتذر عما أخذ عليه . ثم يثور

---

(١) العقد ج ١ ص ٢٦ ، صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٧٧ .

فجأة ، وينفجر انفجارا حين يقول للخليفة : « فأقصر أيها الرجل! فإن لنا أحسابا هى خير من العمل لك » ، ولم يعبأ الخليفة بهذه اللهجة فكان رده عليه قاسيا ، صريحا فى الاتهام بلا خوف ولا مجاملة .

وكان عمرو يتلقى من أمير المؤمنين رسائل عنيفة بين الحين والحين ، وهذه إحداها:

لما استبطأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه الخراج من قبل عمرو بن العاص كتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص : سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإنى فكرتُ فى أمرك والذى أنت عليه ، فاذا أرضُك أرضٌ واسعة ، عريضة رفيعة ، قد أعطى الله أهلها عدداً وجَلَدا ، وقوة فى برٍ وبحر ، وإنها قد عالجتها الفراعنة ، وعملوا فيها عملا محكما ، مع شدة عُتُوهم وكفرهم ، فعجبت من ذلك ، وأعجب مما عجبت أنها لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك ، على غير قحوط ولا جَدْب . ولقد أكثرتُ فى مكاتبتك فى الذى على أرضك من الخراج ، وظننت أن ذلك سيأتينا على غير تريث ، ورجوت أن تفيقَ فترفعَ إلىَّ ذلك ، فاذا أنت تأتينى بمعاريضَ[1] تعبأ بها ، لا توافق الذى فى نفسى ، ولستُ قابلا منك دون الذى كانت تؤخذُ به من الخراج قبل ذلك ، ولست أدرى مع ذلك ما الذى نفرك من كتابى وقَبَضك ، فلئن كنت مجربا كافياً صحيحاً إن البراءة لنافعة ، ولئن كنت مضيِّعاً نُطُعاً[2] إن الأمر لَعَلىَ غير ما تحدث به نفسك ، وقد تركتُ أن أبتلى ذلك منك فى العام الماضى ، رجاء أن تفيق فترفع إلىَّ ذلك . وقد علمتُ أنه لم يمنعك من ذلك إلا عمالك عمالُ السوء ، وما توالِسُ[3] عليه وتُلَفِّفُ[4] . اتخذوك كهفاً ،

---

(١) معاريض : إجابات غير صريحة . (٢) نطعا : بضم الطاء والعين ، متشدقا فى كلامك .
(٣) توالس : تخادع . (٤) تلفف : تجمع من هنا وهناك .

وعندى بإذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك عنه ، فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخذ منك الحق وتعطاه . فان النهر يخرج الدر ، والحق أبلج ، ودعنى وما عنه تلجلج ، فانه قد برح الخفاء ، والسلام[١] » .

وهذا رد عمرو :

بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص :

سلام عليك ، فانى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين فى الذى استبطأنى فيه من الخراج ، والذى ذكر فيه من عمل الفراعنة قبلى ، وإعجابه من خراجها على أيديهم ، ونقص ذلك منها منذ كان الإسلام ، ولعمرى لَلْخراجُ يومئذ أوفر وأكثر ، والأرض أعمر ؛ لأنهم كانوا على كفرهم وعتوهم أرغبَ فى عمارة أرضهم منا ، منذ كان الإسلام . وذكرت أن النهر يخرج الدر فحلبتها حَلبا قطعَ دَرَّها ، وأكثرت فى كتابك وأنَّبْت ، وعرَّضت وترَّبْت ، وعلمتُ أن ذلك عن شىء تخفيه على غير خُبْر ، فجئت لعمرى بالمفظعات المقذعات ، ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصينٌ صارم ، بليغ صادق ، وقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن بعده ، فكنا بحمد الله مؤدين لأماناتنا ، حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا ، نرى غير ذلك قبيحا ، والعمل به شيناً ، فيُعرَفُ ذلك لنا ، ويُصدَّقُ فيه قلبنا . معاذ الله من تلك الطعَم ، ومن شر الشيم ، والاجتراء على كل مأثم ، فاقبض عملك ، فإن الله قد نزهنى عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها ، بعد كتابك الذى لم تستبق فيه عِرْضا ، ولم تكرم فيه أخا ، والله يابن الخطاب لأَنا حين يرادُ ذلك منى ، أشدُّ لنفسى غضباً ولها إنزاها وإكراما ، وما عملت من عمل أرى علىَّ فيه متعلَّقاً ، ولكنى حفظت مالم تحفظ ، ولو كنتُ من يهود يثربَ ما زدتَ . يغفر الله لك ولنا ؛ وسكتُّ عن أشياء

---

(١) حسن المحاضرة ١ : ٦٤ ، خطط المقريزى ١ : ٨٧ .

كنت بها عالما ، وكان اللسان بها منى ذلولا . ولـكن الله عظم من حقك ما لا يُجْـهَل ، والسلام[١] .

فهذا اعتذار من تهمة ، وتنصل من قذف ، ودفاع عن شرف ، وإنك لترى فيه نفس المغيظ الثائر ، وأدب المرءوس التابع ، واعتزازاً بنزاهة الولاية ، واستقالة من سوء ظن الخليفة به ، وعتباً وتذكيرا .

وكان هناك رسائل فى عهد عثمان ، كتب بها الثائرون بعضهم إلى بعض ، يذكرون سيئات عثمان عندهم ، وعيوبه فى نظرهم ، ثم جاوزوا النقد إلى الثورة ، وائتمروا بقتله ؛ وكان قتله باب فتنة كبرى شبت نارها فى البلاد الإسلامية لم يخمد لهيبها .

وبويع بعده على ، واتهم بالتهاون فى القصاص من قاتليه ، وأبى معاوية أن يبايعه ، ثم نازعه فى الأمر ، وطلب الخـلافة لنفسه ، وكان للنزاع بينهما صدى حربى وأدبى فى مصر ، أشرنا إلى جزء منه فى حديثنا عن الخطابة[٢] . واستعان كل منهما ومن أنصارهما بالبيان وسحره ، وأثر لنا من ذلك العهد رسائل صدرت عن مصر أو وردت إليها ، صـارت جزءاً من تاريخها ، وسجلا من سجلات أحداثها . تمتاز بقوة بواعثها ، وحرارة النزاع فيها ، وثورة العواطف فى سطورها ، وغليان النفوس فى عباراتها ، وحرية القول فى ثناياها ؛ طعناً أو تهديداً ، أو دفاعاً ، أو ثناء ، أو إغراء ، أو غير ذلك مما اشتملت عليه هذه الرسائل .

ومنها رسالة من سيدنا على بعث بها إلى أهل مصر[٣] مع قيس بن سعد بن عبادة ، يقدمه إليهم لما ولاه عليهم . فخرج قيس فى سبعة نفر من أصحابه حتى دخل

---

(١) حسن المحاضرة ١ : ٦٤ ، خطط المقريزى ١ : ٨٧

(٢) ص ٢٨ من هذا الـكتاب .

(٣) أشير إلى هذه الرسالة فى ص ٢٨ من هذا الـكتاب أيضاً .

مصر ، فصعد المنبر فجلس عليه ، وأمر بكتاب معه من أمير المؤمنين ، فقرىء على أهل مصر ، وفيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله على أمير المؤمنين ، إلى من بلغه كتابى هذا من المؤمنين والمسلمين :

سلام عليكم ، فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإن الله عز وجل ، بحسن صنيعه وتقديره وتدبيره ، اختار الإسلام ديناً لنفسه وملائكته ورسله ، وبعث به الرسل عليهم السلام ، إلى عباده ، وخص به من انتخب من خلقه ، فكان مما أكرم الله عز وجل به هذه الأمة ، وخصهم به من الفضيلة ، أن بعث إليهم محمداً صلى الله عليه وسلم ، فعلمهم الكتاب والحكمة ، والفرائض والسنة ، لكى ما يهتدوا ، وجمعهم لكيلا يتفرقوا ، وزكاهم لكى ما يتطهروا ...

فلما قضى من ذلك ما عليه ، قبضه الله عز وجل ، صلوات الله عليه ورحمته وبركاته ، ثم إن المسلمين استخلفوا به أميرين صالحين ، عَمِلا بالكتاب والسنة . وأحسنا السيرة ، ولم يَعْدُوَا السنة ، ثم توفاهما الله عز وجل ، رضى الله عنهما . ثم وَلِيَ بعدهما والٍ ، فأحدث أحداثاً فوَجدت الأمة عليه مقالا فقالوا . ثم نَقَمُوا عليه فغيروا ، ثم جاءونى فبايعونى ، فأستهْدِى الله عز وجل بالهدى ، وأستعينه على التقوى ؛ ألا وإن لكم علينا العملَ بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والقيامَ عليكم بحقه ، والتنفيذَ لسنته ، والنصحَ لكم بالغيب ، والله المستعان ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » .

«وقد بعثت إليكم « قيس بن سعد بن عبادة » أميراً ، فوازروه ، وكاتفوه ، وأعينوه على الحق ، وقد أمرته بالإحسان إلى محسنكم ، والشدة على مريبكم ، والرفق بعوامكم وخواصكم . وهو ممن أرضى هديَه ، وأرجو صلاحه ونصيحته .

(١) تاريخ الإسلام للنجار ص ٤٢٤ .

أسأل الله عز وجل لنا ولكم عملا زاكيا ، وثواباً جزيلا ، ورحمة واسعة ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

« وكتبه « عبيد الله بن أبى رافع » فى صفر سنة ٣٦ » .

وكتب معاوية إلى مسلمة بن مخلد الأنصارى ، ومعاوية بن حُديج الكندى . وكانا قد خالفا علياً (١) :

« أما بعد . فإن الله قد بعثكما لأمر عظيم ، أعظمَ به أجركما . ورفع به ذكركما، وزينكما به فى المسلمين ؛ طلبكما بدم الخليفة المظلوم ، وغضبكما لله إذ تُرِكَ حكم الكتاب . وجاهدتما أهل البغى والعدوان ، فأبشرا برضوان الله ، وعاجل نصر أولياء الله ، والمؤاساة لكما فى الدنيا وسلطاننا ، حتى ينتهى فى ذلك ما يرضيكما ، ونؤدى به حقكما إلى مايصير أمركما إليه ، فاصبرا وصابرا عدوكما ، وادعوا المدبر إلى هداكما وحفظكما ، فكأن الجيش قد أطل عليكما فانقشع كل ما تكرهان . وكان كل ما تهويان . والسلام عليكما ورحمة الله » .

فلما جاء الكتاب رد إليه مسلمة عن نفسه وعن معاوية بن حديج .

« أما بعد ، فإن هذا الأمر الذى بذلنا له أنفسنا ، واتبعنا أمر الله فيه ، أمرٌ نرجو به ثواب ربنا ، والنصرَ ممن خالفنا ، وتعجيلَ النقمة لمن سعى على إمامنا . وطأطأ الركض فى جهادنا ، ونحن بهذا الحيز من الأرض قد نفينْا من كان به من أهل البغى ، وأنهضنا من كان به من أهل القسط والعدل . وقد ذكرت المؤاساة فى سلطانك ودنياك ، وبالله ما ذلك الأمر الذى له نهضنا ، ولا إياه أردنا ، فإن يجمع الله لنا ما نطلب ، ويؤتنا ما تمنينا ، فإن الدنيا والآخرة لله رب العالمين ، وقد يؤتيهما الله جميعاً عالماً من خلقه ، كما قال فى كتابه ، ولا خلف لموعوده : « فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين » . عَجِّلْ علينا خيلك

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٧٥ .

ورَجْلك، فإن عدونا قد كان حرباً علينا، وكنا فيهم قليلا، فقد أصبحوا لنا هائبين وأصبحنا لهم مُقْرِنين(١) فإن يؤتنا الله بمدد من قبلك يفتح الله عليكم؛ ولاحول ولا قوة إلا بالله، وحسبنا الله ونعم الوكيل، والسلام عليك».

وكان من نتيجة هذا الخطاب أن أمر معاوية عمراً بالتجهز والخروج، فخرج فى جيش، مزوداً بنصيحة من معاوية. فلما نزل مصر كتب إلى محمد بن أبى بكر:

«أما بعد. فتَنَحَّ عنى بدمك يا بن أبى بكر، فإنى لا أحب أن يصيبك منى ظَفَر. إن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك، ورفض أمرك، وندموا على اتباعك، وهم مسلموك لو قد التقت حلقتا البِطان. فاخرج منها فإنى لك من الناصحين(٢)».

وأرسل معه بكتاب من معاوية إليه. «صورته»:

«أما بعد، فإن غِبَّ البغى والظلم عظيم الوبال، وإن سَفْكَ الدم الحرام لا يسلم صاحبه من النقمة فى الدنيا، ومن التبعة الموبقة فى الآخرة، وإنا لا نعلم أحداً كان أعظم على عثمان بغياً، ولا أسوأ له عيباً، ولا أشد عليه خلافاً منك: سعيت عليه فى الساعين. وسفكت دمه فى السافكين ثم أنت تظن أنى عنك نائم أو ناسٍ لك، حتى تأتى فتأمر على بلاد أنت فيها جارى، وجُلُّ أهلها أنصارى، يَرَوْنَ رأيى، ويرقُبُون قولى، ويستصرخوننى عليك! وقد بعثت إليك قوماً حِناقاً عليك، يستسقون دَمَك، ويتقربون إلى الله بجهادك، وقد أعطوا الله عهداً ليُمَثِّلُنَّ بك، ولو لم يكن منهم إليك سوى قتلك ما حذرتك ولا أنذرتك، ولأحببت أن يقتلوك بظلمك وقطيعتك، وعَدْوِك على عثمان. يوم طُعِن بمشاقصك بين خُشَشائه وأوداجه، ولكن أكره أن يُمَثَّل بقرشى ولن يُسْلِمك الله من

---

(١) مطيقين. من «أقرن الشىء» أى: أطاقة.

(٢) ج ١ النجوم الزاهرة ص ١٠٩.

القصاص أبداً أينما كنت ، والسلام[١] » .

وأخبر محمد سيدنا علياً الخبر وطب منه المدد ، ورد عليه سيدنا على يهون أمر هذه الحملة ، وأن يجيب على رسالتيهما . فكتب إلى معاوية :

« أما بعد . فقد أتانى كتابك . تذكرنى من أمر عثمان أمرا لا أعتذر إليك منه ، وتأمرنى التنحى عنك كأنك لى ناصح ، وتخوفنى المُثْلة ، كأنك شفيق ، وأنا أرجو أن تكون لى الدائرة عليكم فأجتاحكم فى الوقعة . وإن تُؤْتَوُا النصر ، ويكن لكم الأمر فى الدنيا ، فكم لَعَمْرى من ظالم قد نصرتم ، وكم من مؤمن قد قتلتم ومثَّلتم به . وإلى الله مصيركم ومصيرهم ، وإلى الله مَرَدُّ الأمور . وهو أرحم الراحمين . وهو المستعان على ما تصفون » .

وكتب إلى عمرو بن العاص :

« زعمت أنك تكره أن يصيبنى منك ظفر ، وأشهد أنك من المبطلين ، وتزعم أنك لى نصيح ، وأقسم أنك عندى ظنين ، وتزعم أن أهل البلد قد رفضوا رأيى وأمرى ، وندموا على اتباعى ، فأولئك لك وللشيطان الرجيم أولياء[٢] » .

لقد كانت رسالة معاوية إلى ابن حديج ومسلمه كما ترى ، رسالة مدح وثناء ، وإطماع وإغراء ، ووعد معسول بالمشاركة فى سلطانه إذا كانت له الغلبة والعاقبة .

وكان رد مسلمة عن نفسه وعن صاحبه رد المؤمن بعقيدته ، الغاضب لقتل خليفته ، المعرض عن دنيا معاوية ووعوده ، على أنه لقى جزاءه الموفور لما آلت البلاد إلى معاوية ، فحكمها له ، ولابنه يزيد من بعده ، خمسة عشر عاما (من سنة ٤٧ إلى سنة ٦٢ هـ) .

(١) المشقص سهم فيه نصل عريض . الأصل خششاء ويسكن ويدغم فيصبح خشاء بضم الأول وهو : العظم الناتئ خلف الأذن ، والأوداج جمع ودج وهو عرق الأخدع الذى يقطعه الذابح فلا يبقى معه حياة ، وقيل هو كل عرق إذا قطع مات صاحبه ، وله أسماء : فهو الوريد فى العنق ، والودج أيضا ، والنياط فى الظهر والابهر فى الصلب وهو متصل بالقلب الخ .

(٢) تاريخ الخلفاء الراشدين للنجار ص ٤٦٣ .

وكانت رسالة معاوية وعمرو إلى محمد بن أبي بكر طعناً وتخذيلا ، ووعيداً وتهديداً ودعوة إلى الاستسلام قبل أن ينزل به أشد الانتقام .

وكان رد ابن أبي بكر عليهما رداً تملؤه الحماسة ، والإصرار على ما فعل ، والإدراك الصحيح لما يرمى إليه خصماه ، وفيه تهكم واتهام لمعاوية وعمرو فيما أبدياه من إشفاق عليه ، وما بذلاه من نصيحة له .

وترى فى هذه الرسائل صورة واضحة من رسائل العهد الأول ، طابعها الإيجاز ورنين العبارات ، والاستعانة بآيات الله لتكسبها قوة وزينة ، والمحافظة على الكلمات والعبارات التى كانت تبتدئ بها الرسائل وتنتهى .

وهذا الأسلوب الخطابى الذى يسيطر عليها جميعها أسلوب فرضته موضوعاتها ومناسباتها ، فاستعان كتابها بكل ما يؤثر فى القارئ من قوة البيان ، والمهارة فى إبداء الحجة ، واللباقة فى عرض وجهة النظر والدفاع عنها ، واتهام الخصم وإيعاده وتهديده .

وهى — على إيجازها — تشمل كثيراً من المعانى التى جاشت بها نفوس كاتبيها ، وعليها سيما منشئيها ، وانظر إلى معاوية فى رسالتيه تجده السياسى الماهر الذى يزين لمسلمة أفعاله ، ويستزيده منها ، ويغريه بالسلطان لاستمرار الثورة . وهو مع ابن أبى بكر شديد مخيف يرى أنه لابد من السيف ، ولكنه يخلع قلبه قبل اللقاء . فيذكر له قوة من معه ، وحرصهم على دمه ، ورغبتهم فى التمثيل به ، ويبدى له من النصيحة والإشفاق بعد ذلك ما يطمعه فى عفوه ، ولكن خاب ظنه فى ابن أبى بكر الذى أصر على الحرب وثبت . فدارت عليه الدائرة ، ولله عاقبة الأمور .

ب — فى عهد بنى أمية :

لم تخرج الكتابة فى عهد الأمويين عما رسم لها من قبل من حيث البدء والنهاية والإيجاز وقوة البيان ، وكان يغلب عليها السياسة فهى كتب مبايعات أو أمان

أو أوامر بزيادة فى أعطيات الجنـد أو فى شأن الخراج أو ما أشبه ذلك من أمور الدولة . وقل أن تجد فيها رسالة إخوانية أو أن تـكون دائرة حول شئون خاصة بين اثنين .

وكان زمامها بيد الولاة والعمال ، فإنا نجد مسلمة بن مخلد يكتب إلى عابس بن سعيد واليه على الشرط أن يأخذ البيعة ليزيد[١] ، ونجد مروان بن الحـكم يكتب أمانا إلى أهل مصر بيده ، يؤمنهم على جميع ما أحدثوه[٢] .

وكانت ولاية العهد عيباً من عيوب بنى أمية ، إذ كان الخليفة يعهد بالأمر بعده إلى أكثر من واحد ، فإذا مات حدث بينهم من النزاع والـكراهة شىء كثير. وأول من عهد إلى اثنين مروان بن الحـكم ، عهد بها إلى ابنيه عبد الملك ، ثم عبد العزيز ، فلما شب الوليد بن عبد الملك ، رأى أبوه أن يجعل الأمر له ويخلع عبد العزيز ، وكتب فى ذلك إلى أخيه يقول :

« يا أخى إن رأيت أن تُصَيِّر الأمر لابن أخيك ، الوليد ، فافعل » . فأبى عبد العزيز فـكتب إليه عبد الملك ثانية . « فاجعله من بعدك فإنه أعز الخلق إلى »

فـكتب إليـه عبد العزيز : « إنى أرى فى أبى بكر بن عبد العزيز ما تراه فى الوليد[٣] » .

وفى رواية الـكندى[٤] أنه كان فى كتاب عبد العزيز إلى عبد الملك : « إنك لو رأيت الأصبغ لسرك ، ولم تقدم عليه أحداً » .

فـكتب إليه عبد الملك ثالثة : « فاحمل خراج مصر إلى » . وكأنه يحرجه .

فـكتب إليه عبد العزيز : « إني وإياك قد بلغنا سناً لم يبلغها أحد من أهلنا ، وإنا لا ندرى أينا يأتيه الموت أولا ، فإن رأيت ألا تُغَـثِّثَ علىَّ بقية عمرى ، ولا

---

(١) الولاة والقضاء ص ٣٩ (٢) الولاة والقضاء ص ٤٥

(٣) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٧٣ (٤) ص ٥٤

يأتيني الموت إلا وأنت واصل ، فافعل » .

فرق له عبد الملك وقال : لا أغشث عليه بقية عمره . ومات عبد العزيز قبله وانتقلت الخلافة الى الوليد .

نقل الديوان إلى العربية :

ومن المسائل التى يعرض لها تاريخ الأدب لماما نقل الدواوين فى مصر إلى اللغة العربية — والمقصود بها دواوين الخراج طبعاً ، فإن ديوان الإنشاء لم يكن موجوداً ، ولو كان موجوداً ما كان إلا بالعربية — والشائع أن نقل الديوان كان فى عهد عبد الله بن عبد الملك ، وبأمر منه ، سنة ٨٦ هـ(١) .

أما الأصل الذى نقلت عنه فهو القبطية عند مؤرخى العرب . ولما أمر عبد الله بنسخها بالعربية صرف أشناس عنها ، وجعل عليها ابن يربوع الفزارى من أهل حمص .

ويرى بعض الباحثين أن هذه الدواوين كانت باليونانية ، وحجتهم فى ذلك أن البلاد كانت تابعة للدولة الرومانية الشرقية زمناً طويلا ، وكانت اللغة اليونانية لغة رسمية فى كل بلاد الدولة ، ومنها مصر والشام . فلما جاء العرب لم يغيروا شيئاً من طرق الروم فى تدوين دواوينهم وجمع ضرائبهم . ويستدل القائلون بهذا الرأى بدليل آخر ، هو أن أوراق البردى العربية التى اكتشفت حديثاً ، وترجع إلى عهد الوليد بن عبد الملك ، كتبت باليونانية والعربية .

وليس فى هذا الاحتجاج من القوة ما يهدم قول المؤرخين العرب . وذلك لأن اليونانية التى بقيت فى دواوين الشام حتى ترجم عنها العرب ، لم تكن لها لغة تنافسها فى تلك البلاد ، ولا مذهب دينى يخالف مذهب الدولة الحاكمة ، لقى

---

(١) الولاة والقضاء ص ٥٩ . وفى صبح الأعشى ج ١ س ٤٤٢ أن ذلك كان فى عهد عبد العزيز بن مروان .

أهله كل ذل وهوان واضطهاد ، وتعذيب من هذه الدولة . واللغة القبطية كانت لغة قوية ، لها وجودها وأدبها وفلسفتها . . الخ . والذين كانوا يلون أمر الدواوين فى مصر من الروم قد هجروا البلاد إلا قليلا منهم . يقول بتلر[١] : « على أنه لا بد قد خلت أعمال كثيرة ، إذ نزح عمالها الروم الذين لم يرضوا أن يكونوا من رعية الإسلام ، فجعل العرب فى مكانهم عمالا من القبط فما مر إلا قليل زمن حتى صار عمال الدولة يكادون يكونون جميعاً من المسيحيين » .

وهناك طريقة كانت تتبع فى جباية الخراج . وهى أن زعماء الناس فى القرى كان عليهم أن يجتمعوا لينظروا فى حال الزراعة ، ويجعلوا جباية المال مناسبة لذلك ، فكانوا بمثابة لجنة خاصة تجتمع لتقدير مقدار ما يجبى من الأموال ، فإذا اجتمع من ذلك المال شئ فوق ما فرض على قريتهم أنفق فى إصلاح أحوالها . وكانت تجعل فى كل بلد قطعة من الأرض يخصص رَيْعها لإصلاح الأبنية العامة وصيانتها . . . وكذلك كانوا يقدرون ما يفرض على الناس من المال لضيافة العرب وكان هذا حقاً من حقوق العرب عليهم ، وكذلك ما كان يفرض من المال لضيافة الحاكم وإكرامه إذا وفد عليهم[٢] .

فأين كانت تلك الدواوين المكتوبة باليونانية فى عهد عبد الله بن عبد الملك ؟ أما القرى فهذه طريقة تقدير الضرائب فيها . فإذا سجلوا ما قدروه كان تسجيلهم بالقبطية ، وإذا قيل إن العرب كانوا يحتفظون بسجلات يونانية لتدوين الخراج ، ومعرفة ما يجبى ومواعيده وشبه ذلك ؛ وإن القائمين بشأنها كانوا من الروم ، فهو قول يضعفه تخلى الروم عن الأعمال وانتقالها إلى أيدى القبط .

---

(١) فتح العرب لمصر ص ٣٩١

(٢) فتح العرب لمصر ص ٣٩٢ ، حسن المحاضرة للسيوطى ج ١ ص ٦٣ المطبعة الشرقية نقلا عن ابن عبد الحكم .

وما عثر عليه من أوراق البردى فى عهد الوليد بن عبد الملك ليس كتابة دواوين ، وفى الورقة الأولى والثانية من مجموعة جروهمان[1] كلمات دينية معدودة ، باليونانية والعربية . وفى أسفل الورقة الأولى ، أو الطراز الأول كما يسميه ، نص قبطى من عشرة أسطر ، وفى أسفل الطراز الثانى ثمانية أسطر قبطية ، فليس فى هاتين الورقتين من عهد الوليد ما يؤكد أن الدواوين كانت باليونانية . وإذا كانت هذه اللغة رسمية فى عهد الرومان فقد زالت عنها هذه الصفة فى عهد العرب . وربما جاء هذا اللبس من تشابه اللغتين ، فإن القبطية كانت تكتب بحروف يونانية ، وكان فيها كثير من الكلمات اليونانية . أما نظام الدواوين فكان يونانيا ، ولا مانع أن يبقى كذلك حتى بعد كتابتها بالعربية .

وبعد فإن ترجمة العرب لهذه الدواوين كان ضرورة لتقدمهم ورغبتهم فى أن يلوا أمر البلاد بأنفسهم . وكثرت المصطلحات عندهم فى أبحاث الفقهاء، فلم يكن عسيراً عليهم أن ينقلوا الدواوين هنا وفى العراق والشام . ثم مرنوا على هذه الأعمال فاستغنوا فى شئونهم المالية عن أن يديرها لهم دخيل .

ومن الرسائل الأدبية رسالة من عبد الله بن عبد الملك ، إلى موسى بن نصير والى المغرب ، لما تخطاه وكتب إلى أبيه عبد الملك فى دمشق ، فكتب إليه عبد الله يهدده :

« أما بعد . فإنك كنتَ من عبد العزيز وبِشْرٍ بين مهادين تعلو عن الحضيض مُهودها ، ويدفِئك دِثارُهما ، حتى عَفا مخبرك ، وسمَتْ بِك نفسُك . . . وَايمُ اللهِ لَأَضعَنَّ منك ما رَفعا ، ولأُقِلنَّ منك ما كَثَّرا ، فضَحِّ رُوَيْدا فكأنْ قدأصبحت سادِما ، تعَضُّ أنامِلك نادماً ، والسلام[2] » .

---

(١) ١١ ، ١٣ (٢) الولاة والقضاء ص ٦٠

وكان جواب موسى بن نصير عليه[1] :

« أما بعد . فقد قرأت كتابك ، وفهمتُ ما وصفتَ فيه ، من إركانى إلى أبويك وعمك[2] ، ولعَمْرى إن كنتُ لِذلك أهلا . ولو خبرتَ منى ما خَبرا لما صَغَّرت منى ما عَظما ، ولا جهلت من أمرنا ما عَلما . . فأما انتقاصك لهما ، فهما لك وأنت منهما ؛ ولهما منك ناصر ، لو قال وجد عليك مقالا ، وكفاك جزاءَ العَاقِّ .

فأما ما نلتَ من عِرضى فذلك موهوب لحق أمير المؤمنين لا لك ، وأما تهدُّدُك إياى بأنك واضعٌ منى ما رفعا ، فليس ذلك بيدك ولا إليك ، فأَرْعِدْ وأَبْرِقْ لغيرى ، وأما ما ذكرتَ مما كنتُ آتى به عمَّك عبد العزيز فلعمرى إنى مما نسبتنى إليه من الكهانة لَبعيد ، وإنى من غيرها من العلم لقريب ، فعلى رِسْلك[3] فكأنك قد أظلك البدر الطالع ، والسيف القاطع ، والشهاب الساطع ، فقد تم لها[4] وتمت له . ثم بعث إليك الأعرابى الجلف الجافىَ فلم تشعر به حتى يحل بعَقْوتك[5] فيسلبك سلطانك ، فلا يعود إليك ، ولا تعود إليه ، فيومئذ تعلم أكاهن أم عالم ، وتوقن أينا النادم السادم ، والسلام » .

فلما قرأ عبد الله جواب موسى بن نصير كتب إلى عبد الملك كتاباً وأدرج فيه رد موسى عليه ، ولكن عبد الملك مات قبل أن يتلقى الكتاب ، ووقع فى يد الوليد بعد أن عزل عبد الله عن مصر ، فلما قرأه استضحك وقال : لله دَرُّه ! إن كان عنده لأُثْرَة من علم ، ولقد كان عبد الله غنياً أن يتعرضه .

---

(١) الولاة والقضاء س ٦١

(٢) لعل الأصل « إلى أبيك » ليستقيم مرجع الضمائر فيما يأتى .

(٣) الرسل بكسر الراء : الرفق والتؤدة والمعنى ترفق وتمهل .

(٤) الخلافة .

(٥) العقوة والعقاة بفتح العين : ما حول الدار والمحلة ، والمراد ينزل بساحتك .

ويذكرنا هذا بما جرى بعد ذلك بين سليمان بن عبد الملك وهو ولى عهد الوليد ، وبين الحجاج بن يوسف زمن ولايته على العراق ، وإن كانت الرسائل بينهما أشد وأعنف[١] .

وكانت الرسائل تترى بين دار الخلافة والفسطاط ، وأكثرها كتب رسمية فى شئون الدولة . ومن هذه الكتب كتاب من الوليد[٢] إلى قرة بن شريك يأمره بالزيادة فى المسجد الجامع سنة ٩٢ هـ . وكتاب من عمر بن عبد العزيز إلى أيوب بن شرحبيل بالزيادة فى أعطيات الناس عامة[٣] . ومنها كتابه إلى شريح فى وضع الجزية عمن[٤] أسلم . وكتاب يزيد بن عبد الملك بمنع هذه الزيادة لما ولى الخلافة.

وقد كتب الحر بن يوسف والى هشام بمصر يعلمه « أن النيل قد انكشف عن أرض ليست لمسلم ولا لمعاهد ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن بالبناء فيها فإن الناس مضطرون إليها[٥] »

فأذن له فى بنائها .

ومنها كتاب عبيد الله بن الحبحاب إلى هشام كى يسمح له بإنزال قيس فى جهة بلبيس[٦] .

وكثير مثل ذلك حتى تنتهي دولة الأمويين .

(حـ) فى عهد العباسيين .

واستمرت الرسائل فى عهد العباسيين فى المسائل العامة كذلك . وكثرت فيها كتب الأمان والتحذير والإشخاص والتهديد ، وكانت تكثر فى أيام الثورات والفتن .

---

(١) سيف بنى مروان للمؤلف ص ١١٠ — ١١٣
(٢) الولاة والقضاة ص ٦٥ (٣) الولاة والقضاة ص ٦٨
(٤) هذا الكتاب ص ٧ (٥) شرحه ص ٥١
(٦) هذا الكتاب ص ٩

وفى هذه الرسائل وأمثالها مجال واسع للعواطف الثائرة ، والانفعالات القوية ، والبلاغة المؤثرة ، والاحتجاج بالدين والعقل ، وإيراد الشواهد والأمثال ، من القرآن الكريم والحديث ومأثور كلام العرب . ويغلب على هذه الرسائل الطول إذا قورنت بما كان عليه الحال فى العهد السابق .

أما أسلوب الكتابة العلمية فلم يكن واضح الحدود فى أول عهد العباسيين ، إذ أن المصطلحات العلمية كانت فى دور التكوين ، وأساليب التأليف كانت ما تزال وليدة ، فكان للعلماء تصرف فى القول ، وحرية فى الطريقة ، وكانت الرسائل العلمية أدبية الأسلوب .

ومن أول هذه الرسائل العلمية التى تتسم بسمة الأدب الرفيع ، والأسلوب الجميل ، والعفة فى الجدل ، والقوة فى البرهان ، وتدل على علم غزير ، واطلاع واسع ، ومعرفة عظيمة بمسائل الدين وآراء السابقين فيها ؛ تلك الرسالة التى « كتبها سيد فقهاء عصره ، بل سيد فقهاء الأمصار علما ونبلا ، وهو الليث بن سعد فقيه مصر ، إلى أخيه مالك بن أنس يبين له ما يؤخذ عليه فى مذهبه من جهة الاعتماد على عمل أهل المدينة ، وهذه الرسالة جواب عن كتاب كتبه إليه مالك[1] » .

والرسالة نفسها تشير إلى المكاتبات بينهما فى مسائل الفقه ، وقد بدأها الإمام الليث على طريقة القرن الأول ، من السلام والحمد لله وأما بعد ؛ أما الدعاء

(١) تاريخ التشريع الإسلامى ص ١١٦ وقد نقلت الرسالة بتمامها هناك ، وأصلها فى إعلام الموقعين لابن قيم الجوزية (ج ٣ ص ٨٢ وما بعدها) ، ولم أقف على تاريخ إنشائها لكن مالكا مات سنة ١٧٩ ، والليث سنة ١٧٥ ، فكأنها كتبت حوالى منتصف القرن الثانى

للمرسل إليه بالعافية وحسن العقبى فطريقة من طرق العباسيين .

قال الإمام الليث رحمه الله :

« سلام عليك ، فإنى أحمَـدُ الله إليك ، الذى لا إله إلا هو . أما بعد عافانا الله وإياك ، وأحسن لنا العاقبة فى الدنيا والآخرة .

« قد بلغنى كتابك تذكر فيه من صلاح حالكم الذى يسرنى ، فأدام الله ذلك لكم وأتمَّه ، بالعون على شكره والزيادة من إحسانه . وذكرتَ نظرك فى الكتب التى بعثتُ بها إليك ، وإقامتك إياها ، وخَتْمك عليها بخاتَمِك . وقد أتتنا ، فجزاك الله عما قدمت منها خيرا ؛ فإنها كُتُبٌ انتهت إلينا عنك ، فأحببت أن أبلغَ حقيقتها بنظرك فيها » .

ثم يقول له مشيراً إلى محور الرسالة ، وهو الاعتماد على عمل أهل المدينة .

وذكرت « أنه بلغك أني أُفْتِي الناسَ بأشياءَ مخالفةٍ لما عليه جماعةُ الناس عندكم ، وأنى يحق علىَّ الخوف على نفسى لاعتماد من قِبَلى على ما أفتيتُهم به ، وأن الناس تَبَعٌ لأهل المدينة التى إليها كانت الهجرة ، وبها نزل القرآن . وقد أصبتَ بالذى كتبتَ به من ذلك إن شاء الله تعالى ، ووقع منى بالموقع الذى تُحب . وما أجد أحداً يُنْسَبُ إليه العلم ، أكرَهَ لشَوَاذِّ الفُتْيَا ، وأشدَّ تفضيلا لعلماء أهل المدينة الذين مَضَوْا ، ولا آخَذَ لِفُتْيَاهُمْ فيما اتفقوا عليه ، منِّى . والحمد لله رب العالمين الذى لا شريك له » .

ثم يجادل صاحبه بالتى هى أحسن ؛ ويأتى بأمثلة ظاهرة ، وأدلة متظاهرة ، وحجج متواترة ، تؤيد رأيه .

ويختم الرسالة ختاماً أدبياً عفيفاً ، فيه صادق المودة ، وشريف العواطف ، وكريم الصلات ، وصالح الدعوات ، فيقول :

« وأنا أحب توفيقَ الله إياك ، وطولَ بقائك ؛ لما أرجو للناس فى ذلك

من المنفعة ، وما أخافُ من الضَّيْعَةِ إذا ذهبَ مِثْلُك ، مع استئناسى بمكانِك وإن نَأتِ الدار ، فهذه منزلتُك عندى ، ورأيى فيك ، فاستيْقِنْه . ولا تَتْرك الكتابَ إلى بخبرك وحالِك ، وحالِ ولدك وأهلك ، وحاجةٍ إن كانت لك أو لأحد يوصل إليك ، فإنى أُسَرُّ بذلك » .

« كتبت إليك ونحن صالحون مُعَافَوْن والحمد لله . نسأل الله أن يرزقنا وإياكم شكرَ ما أولانا ، وتمامَ ما أنعمَ به علينا ، والسلام عليك ورحمة الله » .

ومن الكتب التى تركت آثاراً قوية فى حياة العرب ولغتهم فى مصر تلك الرسالة التى كتبها المعتصم إلى واليه على مصر ، نصر بن عبد الله ، الملقب « كَيْدُر » . وقد أمره فيها بإسقاط من فى الديوان من العرب ، وقطع أعطياتهم سنة ٢١٨ هـ(١) . وكان ذلك سبباً فى خروج يحيى بن الوزير الجروى فى جمع من لخم وجذام ، وترتب على قطع أعطياتهم ، وإسقاطهم من الديوان أن اضطروا إلى مخالطة أهل البلاد ، ومصاهرتهم ، والاشتغال بمثل أعمالهم ، وأصبحوا ينظرون إلى البلاد على أنها دار إقامة لهم . فأدى ذلك إلى انتشار لغتهم ، ثم سيادتها .

وفى القرن الثالث الهجرى ظهر القول بأن القرآن مخلوق ، وأثار المأمون فتنة بين الناس من أجل هذا القول ، وحملهم عليه حملا ، وكتب منشوراً عاماً بامتحان الفقهاء والعلماء ليرى رأيهم فيه ، ويرغم من خالف . وكتب أخوه أبو إسحق « المعتصم » إلى كيدر ، واليه على مصر ، أن يأخذ الناس بالمحنة ويختبر عقيدتهم فى القرآن(٢) .

وكان كتاب أبى إسحق :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من أبى إسحق بن أمير المؤمنين الرشيد ، أخى

(١) الولاة والقضاة ص ١٩٣
(٢) الولاة والقضاة ص ٤٤٥

أمير المؤمنين ، إلى نصر بن عبد الله ، كيدر ، مولى أمير المؤمنين .

سلام عليك . فإني أحمد إليك الله الذى لا اله إلا هو ، وأسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله ، صلى الله عليه وسلم .

أما بعد . فإن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، كتب إلى ، فيما أمرنى به من الكتاب إلى قضاة عملى ، فى امتحان من حضرهم للشهادات ، فمن أقر منهم بأن القرآن مخلوق ، وكان عدلا ، قبلوا شهادته ، ومن دفع ذلك أسقطوا شهادته ، ولم يرفعوا حكما بقوله ؛ وامتحانِ أولئك القضاة بهذه المحنة ، فمن نفَى منهم التشبيه ، وقال إن القرآن مخلوق ، أقره بموضعه ؛ ومن دفع أن يكون القرآن مخلوقا أمرْته باعتزال الحكم ؛ وأن لا يُعانَ بمثل ذلك ، فى جميع أهل الحديث هنالك ، ومن يُسمَع منه ، أو يختلَف إليه بسبب الفقه ؛ وترك الإذن لأحد منهم فى حديث أو فتوى إلا على انتحال هذه النِّحلة ، والقول بمثل هذه المقالة ؛ والبلوغ فى كرامة من يعتقد ذلك ومراعاته ، مبلغَ المحتسب للخير ؛ والكتاب إليه أكرمه الله بما يكون منك . وقد رأيتُ أن تمتحن القاضى هناك بالمحنة التى كتب بها أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، ليعرف مذهبه وما عنده بأن القرآن مخلوق ، وتركِ التشبيه والشك فيه ، فقدمت إليه فى امتحان من يحضره للشهادات بهذه المحنة ، ومن أقر منهم وكان عدلا قبلت شهادته ، ومن دفع ذلك وامتنع منه أسقطت شهادته ، وإن أنكر القاضى أن يكون القرآن مخلوقا أمرته باعتزال الحكومة ، وأوعزت بمثل ذلك إلى أهل الحديث ومن يسمع منه أو يختلف إليه ، لسبب الفقه ، وكتبت إلى القاضى قبلك بمثل الذى كتبت إليك . فاعلم ذلك ، واعمل بما مثل به أمير المؤمنين منه ، وانته إليه ، وابلغ من القيام به على حسب ما يلزمك ويجب عليك ، وأحضر ما تعمل به عنده من وجوه أهل عملك وصلحائهم ، واكتب إلى بما يكون

---

(١) الولاة والقضاء ص ٤٤٥

من القاضى فى ذلك ، ومنك ، على حقه وصدقه ، لأنهيه إلى أمير المؤمنين إن شاء الله ، والسلام عليك ورحمة وبركاته » .

وورد كتاب المعتصم على هرون بن عبد الله بحمل الفقهاء فى المحنة ، فاستعفى هرون من ذلك ، فكتب ابن أبى دُوَاد إلى محمد بن أبى الليث يأمره بالقيام فى المحنة ، وذلك قبل ولايته القضاء ، وكان رأساً فى القيام بذلك ، فحمل نعيم بن حماد ، والبويطى ، وخشنام المحدث فى جمع كثير سواهم(١) .

واشتدت المحنة فى أيام الواثق (سنة ٢٢٧ — ٢٣٢) وأمر أن يؤخذ الناس بها ، وكأنها نار أضرمت ، وورد كتابه على محمد بن الليث بامتحان الناس ، فلم يبق أحد من فقيه ولا محدث ولا مؤذن ولا معلم حتى أخذ بالمحنة ، فهرب كثير من الناس ، وملئت السجون ممن أنكر المحنة ، وأمر ابن أبى الليث بالاكتتاب على المساجد : لا إله إلا الله رب القرآن المخلوق . فكتب ذلك على المساجد بفسطاط مصر ، ومنع الفقهاء من أصحاب مالك والشافعى من الجلوس فى المسجد ، وأمرهم ألا يقربوه(٢) .

واستمر البلاء حتى ولى المتوكل الخلافة ، فكتب إلى الوالى هرثمة بن النضر يأمره بترك الجدل فى القرآن سنة ٢٣٤ ، وعزل ابن أبى الليث ، وورد كتاب المتوكل بلعنه على المنبر ، وحبس وأهين وحلق رأسه ولحيته ، وطافوا به الفسطاط على حمار . ثم خرج من سجنه سنة ٢٤١ إلى العراق .

ولعل هذه الفتنة من أشد ما أثار الجدل بين المسلمين فى القرن الثالث وشغل

---

(١) الولاه والقضاة ص ٤٤٧ .

(٢) الولاة والقضاة ص ٤٥١

(٣) الولاة والقضاة ص ١٩٧

الأدب كتابة وجدلا وشعرا . ونحن نرى أن مصر قد شاركت فيه ، وشغل علماؤها به ، وأوذوا فى سبيله ؛ أما الجدل فى مسائل الحلال والحرام والفقه وأصوله وفروعه ، فكان قوياً جـداً بين الشافعية والحنفية والمالكية وكتبهم تشهد بذلك .

والحديث عن هذه المؤلفات وأساليبها ، وطرق رجالها فى البرهنة والشرح والتقرير له مكانته فى تاريخ الفقه والتشريع .

الفصل الخامس

كتابة الرسائل

— ٢ —

من ابن طولون إلى الفاطميين

رأينا فيما سبق أن الرسائل كانت ضعيفة فى مصر ، ولم يؤثر منها بعد زمن عمرو إلا النادر ، الذى أفلت ، فلحق بما بقى من رسائل الشام والعراق . ولم يكن مركز مصر فى الدولة الإسلامية ليهيىء لها ظهور الكتاب فيها ، أو إقبالهم عليها بسبب تبعيتها لدار الخلافة ، وانصراف الكتاب وغيرهم من أهل الأدب إلى حاضرة الدولة ، حيث العطاء الجزيل ، والمناصب الرفيعة ، والشهرة الواسعة ، والحظ الباسم لمن سعدوا بقرب الخلفاء والوزراء .

وما كان لهؤلاء الكتاب — فى عهد العباسيين خاصة — أن يتركوا بغداد حاضرة الدنيا ، ومعين الخير ، وجنة النعيم ؛ والتى لم تكن توزن بها حاضرة أخرى فى الدولة ، ولا برجالها رجال فى نواحى المملكة ، وكانت دواوين الإنشاء فيها موئل كل مجيد من الكتاب ، ومدرسة كل طامح من الناشئين .

ديوان الإنشاء :

فلما حاول ابن طولون الاستقلال عن بغداد رأى أن يجعل استقلاله كاملا : فكون جيشاً ، وبنى حاضرة ، واستخدم كتاباً ، وأنشأ ديواناً للانشاء .

ويقول المؤرخون إنه كان أول ديوان للانشاء[١] بمصر . وروى صبح الأعشى[٢] أنه كان لديوان الإنشاء بالديار المصرية خمس حالات — يعنينا منها الأولى والثانية — .

الحالة الأولى : ما كان الأمر عليه من حين الفتح وإلى بداية الدولة الطولونية ، ونواب الخلفاء تتوالى عليها واحداً بعد واحد ، فلم يكن لهم عناية بديوان الإنشاء ولا صرف همة إليه ، للاقتصار على المكاتبات لأبواب الخلافة ، والنزر اليسير من الولايات ، ونحو ذلك ؛ ولذلك لم يصدر عنهم ما يدون فى الكتب ، ولا يتناقل بالألسنة .

ويقول أيضا عن هذه المدة التى سبقت ابن طولون[٣] : إنه لم يكن لديوان الإنشاء بالديار المصرية فى هذه المدة صرف عناية ؛ تقاصراً عن التشبه بديوان الخلافة .

الحالة الثانية : ما كان الأمر عليه فى الدولة الطولونية من ابتداء ولاية أحمد ابن طولون واستفحال ملك الديار المصرية فى الإسلام ، وترتيب أمرها إلى انقراض الدولة الإخشيدية ، وفى خلال ذلك ترتب ديوان الإنشاء بها وانتظم أمر المكاتبات[٤] .

ويقول صبح الأعشى[٥] أيضاً إن ابن طولون أول من أخذ فى ترتيب الملك

---

(١) لعله كان فى ولاة مصر من تشبه بالخلافة فجعل لرسائله كتاباً ولكن ذلك كان نادراً : روى ابن النديم فى الفهرست ص ١١٣ أن جابر بن داود البلاذرى — جد المؤرخ — كان يكتب للخصيب بن عبد الحميد عامل الرشيد على مصر وممدوح أبى نواس . وفى خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٢٦ أنه كان للولاة كتاب ينشئون عنهم الرسائل إلى الخليفة وغيره .

(٢) ج ١ ص ٩٥ — (٣) ج ١١ ص ٢٨

(٤) ج ١ ص ٩٥ — (٥) ج ١١ ص ٢٩

وإقامة شعار السلطنة بالديار المصرية ؛ ولما شمخ سلطانه ، وارتفع بها شانه ، أخذ فى ترتيب ديوان الإنشاء لما يحتاج إليه فى المكاتبات والولايات .

فضل ابن طولون على الكتابة :

وكان لابن طولون فضل فى إقامة دعائم الكتابة لحاجته إليها فى حكم البلاد وكانت الضرورة تقضى فى أثناء ولايته الطويلة (٢٥٤ — ٢٧٠) أن يكون دائم المكاتبات ، لما كان يشغله من أمر الخلافة ، وأمر الثغور ، والبلاد التى كان يسيطر عليها ، وما كان يجد فى مصر من فتن وأحداث تستدعى الكاتب الماهر ذا الرأى السديد والقول النافذ . فاختار لكتابته قوماً عرفوا بالبلاغة كما عرف هو بالأدب وحسن التوجيه والإرشاد .

روى أنه أراد أن يكتب رسالة فاستدعى ابن عبدكان كاتبه وألقى إليه بالمعنى الذى يريده . قال ابن عبدكان فى حق هذه الرسالة : فوالله العظيم ما حضرنى لهذا الكتاب أحسن من معانى ألفاظه كلها ، فلم أتجاوزها . وأنفذ الكتاب واعمل به[1] .

وكان اختياره لابن عبدكان دليلا على حسن الاختيار ، قال صبح الأعشى فيه[2] : « فاستكتب ابن عبدكان فأقام منار ديوان الانشاء ورفع مقداره » .

وقد عرف عنه تدقيقه فى الرسائل التى تصدر عن ديوانه .

فلم يكن كتابه يختمون كتاباً ولا يحررون نسخة حتى يعرضوه عليه ، فإن استصابه أمضاه وإلا غيره .

---

(١) سيرة ابن طولون للبلوى ص ١١٠

(٢) ج ١١ ص ٢٩

ديوان التصفح :

وكان لما استكتب فى خرجته إلى الشام أبا الضحاك محبوب بن رجاء ، ولم يكن بالكامل ، إلا أنه كان حاضر الذهن حلو الألفاظ ، فعرض عليه يوماً كتاباً فلم يقل فيه شيئاً ، فأنفذه محبوب فسأل عنه أحمد بن طولون بعد أيام ، فقال له : قد أنفذته . فحرد عليه واغتاظ ، وقال له : ويلك ! حق الكتب أن تراجع فيها الأفكار ، وقد كان ينبغى أن تؤخر إنفاذه وتراجعنى فيه . فكانت كتبه بعد ذلك تؤخر لمراجعة النظر والتصفح بعد الإنشاء ، وجعل لها ديواناً سماه ديوان التصفح (١) .

وكان حريصاً على مراجعة الكتب والزيادة عليها بما يريد أن يُيسره عن كتابه . وحدث عنه ابن عبد كان فى ذلك قال : « كنا ننشئ الكتب إلى السلطان وغيره من أصحاب أعماله فيرد فى الأجوبة غير ما صدرت به الكتب إليهم ، فذكرت له ذلك لما كثر ، فضحك وقال : هذه أجوبة عن أشياء أضمنها أنا الكتب لا أطلعكم عليها (٢) » .

ومثل هذا الأديب المدقق يحمل كتابه على حسن الاختيار ، وتهذيب الكتابة والحرص فى التعبير ، وحمل النفس على الإجادة ، وسلامة التفكير ؛ لينالوا ثقته ويسلموا من أذاه .

تفضيله المصريين فى الكتابة :

وكان له رأى سديد فى تفضيل المصريين على العراقيين . فإنه كان — مع إيمانه بتفوق العراقيين فى الكتابة — يفضل استخدام كتاب مصريين : نقل عنه أنه

---

(١) سيرة ابن طولون للبلوى ص ١١٢
(٢) سيرة ابن طولون للبلوى ص ١١٢

لما وجه بالواسطى إلى العراق واستكتب جعفر بن عبد الغفار ، اضطرب بما حمله من الأمر ، ولم يكمل له ، فقال له حمدان بن خاقان : الأمير أيده الله يحتاج إلى كاتب أوفى وزناً من هذا الكاتب ، فقال له : أنا أحتمله وأقنع به لأنه مصرى . فقال له حمدان ، وكأنه عجب من قناعته بكاتب مصرى لا يغنى غناء العراقى : والأمير أيده الله يرى أن الكاتب المصرى أكتب من العراقى وأنهض بما يتولاه ؟ قال له : اعلم أن أصلح الأشياء لمن ملك بلداً أن يكون كاتبه منه ، فإنه يجمع بذلك أشياء تحمد عاقبتها ، منها أن عيال الكاتب وشمله وكل ما يملكه معه فى بلده ، ومنها أن جميع ما يكسبه فيه ، وإن كان ممن يرغب فى تجارة كانت تجارته فيه ، أو فى شراء عقار أو بناء كان فيه » . ثم يقول : والكاتب الغريب ليس كذلك لأنه يعتقد المستغلات فى البلد النائى عنى ، وكده عمارة بلده بتخريب بلدى ، وهو كذلك فى كل حال ، متطلع إلى بلده . . . فهذا الذى زهدنى فى كتاب العراق ، مع علمى بما فيهم من الصناعة وتقدمهم فى الكتابة » .

فقال له : قد أصاب الأمير الرأى وفقه الله(١) .

وأرى أنه كان يريد تدريب المصريين على خدمته ، والقيام بأمور دولته ، ليستغنى بهم عن العراق ورجاله الذين لا يرون له فضلا عليهم ، لأنه كان بالأمس واحدا منهم . وربما دعا ذلك أدباء البلاد إلى الثقة بأنفسهم ، والنهوض بأدبهم ، واستكمال ما ينقصهم ، ليرتقوا إلى المنزلة التى أراد أن يرفعهم إليها ، ويكونوا أهلا لمساواة كتاب العراق ، وشغل مراكزهم ، والحلول محلهم .

وترى كاتب الأمير أصبح رجل دولة ، يعتمد عليه فى المراسلات السياسية ويوكل إليه تدبير بعض شئون الدولة ، ويستشار قبل الإقدام على عظيمات الأمور .

وإليك القصة التالية :

كان ابن طولون يود أن يختطف الخليفة من بغداد ، وينقل كرسى الخلافة إلى

(١) سيرة ابن طولون للبلوى ص ١٠٦

مصر ليبعدها عن تأثير الموفق وسلطانه ، فحدث أحمدَ بن محمد الواسطى فى ذلك فقال له : ما تبلغ معرفتى وفهمى الـكلام فى هذا الباب ، ولـكن فى محبسك من إن أحضرته واستشرته أشار — لفهمه ورجحان عقله — عليك بالصواب . فقال : ومن هو هذا ؟ فأجابه : محمد بن اسماعيل بن عمار . فقال له : صدقت ؛ إنه لـكذلك ، ولولا نفورى منه ، لخوفى من غوائله ودهائه ، لما كان بحيث هو ، وكان معى فى أجل حال ، فأحضرنيه . فأدخل عليه بهيئة السجن وملابسه ، وعليه قميص غليظ ، وقد اسود من طول دخان السراج . وشعره قد طال ، حتى سقط على وجهه لمـكثه فى المطبق ، فاستدناه فدنا ، ثم استدناه ثانية ، فدنا وقال . ما أرضى رائحتى للأمير أيده الله .

فقال له : دعوتك لأستشيرك فى أمر أردت أن أفعله ، لعلمى بجودة رأيك ، وصحة فهمك . فقال له : أين الرأى منى اليوم أيها الأمير ، وهذه حالى ؟ فقال له : أنت أوفى رأياً ، وأذكى قلباً ، من أن يختل عليك ما التمسته منك ، أو يعتريك ما يعترى ذوى النقص . فقال : يقول الأمير أيده الله ما شاء ، والله جل اسمه الموفق

فقال له . إن أبا أحمد الموفق قد احتوى على أخيه أمير المؤمنين المعتمد بالله ، ونفذ أمره فى كل ما يريد ، وتمـكن من إعناته بمن ضم إليه أمير المؤمنين من الرجال والجيش الذى استدعاه منه لقتال البصرى . فلما حصل ذلك له صارت له عدةٌ على أمير المؤمنين ، وقد خفت حِنْـثِى فى يمينى التى له فى عنقى إن قعدْت عنه ، وقد عزمت على الخروج إليه بنفسى وجميع جيشى ، حتى أنصر دعوته ، وأنقله إلىَّ ، فما ترى ؟ .

فقال : « إن من الخطر العظيم أولا خروج الأمير بنفسه وجميع جيشه وعدته لأن الحرب سجال ، والظفر بحسب التوفيق ، فأخاف أن يلحق الأمير — وأعيذه بالله — هزيمة ، فلا تكون له بعدها قائمة . ولأن يكون الأمير ، أيده الله ، من

وراء من يبعث به إلى هذا الوجه ، وهو مادة له ، أولى من أن ينفذ بنفسه ، وبعد هذا فأرى كلام الأمير كلام من قد لهج من نصرة المعتمد ، وما يريده من رد أمره إليه ، مما لا يراه له المعتمد ، ولا يعتبر به له ، لأنه رجل مشغول بلهوه ، منهمك فى لذاته ، بمعزل عن حسن تدبير ، وأن يكافئ على فعل جميل .

« أرأيت أيها الأمير لو انتقل إليك ، وتمت للأمير حمايته من أخيه ، وأجابك إلى ما دعوته إليه ، أكان له فى قصرك دار يسكنها غير دارك ؟ فأول ما يستعجل الأمير أن ينتقل عن هذه الدار إلى ما لا يقاربها ولا يدانيها ، بل تضيق بمن يحوطه بل لا تسع بعضهم ، ثم يكون الأمير إذا دخلها كبعض الزوار .

« ثم أنت أيها الأمير الآن المتبوع الآمر ، فلا تلبث أن تصير التابع المأمور ، ولعله أن يكون عنده آثَرَ الناس مُغَنٍّ أو مُلْهٍ أو نَديمٌ ، لا يَعْشُر غلام الأمير وليس له منه منفعة فى أمر ، ولا يحمل عنه شيئاً من ثقل ، ولا يزيد على أن يلهيه ، ويسهل موارد أموره ومصادرها عليه .

« وأقل ما فى هذا الباب الثاني أنه إذا دخل الأمير للسلام يكون قائما ، وذلك النديم أو الملهى جالسا ، لموضعه منه ، ومنبسطا إليه . ولعل هذا إذا شاهده الأمير أخرجه إلى أكثر مما خرج إليه أخوه الموفق فيه ، ثم لا يأمن الأمير أن يسأله بعض غلمانه فى ضيعة من ضياعه ، أو عمل فيه أخص غلمان الأمير ، فلا تمكنه مخالفته فى كل ما يستدعى منه ، ثم اعتراضات حاشيته فى البلد وأصحابه ، وكذلك فى الأعمال ، وطلبهم ما يشق على الأمير ويعظم ، فلا يتهيأ له منعهم ، فإن منع أغضب أمير المؤمنين ، ثم الأمير بعد هذا غير آمن من أن تحمله المحافظة لمن يسأله استنزالك عن موضعك ، فيجيبه ليكافئه على حال قد تَقَدَّمَتْ له عنده إلى محبته ، ولا يخالف إرادته .

« وحسبك أيها الأمير ، أن تستدعى رجـــلا إلى بلدك وملكك فإذا بلّغته الغاية القصوى ، وسوغته كل ما كدحت فيه دهرك ، رأى أن ذلك

كله له ومن حاله ، وأن الذى قد بقى معك مما تتجمل به بين يديه ، له دونك ، وأن إبقاءه لك تفضل عليك » .

« إن من إقبال الأمير ما يلحق المعتمد من أخيه ، لأنه يجد بذلك الحجة على خلافه ، وترك الائتمار له ، وإسقاط اسمه والدعوة له ، وتأليب الأولياء عليه ، وفى هذا ما يتهيأ له بلوغه من معونة أمير المؤمنين ، وما يَثنى أخاه عليه فيعود له إلى إرادته ، ويزول عنه ما يكرهه ، وما أحب أيها الأمير إظهار هذا الاجتهاد العظيم فى قهر الموفق ، ونصرته لأخيه عليه ، لما يَتَخَوَّفُ من مثله ، لقوة يده وكبر أمره وتمكنه .

والذى أرى — ولرأى الأمير ، أيده الله فضله — ألا يفعل ما إذا فعله جرى الأمر فيه بينه وبين أمير المؤمنين على ما شرحته له ، مما يخرُج الأميرُ معه إلى أكثر مما خرج أخوه إليه » .

فقال له أحمد بن طولون : حسبك حسبك ، وأمر برده إلى محبسه .

قال أحمد بن محمد الواسطى لأحمد بن طولون : أيها الأمير أكان جزاء هذا الرجل على هذا الرأى السديد الصحيح ، الذى قال فيه الحق ، ومحض النصيحة ، أن يرد إلى محبسه ؟

قال : نعم ، إنى تأملت أمره ، فوجدته قد نصحنى فى دنياى ، وغشنى فى دينى وآخرتى ، ثم تأملت رأيه وجودته وصحته ، وما حضره منه بغير فكر ولا استعداد وهو على هذه الحال الصعبة القبيحة المفنية للحس ، فضلا عن غيره ، فكيف لو رأى نفسه مطلقة ، وهو نافذ الأمر والنهى ، يأكل طيباً ، ويلبس لينا ، ويشم عطراً ، إذا لاستَدَّ رأيه ، ولبَعُد غوره ، وتمكن من عدوه ، بقوة حيلته وعزم رأيه .

إن أجهل الأمراء من أعطى مقادته للكتاب العقلاء ، لأنهم أسدُّ الناس رأياً ، وأقلهم

ديناً ؛ بل يقبل رأيهم من غير أن يظهر لهم فيه استصابة [١] !

هذه النصيحة التى تفيض بالإخلاص للأمير ، والرغبة فى تثبيت ملكه ، ودوام العز والسيادة له فى بلده ، لم تلق من الشكر ما تستحقه ، ولم يعامل صاحبها بما هو أهل له ، بل فكر الأمير تفكيراً غريباً ، واتخذ من سداد رأى الكاتب وحسن نصيحته ، وتوفيقه فى مشورته وهو فى هذه الشدة والضيق ، سبباً للخوف منه ، فأبى أن يتركه حراً طليقاً ، واتهمه فى نصيحته ؛ وحذر من الكتاب جميعاً .

وهذه القصة تؤيد أيضاً ما تقدم من أن الكاتب لم يكن ناسخاً ، بل كان مستشاراً فى مهام الأمور ، يحتاج إلى ثقافة واسعة ، وعقل ناضج ، وبديهة حاضرة ، وتدبير محمود ، وبصيرة نافذة ؛ مع الصفات الأدبية كالعلم بالأخبار ، ورواية الأشعار ، وحسن الاستشهاد والاقتباس ، وقوة الحجة والبرهان ، وغير ذلك من صفات البيان .

معاداته للأدباء :

اتهم ابن طولون بمعاداته للأدباء ، وعدم تشجيعه للأدب المحض بالرغم من أنه كان أديباً . وقد جاء فى مقدمة « سيرة ابن طولون » للبلوى [٢] أنه كان يُفضل على النساك والقراء والفقهاء والمحدثين والمتطببين والمهندسين ، يجرى عليهم ما يكفيهم . ولا يعنى كثيراً بالمنجمين والشعراء على ما يظهر ، لبعده عن الاعتقاد بتأثيرات النجوم على أهل الأرض ، ولاتهمه كثيراً مصانعات الشعراء . وقد مدحه البحترى ثم هجاه ، وتوفر محمد بن داود على هجوه عند كل سانحة .

وقد يفهم من سجنه لمحبوب بن رجاء وفعله بالكاتب ابن عمار ، ورأيه فى الكتاب جميعاً — وهو الرأى المدون فى آخر قصة ابن عمار — أنه كان مجافياً

---

(١) سيرة ابن طولون للبلوى ص ٢٨١ — ص ٢٨٥

(٢) ص ٢٤

للأدباء ، شديداً على الكتاب ؛ يحذرهم ، ويسيء الظن بالعقلاء الأذكياء منهم .

ولكن هذه حالات فردية ؛ فقد مدحه البحترى طمعاً فى عطائه ، ثم هجاه لما حرمه ، وكان سخطه على محبوب بن رجاء بسبب إفشاء محبوب لأسرار العمل الذى اؤتمن عليه ، إذ كان ينقل إلى العباس بن أحمد بن طولون التقارير التى كانت تأتى عنه إلى أبيه(١) ، أما سر غضبه على ابن عمار فمجهول ، وقد تركه فى الحبس حتى مات .

لكن بقية أحواله تدل على أنه كان يقدر الأدب الراقى ، والبديهة الحاضرة ، وحسن الجواب ، وسديد الرأى . وكان يعجبه فصاحة اللسان ، وجمال العبارة ، مع جميل العذر ، شأنه فى ذلك شأن كل عاقل ، مهذب الذوق . واقرأ القصة الآتية :

أنقذته فصاحته من ابن طولون :

حدث نسيم قال : خرج مولاى ليلة إلى قبة الهواء ، فسمع فى أطراف المعافر كلباً ينبح ، فرابه ذلك ؛ فقال للغلمان وهم قيام بين يديه : اركبوا الساعة ، وامضوا ركضاً نحو هذا الكلب ، فانظروا على أى شيء يصيح ، فإن وجدتم أحداً فجيئونى به .

فمضى الغلمان نحو صوت الكلب حتى أدركوه ، فوجدوا رجلا قد كان عند صديق له من جيرانه ، وقد انصرف من عنده يريد منزله ، فوجد بابه مغلقاً ، وهو قائم عليه يدق ، وقد منع أهله غلبةُ النوم عن أن يسمعوا دقه . وكلما دق الرجل ينبح الكلب عليه ، فأخذوه ، وأردفه أحدهم خلفه ، وأقبلوا به ركضاً ، فلما رأى الرجل ما حل به طار النبيذ من رأسه ، وأقبل يستعين بالله ، فلما أوقفوه بين يديه كاد عقله يذهب ، حتى ثبته الله عز وجل ، فعرفه الغلمان صورة الأمر ، فقال له

---

(١) ص ٢٤٧

أحمد بن طولون : ما الذى حملك على الخروج فى مثل هذا الوقت ؟ فقال له : أنا أحدث عنه الأمير أيده الله : كنت عند صديق لى من جيرتى ، وتمادى بنا الحديث إلى هذا الوقت ، وكنا نستعمل الحذر والتحفظ قبل أيام الأمير ، أيده الله ؛ فلما ولينا ، واشتدت وطأته على أهل الدعارة والفساد انقمعوا[1] من هيبته ، وخافوا من سطوته ، فأمنا لذلك وصرنا نخرج فى مثل هذا الوقت ، وقبله وبعده آمنين ، ببركة الأمير أيده الله .

فاستحيا منه أحمد بن طولون لحسن عبارته وبيان قوله ، وتوقف عما كان قد عزم عليه من التأديب له فى الخروج فى مثل هذا الوقت . وقال له : قد كنا على تأديبك على مخاطرتك بنفسك فى مثل هذا الوقت ، فأزال ذلك عنا جميل عذرك ، وحسن عبارتك عن نفسك ، وفصاحة لسانك ، وعلمنا أن ذلك لا يكون إلا فى عاقل ، وكفى بالعقل واعظاً . وقد جعلت العوَضَ من ذلك سرعةَ ردك إلى منزلك ، فلست أشك بأن أهلك لما علموا بأخذنا لك قد قلقوا لذلك .

ثم قال لبعض الغلمان : أردفه خلفك ورده إلى منزله ، وقام هو فأخذ مضجعه وقد مضى أكثر الليل .

أعرابية أبت أن يكون ابنها جاسوسا :

وهذه قصة أخرى تدل على ميله إلى مجالس الفصحاء ، وإعجابه بحسن قولهم تفسيراً لوجهة نظرهم :

دخلت أم عقبة الأعرابية يوماً إلى أحمد بن طولون ومعها ابنها عقبة ، وكان

(١) قمعه : ضربه بالمقمعة وهى خشبة يضرب بها الإنسان على رأسه ، والجمع مقامع وقمعه كمنعه ضربه بها وقهره ، وذلله ، كاقمعه ، وانقمعوا ذلوا وقهروا .

كثيراً ما يأنس بها ويحب محادثتها لفصاحتها ، وحسن كلامها ، وكان يكثر برها في كل وقت ، فسألته التقدم في تصريف ابنها فيما يعود عليه نفعه ، فقال لابن مهاجر وهو بين يديه : انظر له في شغل يعود عليه فيه خير يبين عليه ، وكان البريد إليه ، فقلده ابن مهاجر بريد ناحية من النواحي ، وأجرى عليه من الرزق عشرة دنانير في كل شهر ، فحدث ابن مهاجر قال : إني لقاعد بين يدي أحمد بن طولون بعد ثلاث ، حتى دخلت أم عقبة على الأمير فقالت : أنا شاكرة للأمير أيده الله ، ذامة لهذا الرجل ، تريدني ، فقال لها : ولم ذاك ؟ فقالت : أمرته في إشغال ولدي فيما يعود عليه نفعه فشغله فيما لا يُرْحَض عن رءوسنا عاره وشناره ، والجوع الكريم أنفع من الشبع اللئيم ، فقال لها : وما ذاك ؟ قالت : وكله بالنميمة يحصيها على المسترسل ، ويهتك بها المستتر ، فقد تحاماه الناس وتناذروه ؛ فإذا لم يكن غير هذا تركته ، ولم أتعرض لما فيه مقت الله عز وجل وسب عباده . فضحك أحمد بن طولون ، وأمرني أن أجرى العشرة دنانير في كل شهر ، وأعفيه من البريد ففعلتُ ، فشكرَت ودَعَت وقالت : هذا الأشبه بك أيها الأمير وانصرفت[1] .

وورد في كتاب ابن الداية قبل هذه القصة ما يأتي : وحدثني نسيم قال : تظلمت عجوز أعرابية تعرف بأم عقيل ، إلى أحمد بن طولون من تسخير أجمال لها ، وكانت فصيحة اللسان ، حسنة البيان ، فتقدم برد أجمالها وأمر بعض الحجاب أن يلحقه بها إلى داره ، فوافقت ، فتقدم في إطعامها ، وأن يخلع عليها أثواب ضخام .

وكان في دولة ابن طولون فصحاء ينهضون بعبء الوفادة ، ويحسنون تحمل الرسالة ، ويزينون أقوالهم بوضوح برهانهم ، ويفتنون سامعيهم بعذب كلامهم ، ويرهبون عدوهم بقوة بيانهم . وكان يتخيرهم ، ويستعين بهم في مهمات أموره ، وإليك خبر وفادة من هذه الوفادات .

(١) سيرة ابن طولون للبلوى ص ٢٠٨

ثار العباس بن أحمد بن طولون على أبيه ، وأعانه على ذلك طائفة من قواد أبيه وكتابه . فمن القواد على بن ماجور ، وعبد الله بن طغيا ، وأحمد بن صالح الرشيدى وأحمد بن القاسم بن أسلم ، وجعفر بن حُدار الكاتب ، وكل هؤلاء كان لأحمد بن طولون عنده النعمة الجزيلة ، والإحسان التام ، والأشياء الخطيرة ، إلا أن الحاسد لا دواء له ، ولا يقنعه إلا أن يأتى على نفس من يحسده[١] .

ومنهم طائفة أخرى مذهبهم النحو والغريب ، وعلم النجوم ، والشعر وما يجرى مجراه . وانضاف إليهم جعفر بن عبد الله ، وأحمد بن المؤمل المعروف بأبى معشر ، ومحمد بن أزهر المعروف بالمنتوف . وكل هؤلاء حسنوا له التغلب على مصر والفتك بأحمد بن محمد الواسطى . فسار إلى إفريقية ، وعاد أبوه من الشام فأرسل إليه وفداً على رأسه القاضى بكار بن قتيبة[٢] وفيهم زياد المعدنى مولى أشهب . وكان فصيح اللسان ، حسن العبارة ، قوى الفهم ، وأمرهم بملاينته وملاطفته ووعده فى كتابه الصفح عما جناه ، وألا يسوءه بمكروه ، وحلف له على ذلك بأيمان ، مغلظة .

فلما وصلوا إليه رحب بهم ، وأكرمهم ، ورفع مجلسهم . فابتدأ زياد المعدنى فقال : يا سيدى . سيدُنا الأمير أيده الله ، يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : يا أقرب الناس إلىّ ، وأبرهم لدىّ ، وأعزهم علىّ ، خفرت ظنى بك أقوى ما كان أملى فيك ، وأرجى ما كنت لك . عن غير إساءة كانت منى إليك ، ولا خطيئة ركبتها فيك . ولم تَرْعَ حسن تربيتى لك ، واعظم إشفاقى عليك . وأنى رشحتك لمنزلتى . وقدرت بك حياة ذِكرى ، وصيانة شملى ؛ فأرضيت عدوى ، وأسخطت وليى . أيا سبحان الله ! أما تخاف العقوبة فى العقوق — وقانيها الله جل اسمه

(١) ص ٢٤٥ سيرة ابن طولون .
(٢) ص ٢٤٩ سيرة ابن طولون .

فيك ؛ وثمرة المجازاة على الإساءة — صرفها الله بكرمه عنك ؛ فإن رجعت إلىّ . فكأنك لم تذنب . وإن تمادى بك الاغترار شخصت إليك بنفسى . ولم أكن بأول من خسر سعيه . وأخلف تقديره » . وبكى زياد وبكى معه من حضر ؛ فتدمع العباس وبلغ قوله من قلبه .

ولكن ابن حدار حذره أباه ، وخوفه ما قد يصيبهم جميعاً . وكان أبوه قد كتب إليه كتاباً مع الوفد يستلينه ويعده . ولكن ابن حدار أنشأ للعباس كتاباً يرد به على أبيه . وفيه شرائط مجحفة . واستمرت بينهما المكاتبات طويلا .

وكان مما أغاظ أحمد بن طولون من مكاتبات ابنه العباس إليه حتى استخفه إلى الخروج بنفسه ؛ قوله فى كتابه ، من إنشاء جعفر بن حدار (١) :

إلى الأمير أبى العباس أحمد بن طولون ، مولى أمير المؤمنين ، من عبد الله مولى الله ، المتمسك بمناجى طاعة الله ، المنحرف عن زيغ ظُـلَم المعصية ، إلى وضوح سر البصيرة ، القابل من الله موعظته ، والعامل بما أمر به . إذ يقول جل ثناؤه . « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا معَ الصادقين » . وقوله عز وجل : « فلا تُطِـعْ مَنْ أغفَـلْنا قلبَه عن ذِكْـرِنا واتَّـبَعَ هَوَاه » .

سلام على الأمير ، وعلى من استرجع وادّكر ، وفكر وازدجر . فأنا أحمد إلى الأمير اللهَ لا إله إلا هو ، العاطف بى إلى أرفع سُنن الهداية ، والعادل بى عن ظُلَم سَنن الجهالة ، وأسأله صلاة تامة يخص بها وليّه ، وخيرته من صفوته ، ورسوله صلى الله عليه وسلم .

أما بعد ، وفق الله الأمير لمحالّ رشده ، وجنبه مقابح أمره ، وسخر له الخلق عن غامض ذكره ، فإن كتاب الأمير ورد عن الحائدِ منه ، عن سبيل العظة والتذكير ، إلى سبيل التهديد والتحذير ، فبعّد وقرب ، وآنس وهدد ، وجمع

---

(١) ص ٢٥٦ سيرة ابن طولون .

وفرّع . يبذل من نفسه باليسير فيها . ويدعو إلى الصلة ويحدث غيرها . ويعرض من ماله الأنفس . ويُصير من خطابه الأنزر ، ويعدد من واجب حقه ، ولازم مفترضه ، . ما اعترف به مصدّقاً ، لمن اعترف بالطاعة محققّاً . ألخ » .

وأخذ يجادل أباه فى تبرير خروجه عليه بأسلوب أفصح . وبحجج قوية من المعقول والمنقول ؛ ويرد على ما جاء فى كتاب أبيه مفنداً ومعترضاً ، حتى لتخاله من إنشاء كتاب العراق[1] .

فلما ورد كتابه أغاظه ، وبلغ منه ، وأجابه يقول :

« إلى الظالم لنفسه ، العاصى لربه ، المُـثـلِّم لدينه ، المبخوس من حظ دنياه وآخرته : سلامٌ على كل منيب ، مستجيب من قريب .

أما بعد : فإن مثلك مثل البقرة ، تثير المدية بقرنها ، والنملة ، يكون حتفها فى جناحها ، وستعلم — هَبِلَتْكَ الهوابل ، أيها الأخرق الجاهل ، الذى ثنى عن الحق عِطفَه ، واغتر بضجيج المواكب خلفه — أىَّ مورد هلكةٍ سلكت ، إذ على الله ، جل اسمه تمردت ، فإنه تعالى قد ضرب لك (مثلا قريةً كانت آمِنة مطمئنة ، يأتيها رزقُها رغَداً من كل مكان ، فكفرت بأنْعُم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) ، واعلم أن البلاء بإذن الله قد أظلك ، والمكروه قد أحاط بك ، والعساكر قد أتتك كالسيل فى الليل ، تؤذنك بحرب وويل ، فإنى لأقسم ، وأرجو ألا أجور وأظلم ، ألا أثنى عنك عناناً ، ولا أوثر على شأنك شأناً ، فلا تتَوَقَّلُ[2] ذروة ، أو تَلِجُ بطن واد ، إلا تبعتك وطلبتك ، حيث يممت

---

(١) رد أبوه عليه كتاباً مطولا شديداً نقله صبح الأعشى بتمامه ج ٧ ص ٥ ويقول القلقشندى : إن الكتاب من إنشاء ابن عبد كان . ولا يقل فى قوته الأدبية والمنطقية عما تقدم . وهنا صورته عن « سيرة ابن طولون » للبلوى ص ٢٦٠ وهى أقصر من رواية صبح الأعشى ، وتخالفها بعض المخالفة .

(٢) تصعد قمة .

وسلكت ؛ حتى تستمر من عيشك ما استحليت ، وتستدفع من البلايا ما استدعيت ، حتى لا دافع ، بعون الله ، يدفع عنك ، فتعرف من قدر الرخاء ما جهلت ، وتود أنك هلكت ، ولم تأت بما إليه عجلت ، ولا رأى من أطاف بك من الغواة قبلت . فحينئذ يتفرى[1] لك الليل عن صبحه ، ويسفر لك الحق عن نصحه ، فتنظر بعين لا غشاوة عليها ، وتسمع بأذن لا وقر فيها ، وتعلم أنك كنت مستمسكا بحبل غرور متمادياً ، وسالكا سبيل ضلال لا تجد له هادياً ، من عقوق لا ينام طالبه ، وبغى لا يفوت هاربه ، وتقف على سوء رويّتك ، وعظيم جريرتك ، فى تركك قبول الأمان وهو لك مبذول ، وأنت عليه محمود ، واليد عنك كافّة والسيف عنك مغمود ، فتتلهف ، واللهف غير نافعك ، إلا أن تكون أجبت إليه سريعاً ، وأقبلت نحوه هرعاً .

واعلم أنك لا تقصد موضعاً إلا تَـلَوْتك ، ولا تأتى بلداً إلا قـَفَوْتك ، ولا تلوذ بعاصم لينجيك ، إلا استعنت بالله عليه وعليك ؛ فما يجيرك إلا أحد رجلين ، إما لدين أو لدنيا ، فأما الدين فأنت بحكمه مفارق ، لأنك عاقٌّ مُشاقق ، وأما الدنيا فما أحسبه بقى معك من حطام ما سرقته ، مما حملت نفسك على الاستبداد به ، ما يفى بمكاثرتنا ، مع ما وهبه الله ، جل اسمه ، لنا من جليل نعمه التى نستوزعه[2] الشكر عليها ، ونرغب إليه فى إدامتها .

وما دعاني إلى إرفاقك ، والتسهيل من خناقك ، طول هذه المدة ، إلا أمور : منها استضعاف أمرك واحتقاره ، وقلة الاحتفال به واستصغاره ، ومنها أنا جعلنا تركك على ما اخترته ، عقوبة لك من إباقك إلى أقصى البلاد ، مبعداً عن الوطن والأهل ، والراحة والمهاد ، وقد فارقت بلدك ، وحرمت أهلك وولدك ؛ ومنها أنا

---

(١) ينشق .

(٢) نطلب منه التوفيق .

علمنا يقيناً أن الوحشة دعتك إلى الانحياز حيث انحزت ، فأمهلناك ليسكن نفارك وقلنا إنك تحن إلينا حنين الولد ذى الحسب ، وتتوق إلينا توقان ذى الرحم والنسب فلم تسمع من واعظ ، ولم تعتد بحافظ ، وأما الآن ، وقد اضطررنا إلى الانزعاج نحوك ، لاستعمالك المواربة والمخادعة فيما يجرى عليه تدبيرك ، فما أنت بموضع للصيانة بل حقيق باللعنة والإهانة ، فعليك من ولد عاقٍّ لعنةُ الله ولعنة اللاعنين والملائكة والناس أجمعين ، لا قَـبِل الله لك صرفا ولا عدلا(١) ، وأحاط بك حيث كنت ، ولا حاطك حيث توجهت ، وستعلم ، أيها المخالف القاطع رحمه ، العاصى ربه ، أىَّ جناية على نفسك جنيت ، وأى كبيرة أتيت ، فتندم إن كانت لك روية ، وفيك فضل إنسانية ، وتود أنك لم تكن ولدت ، ولا فى الخلق عرفت ، إلا أن ترجع راغباً ، وتسرع خاضعاً ، إلى ما قبلنا ، فنقيم الاستغفار لك مقام اللعن ، والرقة مقام الغلظة والوهن ، والسلام على من سمع الوعظ فوعاه ، وذكِّر بالله فاتقاه » .

وظفر ابن طولون بابنه العباس وجماعته ، فأهانهم وعذبهم ، وقتل كثيراً منهم ومنهم ابن حدار الكاتب . وكان غيظه عليه أشد ، وحنقه عليه أعظم ، لأن كتب العباس إلى أبيه كانت من إنشاء هذا الكاتب .

وإذا قرأت كتاب ابن طولون الذى أرسله إلى ابنه العباس ، وكاتبه ابن عبدكان ؛ لم تجد أيضاً فرقاً بينه وبين رسائل العراقيين ، فى صورته البيانية ، ذات الفقرات القصيرة ، والعبارات الموسيقية ؛ المؤتلفة النغم ، والسجع غير المتكلف ، وفيها خضوع اللفظ للمعنى ، والميل إلى الإسهاب إذا اقتضى المقام إسهابا ؛ وقد يسوق الدعاء حشواً واعتراضاً فى أثناء الكتابة ، كما كان الجاحظ يفعل .

ولا غرابة فى تشابه الكتاب ؛ فإن بغداد كانت المثال الذى يحتذى ، والرحلة بين الأقطار الإسلامية كانت شائعة ، وانتقال الأدب من مصرٍ إلى مصر ، ومن

---

(١) الصرف : التوبة ، والعدل الفدية.

حاضرة إلى حاضرة ، كان أمراً عاماً . وقل أن تجد كاتباً كالجاحظ وابن العميد يستقل بأسلوب وينفرد بطريقة. واقرأ مقدمة كتاب المكافأة ، تجد دعاء جاحظياً ، قصر صاحبه عن أن يسترسل استرسال الجاحظ ، ويتدفق مثله .

ولا ننسى هنا أن نعيد ما قلناه عن أحمد بن يوسف بن الداية ، فإن استقلاله وظهور شخصيته فى كتاب المكافأة أمر يستحق الالتفات إليه ، ومن حسن الحظ أن له آثاراً باقية . أما ابن عبدكان فلا يمكن الحكم عليه من عدد قليل من الرسائل؛ وكذلك ابن جدار ، وابن نصير العبادى ، وأحمد بن أيمن الخ . ولو قدر لنا الاطلاع على رسائلهم وآثارهم الأدبية كاملة أو على كثير منها لاستطعنا أن نعرف خصائصهم الكتابية ، ونميز كاتباً عن كاتب كما ميزهم ابن طولون عندما كانت ترد عليه كتب ابنه العباس وهو ثائر عليه ، وأدرك أسلوب كل كاتب، ورد إليه عباراته.

وما دمنا بصدد الكلام عن الصفات الشائعة فى الرسائل فنتم القول ببعض عبارات كانوا يبتدئون بها رسائلهم ويختمونها . فقد روى صبح الأعشى (١) أن ابن عبدكان كان يفتتح ما يكتبه عن ابن طولون فى الولايات بلفظ : « إن أحق كذا » أو « إن أولى كذا » وما أشبه ذلك . ومن ذلك ابتداؤه فى نسخة عهد عن ابن طولون بقضاء برقة .

« إن من أحق من آثَرَ الحق وعمل به ، وراقبَ الله فى سر أمره وجهره ، واحترس من الزَّيْغ والزلل فى قوله وفعله ، وعمل لمعاده ورجعته ، إلى دار فاقته ، وفقره ومسكنته ، مَنْ جُعِلَ بين المسلمين حاكما ، وفى أمورهم ناظراً » .

وكانوا يبتدئون الإخوانيات — مما جرى عليه ابن عبدكان وغيره — بالدعاء وعليه غالب كتابتهم ، فكانوا يدعون بطول البقاء كقول ابن عبدكان :

---

(١) جـ ١١ ص ٢٩ . وجاء فى صبح الأعشى جـ ٨ من ص ١٦٠ — ص ١٦٦ كثير من الأمثلة والعبارات التى كانت طابع الرسائل فى ذلك الوقت .

« عمر الله بك الأزمنة والدهور ، وآنس ببقائك الأيام والشهور ، وأمتع بدوام عزك ، السعداءَ بحظهم منك » .

وقد يكون الدعاء « بدوام النعمة » أو بـ « جعلت فداك » . وقد يتركون الدعاء بهذين إعظاماً لقدر المكتوب إليه . وتلك مبالغة وتكلف فى قلب المعانى كقول ابن عبدكان :

« إن قلت فى كتبى « جعلنى الله فداك » أكون قد بخستك حظ إحسانك إلى ، وحق مُفترَضك على ؛ لأن نفسى لا توازى ساعة من يومك ، ولا تساوى طرفة من دهرك ، وإنما يُفدَّى مثُلك بالأنفس التى هى أنفس من الدنيا ، وأعرض من أقطار الأرض » .

وقد يدعون بصلاح الدنيا ، وغبطة الآخرة ، وكبت العدو ، وطيب الحياة ، وكل ما يمكن أن يدعى به ، مع مراعاة المناسبة بين الدعاء والمدعوله ووقت الدعاء.

وكانوا يفتتحون كتبهم بقولهم : « كتابى إليك » ، أو « أنا من جملة صنائعك » أو شبه ذلك .

وكانوا يجيبون على الرسائل مبتدئين بما يفيد وصولها ، ويعقبون بالثناء عليها وعلى مرسلها ، والدعاء له بمثل ما تقدم ، ومن ذلك كتاب ابن عبدكان :

« وصل كتابك مشتملا من أنواع البر ، على ما يقصر فى جنب أيسره أعظم الشكر .

ويختمون الرسائل بالأدب المتكلف ، والتلطف المبالغ فيه ، مما توجبه الحضارة ويفرضه اختلاف منازل الناس وأقدارهم فيها .

وصار بعضهم مقصد الأدباء . فقد روى أن أحدهم ذهب إلى ابن عبدكان فحجبه فكتب إليه :

إنى أتيتك للتسليم أمسِ ، فلم   تأذَنْ عليك لىَ الأستارُ والحُجُبُ

وقد علمتَ بأنى لم أُرَد ، ولا والله ما رُدَّ إلا العلمُ والأدبُ

فأجابه ابن عبدكان مضمناً بيت أبى تمام فى عتاب عبد الله بن طاهر :

لو كنتَ كافيْتَ بالحسنى لقلتَ كما قال ابن أوسٍ ، وفيما قاله أدب

« ليس الحجابُ بمُقْصٍ عنك لى أملا إن السماءَ تُرَجَّى حين تحْتَجِبُ »

وكان ابن عبدكان يعرف أقدار أهل الأدب ويستعين بالفضلاء منهم . وكانت شهرته ذائعة فى العراق ، فقصده من هناك أديب صار له ذكر فى عهد خمارويه وهو: اسحق بن نصير الكاتب البغدادى أبو يعقوب .

وقد ترجم له ياقوت فى معجم الأدباء [1] فقال :

« كاتب الرسائل بديوان مصر بعد محمد بن عبد الله بن عبدكان »

وجاء ياقوت بخبر اتصاله بابن عبدكان ، نقلا عن ابن زولاق . فقال :

« وكان أبو جعفر محمد بن عبد الله بن عبدكان ، على المكاتبات والرسائل ، منذ أيام أحمد بن طولون ، إلى أن قدم عليه أبو يعقوب ، اسحق بن نصير البغدادى من العراق ، والتمس التصرف ؛ فقال له ابن عبدكان : فيما ذا تتصرف ؟ فقال : فى المكاتبات والأجوبة والترسل .

وكان بين يدى أبى جعفر كتب قد وردت ، فقال له : خذهذه وأجب عنها ، فأخذها ومضى إلى ناحية من الدار ، فأجاب عنها ، ثم وضع خفه تحت رأسه ونام . وقام أبوجعفر إلى الحجرة التى له ، فاجتاز به والكتب بين يديه ، فأخذها وقرأها ، فلما تأملها جعل يُرَوِّحُ اسحق بن نصير حتى انتبه » .

ثم أجرى عليه أربعين ديناراً فى كل شهر ، وظل معه إلى أن مات ابن عبد كان .

(١) ج ٦ ص ٨٥

ولما انفرد على بن أحمد الماذرائى بالكتابة ألزم اسحق بن نصير منزله . ووردت كتب فأجاب عنها على بن أحمد ، وعرضها على مولاه خمارويه فأنكرها ، فأعاد كتابتها ، فأنكرها خمارويه أيضاً ، فاضطر إلى استدعاء اسحق بن نصير فأجاب عن الكتب ، ودخل « على بن أحمد » على خمارويه فقرأ الأجوبة ، فقال : نعم ، هذا الذى أعرف ! « إيش الخبر ؟ » فقال له : كاتب كان مع أبى جعفر فاعتزل ، وأحضرته الساعة . فاستدعاه خمارويه وأمر على بن أحمد أن يجعل رزقه أربعمائة دينار فى الشهر .

وقال لإسحق بن نصير : « لا تفارق حضرتى . فبلغ اسحقُ حتى صار رزقه ألف دينار فى كل شهر . فكان يجود بذلك ، ويفضل به على الناس » .

ولقد أرسل إلى بغداد ثلاثة آلاف دينار دفعة واحدة ، ألف منها لأبى العباس المبرد ، ومثلها إلى أبى العباس ثعلب ، والألف الثالثة إلى وراق كان يجلس عنده .

وقد توفى اسحق سنة ٢٩٧ .

ونرى فى أخبار إسحق هذه أن خمارويه كان كأبيه ، يعرف الفرق بين كاتب وكاتب ، وبين أسلوب وأسلوب ، وأنه كان يقدر الأدباء ، ويجزل عطاءهم . وأن الصلة بين كتاب مصر والعراق لم تكن منقطعة .

أما الماذرائى فهو من أسرة ولى بعض رجالها كتابة الطولونيين وتدبير أموالهم ومنهم محمد بن على الماذرائى ، وعمه الحسين بن أحمد . وكان لهم عمل بها بعد الطولونيين أيضاً(١) .

وكانت ظروف الحرب والسياسية والحوادث التى توالت على البلاد فى أيام خمارويه وبعده إلى قيام الفاطميين ، ظروفاً تنهض فيها الكتابة بكثير من الأعباء ، كرسائل الصلح ، وكتب العهود ، وأجوبة الولاء والطاعة ، وصحائف التهديد

---

(١) الولاة والقضاء ص ٢٦٩ ، ص ٢٧٥

والتحذير ، وغير ذلك من كل ما تحتاج إليه الدولة فى صلتها بدار الخلافة ورجالها ، أو تحتاج إليه فى صلتها بالدويلات التى كانت تابعة لها أو مجاورة ، كالشام وإفريقية والحجاز .

وكانت مصر قد أنشأت ديوان الرسائل ، واختارت له كتاباً قاموا بأعمالهم فيه على درجة من البلاغة والمهارة والحذق ، لا تَقل عما كان فى حاضرة الخلافة ؛ ولكن الباقى من آثار أولئك القوم هو أسماؤهم ، وإشارات إلى كتبهم ، لا تغنى كثيراً عن تلك الآثار .

وإذا جاز لنا أن نحكم بما بقى ، قلنا إن كتاب مصر فى هذا العصر كانوا يسيرون على طريق النثر الفنى فى القرن الرابع ، من عناية بالمحسنات البديعة كالسجع والجناس ، والاقتباس من القرآن الكريم ، والاستشهاد به ، وحل أبيات الشعر ثم العناية بترتيب المعانى وتنظيم الفقرات ، وكثرة الدعاء والألقاب ، وتمييز الطبقات فى الكتب . وزيادة أنواع البدء والختام عما كان متبعاً من قبل . مع التنقل بين الإيجاز والإطناب بحسب الموضوع ، أو جهة الإنشاء الصادرة عنها أو الواردة إليها .

ومن الرسائل الباقية من عهد الإخشيديين رسالة بعث بها الإخشيد ، محمد بن طغج ، صاحب الديار المصرية ، وما معها من البلاد الشامية ، والأعمال الحجازية ، إلى أرمانوس ملك الروم ، رداً على كتاب منه إليه ، نستطيع أن نعرف فحواه من كتاب الإخشيد فى الرد عليه . ويخيل إليك وأنت تقرأ رد الإخشيد أن الكاتب كان يرد على كتاب أرمانوس فقرة فقرة ، بشىء من التطويل والإسهاب ، وجاء فى كتاب أرمانوس فقرة تشير إلى أنه كاتبَ الإخشيد وهو وال للخليفة ، ولم تكن عادته أن يكاتب إلا الخليفة نفسه .

ومما يدل على غنى ديوان الرسائل بالكتاب أن الإخشيد أمر بالرد على

كتاب أرمانوس، فكتب له الكُتّاب عدة أجوبة ، ورفعوا نسخها إليه ؛ فلم يرتض منها إلا ما كتبه ابراهيم بن عبد الله النُّجَيْرِمى — وكان عالماً بوجوه الكتابة ، وهو كتاب مطول فى صفحات ، وكثير من عباراته مكرر . وقد بدأه :

« من محمد بن طغج ، مولى أمير المؤمنين ، إلى أرمانوس عظيم الروم ومن يليه :

« سلامٌ بقدرما أنتم له مستحقون ، فإنا نحمد الله الذى لا إله إلا هو ، ونسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله ، صلى الله عليه وسلم .

أما بعد . فقد ترجم لنا كتابك الوارد مع نقولا واسحق رسوليك ، فوجدناه مفتتحاً بذكر فضيلة الرحمة ، وما نُمِى عنا إليك ، وصح من شيمنا فيها لديك ، وبما نحن عليه من المعدلة وحسن السيرة فى رعايانا ، وما وصلت به هذا القول ، من ذكر الفداء ، والتوصل إلى تخليص الأسرى ، إلى غير ذلك مما اشتمل عليه وتفهمناه .

فأما ما أطنبت فيه من فضيلة الرحمة ؛ فمن سديد القول ، الذى يليق بذوى الفضل والنبل ، ونحن — بحمد الله ونعمه علينا — بذلك عارفون ، وإليه راغبون وعليه باعثون ، وفيه — بتوفيق الله إيانا — مجتهدون ، وبه متواصون وعاملون ، وإياه نسأل التوفيق لمراشد الأمور ، وجوامع المصالح ، بمنه وقدرته .

وأما ما نسبته إلى أخلاقنا من الرحمة والمعدلة ، فإنا نرغب إلى الله جل وعلا ، الذى تفرد بكمال هذه الفضيلة ، ووهبها لأوليائه ثم أثابهم عليها ، أن يوفقنا لها ويجعلنا من أهلها ، وييسرنا للاجتهاد فيها ، والاعتصام من زيغ الهوى عنها ، وعُرَّة القسوة بها ، ويجعل ما أودع قلوبنا من ذلك موقوفا على طاعته ، وموجبات مرضاته ، حتى نكون أهلا لما وصفتنا به ، وأحق حقاً بما دعوتنا إليه ، وممن يستحق الزلفى من الله تعالى ، فإنا فقراء إلى رحمته ، وحق لمن أنزله الله بحيث أنزلنا وحمله من جسيم الأمر ما حملنا ، وجمع له من سعة الممالك ما جمع لنا ، بمولانا امير

المؤمنين — أطال الله بقاءه — أن يبتهل إلى الله تعالى فى معونته لذلك ، وتوفيقه وإرشاده ، فإن ذلك إليه وبيده « ومن لم يجعلِ اللهُ له نوراً فما له من نور » .

وترى فى هذه الفقرات التى تقدمت ، سلاماً فيه حذر ، وحمداً لله ، وصلاة على رسوله ، وإجمالا لخطاب أرمانوس ، ورداً مفصلا عليه بعد ذلك ، وترى فيه الاعتراض بين أجزاء الجملة ، وتقسيم الجملة الواحدة إلى أجزاء ، وإطنابا عاما . وتحس فى كثير من الفقرات أن الرسالة قد انتهت ، لأنه كان يختمها بعبارات تشبه عبارات الختام ، ويتكرر ذلك أكثر من مرة فى الرسالة . وآخر ما قاله :

« ومن ابتدأ بجميل لزمه الجرى عليه والزيادة ، ولا سيما إذا كان من أهله وخليقاً به ، وقد ابتدأتنا بالمؤانسة والمباسطة ، وأنت حقيق بعمارة ما بيننا ، وباعتمادنا بحوائجك وعوارضك قبلنا ، فأبشر بتيسير ذلك إن شاء الله تعالى » .

« والحمد لله أحق ما ابتدئ به وختم بذكره ، وصلى الله على محمد نبى الهدى والرحمة ، وعلى آله وسلم تسليما » .

والنجيرمى منشئ هذا الكتاب نحوى لغوى ، أخذ عنه أبو الحسين المهلبى ، وجُنادة اللغوى الهروى ، وكثير من أهل العلم ، وكان مقامه بمصر [1] . أما نسبه فإلى « نجيرم » وهى قرية كبيرة على ساحل بحر فارس . وكان يقول الشعر أيضاً . وقد امتد به العمر إلى زمن كافور . ورويت له نادرة فى الشعر تدل على حضور بديهته ، وحسن تأويله ولباقته ، وبخاصة فيما اتصل بالنحو الذى كان بعض صناعته . روى ياقوت قال [2] :

« حدثنى بعض أهل مصر عند كونى بها فى سنة اثنتى عشرة وستمائة ... أن الفضل بن عباس دخل على كافور الإخشيدى فقال له : أدام الله أيامِ سيدنا الأستاذ

---

(١) معجم الأدباء ج ١ ص ١٩٨

(٢) ج ١ ص ١٩٩

خفض الأيام ، فتبسم كافور إلى أبى اسحق النجيرمى . فقال أبو اسحق .

لا غَرْوَ أَن لَحَنَ الداعى لسيدنا ... وغَصَّ من هيبةٍ بالريق والبَهَرِ
فمثلُ سيدنا حالَتْ مهابته ... بين البليغ وبين القول ، بالحَصَرِ
فإن يكن خَفَضَ الأيامَ عن دَهَشٍ ... من شدة الخوف لا من قلة البصر
فقد تفاءلتُ فى هذا لسيدنا ... والفألُ نأثُره عن سيد البشر
بأن أيامه خفض بلا نَصَبٍ ... وأن دولته صفو بلا كدر

قال : فأمر له بثلاثمائة دينار ، ولابن عباس صاحب الغلط بمثلها .

هكذا أخبرنى المصرى فى خبر هذا الشعر . وأنه لأبى اسحق النجيرمى » .

وهناك رواية أخرى فى هذا الشعر وفى قائله ، وإن اتفقت الروايتان على أن الخطأ والشعر كانا فى مجلس كافور .

وقد سمعنا برسائل أرسلها كافور الإخشيد إلى عامله على دمشق كى يرسل إليه المتنبى ، فكتب إليه عامله إن المتنبى قال : لم أقصد العبد ، إن دخلت مصر فما قصدى إلا سيده (١) .

وكتب يطلبه من أمير الرملة أيضاً .

ولهذه الرسائل قيمتها فى الدلالة على حرص كافور على الأدب وعلى المتنبى خاصة .

---

(١) الصبح المنبى ، على هامش العكبرى ص ١٠٩ — ١١٠

الفصل السادس

الشعر إلى آخر بنى أمية

١ — إلى عبد العزيز بن مروان :

لعلك تحس بشىء من العجب إذ ترى الشعر متخلفاً عن ركب العرب الذين جاءوا إلى مصر فاتحين ؛ فليس فى آثار القوم الأدبية شىء من الشعر فى وصف فتوحهم العظيمة ، وليس فيما عندنا مقطوعة منه يفخرون فيها بهذه الفتوح ، ولا قصيدة يذكرون فيها شيئاً صادفهم ؛ مما يلفت النظر ، ويثير الخيال ، ويبعث ويبعث الدهش . وما أكثر ما صادفهم من ذلك فى هذه البلاد !

ولا أظن أن جيش هؤلاء الفاتحين خلا من شعراء تهزهم غرابة الحوادث ، أو يفتنهم جمال المناظر، أو يشوقهم ماخلفوا وراءهم من أحباب وأوطان وذكريات. فما الذى جعل الأدب العربى فى مصر إلى عهد معاوية خالياً من آثار الشعر ، لا نجد منه قصيدة أو مقطوعة ؟ وما نجده إلى عهد عبد العزيز قليل جداً ؟

قد يرجع ذلك إلى ما أصاب الشعر العربى كله من فتور وضعف فى صدر الإسلام ؛ إذ شغل المسلمون بالدين وبالفتوح ، وبما يناسبهما من دراسة وخطابة وكتابة . ولكن الدين والفتوح لا يحاربان الشعر فى جملته ، ولا يقضيان عليه من حيث هوشعر ، بل إن فى الدين والفتح قوة عظيمة تدفع إلى الشعر، وتحمل على الإجادة فيه ، ولكن الذى حدث فعلا أن أصيب الشعر العربى بذهول وفتور من أول الإسلام إلى عهد الأمويين تقريباً ، على أنه ظل محتفظاً بشىء من السلامة

والعافية فى بيئته العربية ؛ فى الحجاز ، وفى بعض الأماكن التى نزلها العرب كالعراق والشام . وكان هناك من يحتفظ بشاعريته ، ويحاول أن يثبت وجودها بين حين وحين ؛ مثل حسان ، وأبى محجن الثقفى ، والحطيئة وغيرهم . لكن الظروف التى هيأت للشعر أن يحيا حياة طيبة فى الجاهلية ، وفى عهد بنى أمية ، لم تتوفر فى تلك السنين التى بينهما .

ولا أظن هذه الفترة فى تاريخ مصر ، من عهد عمرو إلى عبد العزيز بن مروان ، قد أقفرت من شعراء سجلوا خواطرهم ومشاعرهم ؛ فى زمن الفتح ، وفى الثورة على عثمان ، وفى النزاع بين على ومعاوية ، وفى عهد الدولة السفيانية .

وقد نسب إلى عمرو نفسه أنه كان يقول الشعر ، وأن نفسه كانت نفس شاعر ، وكذلك كان أسلوبه . وكان عقبة بن عامر والى مصر لمعاوية سنة ٤٤ « قارئاً فقيهاً شاعراً ، له الهجرة والصحبة[١] » ، ولكنه لم يخلف بيتاً واحداً ، وربما منعه من قول الشعر بالفسطاط ، ما منع لبيداً قبله بالكوفة ، لأن الله قد أبد لهم خيراً منه وهو القرآن .

وأيّاً ما كان فإن رواية الشعر فى مصر كانت قليلة ، وكان للرواة مواطن أشهى وأعمر من مصر . فلم يبق من هذه الفترة إلا أبيات قليلة نسبت إلى شعراء مغمورين .

وقد تجد بيتاً أو بيتين أو ثلاثة ، تجهل قائلها ، أو تضل فى قراءتها ، ويخفى عليك معناها لانفرادها ، أو لغموض الظرف الذى أحاط بها .

وبقى من هذا القليل المفهوم بيت رجز أو بيتان ، من العهد الأول :

فقد غزا عبد الله بن سعد الأساود حتى بلغ دُمْقُلة سنة ٣١ فقاتلهم قتالا شديدا ، وهادنهم بعد ذلك ، فقال شاعرهم :

لم ترعينى مثلَ يومِ دُمْقُله ... والخيلُ تعدو بالدروع مُثْقَله[٢]

(١) الولاة والقضاة ص ٣٧ . (٢) الولاة والقضاة ص ١٢ .

ويروى أن جماعة المصريين الذين كانوا بالمدينة فى فتنة عثمان ، انصرفوا إلى مصر . فلما دخلوا الفسطاط ارتجز مرتجزهم :

خذها إليك واحذَرَنْ أبا حَسَنْ   إنا نُمِرُّ الحرب إمْرَارَ الرَّسَنْ
بالسيف كى تُخْمِدَ نيرانَ الفتنْ(١)

ولما دخلوا المسجد صاحوا : إنا لسنا قتلة عثمان ، ولكن الله قتله ، فلما رأى ذلك شيعة عثمان قاموا وعقدوا لمعاوية بن حُدَيج عليهم وبايعوه .

ومن هؤلاء الشعراء المغمورين رجل يقال له أبو المصعب البلوى ، وله قصيدة يهجو فيها بعض رجالات العرب فى مصر ، وكان معاوية كلما قدم عليه رجل سأله أن ينشده إياها . وليس فيها ما يستحق الوقوف عنده إلا الشتم(٢) .

ولو فهمناها على أنها من الشعر السياسى الذى يتخذ الهجاء صورة له ، عرفنا السر فى إعجاب معاوية بها ، وسؤاله كل قادم من مصر أن ينشدها ، ومنها :

وليس بماجِد الجدَّاتِ قيسٌ(٣)   ولكن حَضْرَمِيَّاتٍ قِمَاء
وأعرض نفحه اليَرْبوعُ عنى   يزيدٌ(٤) بعد ما رُفِع اللواءُ
أشار بكفه اليمنى وكانت   شِمالا لا يجوز لها عطاء
أُكَلِّمُ عائذاً(٥) ويصد عنى   ويمنَعُه السلامَ الكبرياءُ
وجُرْف قد تهدَّمَ جانباه   كُرَيبٌ(٦)،ذاكمُ البَرَمُ العَيَاءُ

---

(١) الولاة والقضاة ص ١٨ .

(٢) رواها ابن عبد الحكم فى « فتوح مصر » ص ١٢٣

(٣) قيس بن كليب ، كان حاجب عمرو بن العاص ، وصار حاجباً لعبد العزيز بن مروان بعد ذلك .

(٤) يزيد بن شرحبيل بن حسنة . والنفح = العطاء

(٥) عائذ بن ثعلبة البلوى ، قتل بالبرلس فى حرب مع الروم سنة ٥٣ هـ .

(٦) كريب بن أبرهة بن الصباح ، وكان من رجالات مصر فى ذلك العهد .

وأما القحزمى[١] فـذاك بغل أضرَّ بِهِ مع الدَّبَر الحَفَاءُ

ولهذا الشاعر قصيدة أخرى مدح فيها عبد الرحمن بن قيسية بنِ كلثوم التُجيبى ، الذى وهب أبوه داره لتكون مسجداً بالفسطاط . وبقى من هذه القصيدة قول أبى المصعب لعبد الرحمن :

وأبوك سَلَّم دارَه وأباحها لِجِبَاه قومٍ رُكَّعٍ وَسُجُود[٢]

ولا يعرف عن قائل هاتين القصيدتين إلا اسمه وكنيته . فاسمه قيس بن سلمة وكنيته أبو المصعب . ولا ندرى إن كان جاء إلى مصر مادحا أو مقيما .

وقال شاعر آخر اسمه أبو قَبَّان بن نُعيمٍ التجيبى ، مفتخراً بفتح بابليون ، ومادحاً فعل قيسية بن كلثوم ، فى تصدقه بداره لتكون مسجدا :

وبابِليُونُ قد سعدنا بفتحها وحُزْنا، لَعَمْرُ الله، فَيْئاً ومَغْنَما

وقيْسِيَّة الخير بنُ كلثوم ، دارَهُ أباحَ حماها للصلاة وسلَّما

فكل مُصَلٍّ فى فِنَانا صلاتُه تعارفَ أهلُ المصر ماقلتُ، فاعلما[٣]

فما الذى يدل عليه مدح شاعرين لهذا المتبرع ؟ إنه يدل على تعدد الشعراء ، وعلى أهمية بناء مسجد فى ذلك الوقت ، ويدل على منزلة هذا المتبرع ، وقد ذكر المقريزى أن المسجد الذى بنى مكان دار قيسية هو مسجد عمرو ، أو المسجد الجامع وهو أول مسجد بنى بمصر فى الإسلام .

وأمر معاوية واليه مسلمة بن مخلد فى سنة ٥٣ بالزيادة فى المسجد الجامع ، فهدم ما كان عمرو بناه وبنى آخر ؛ وأمر بابتناء منار المساجد كلها ، وهو أول من فعل ذلك .

---

(١) القحزمى هو عمرو بن قحزم الخولانى ، كان من شيعة عثمان .

(٢ ، ٣) خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٤٦ ، اسم الممدوح « قيسية » فى بعض الروايات

وقال رجل يسمى عابد بن هشام الأزدى يذكر فعل مسلمة ويمدحه (١) :

لقد مَدّت لِمَسْلمةَ الليالى على رغم العُداة مع الأمانِ
وساعده الزمان بكل سعد وبَلَّغه البعيدَ من الأمانى
أمَسْلَمَ فارتَقِى ، لا زلت تعلو على الأيام ، مَسْلَمَ ، والزمانِ
لقد أحكمْتَ مسجدَنا فأضحى كأحسنِ ما يكون من المبانى
فَتَاهَ به البلادُ وساكنوها كما تاهت بزينتها الغوانى
كأن تجاوُبَ الأصوات فيه إذا ما الليل ألقى بالجِران
كصوت الرعد خالطه دوِىّ وأرعَبَ كل مختطَفِ الجَنَانِ

وليس فى أسلوب هذه الأبيات الخمسة الأولى ، ولا عباراتها ، ما يصلها بالشعر الجيد فى ذلك العهد ، لأنها مهلهلة ؛ ليس فيها شيء من جزالة الشعر عندئذ ، بل إن روح الضعف البادى فيها تجعلها شبيهة بمؤرخ — لا شاعر — قالها بعد ذلك بقرون . وكيف ننسب قوله : « فأضحى كأحسن ما يكون من المبانى » — على جدته وحداثة تركيبه — إلى عهد معاوية ؟ وكيف نجعل « تيه البلاد وساكنيها بالمسجد مثل تيه الغوانى بزينتها » شبيها بذلك العصر ؟

ولكن هكذا روى الشعر وهكذا نسب .

ولما قدم مروان بن الحكم على مصر ، أجمع أهل البلاد على رده عنهم ، وكان عليهم عبد الرحمن بن جحدم عامل ابن الزبير ، وهو الذى حفر خندقا حول الفسطاط سنة ٦٤ فى شهر واحد ، فقال شاعر يعرف بابن أبي زمزمة الحسنى :

وما الجِد إلا جدّ ابن جحدم وما العزم إلا عزمه يومَ خندقِ

(١) خطط المقريزى ج ص ٢٤٨

ثلاثون ألفـــاً هم أثاروا ترابه   وخَـدُّوه فى شهر ، حديثُ مصدَّق[١]

وسارت ثلاثة جيوش لرد مروان ؛

أحدها فى البحر وعليه الأكدر بن حمام فنزل عاصف بالمراكب فغرقها ، ونجا أميرها وعاد إلى الفسطاط[٢] .

وأما الجيش الثانى فكان بريا ، وعليه السائب بن هشام بن كنانة العامرى ؛ فأخبر رَوُح بن زِنباع أميره مروان أن للسائب ابناً مسترضعاً فى فلسطين ؛ فأخذه . فلما التقى الجمعان أبرز مروانُ الصبىَّ ، وقال : أتعرف هذا يا سائب ؟ قال : هذا ابنى ! قال : نعم ، فوالله لئن لم ترجع عَوْدك على بدئك لأرميَنَّك برأسه . فرجع بجيشه ولم يقاتل .

وكان الجيش الثالث برياً أيضاً ، وعليه زهير بن قيس البلوى ، ووجهته « أيلة » ليمنع عبد العزيز من المسير إليها ، فالتقيا « ببُصاق » وهى سطح عقبة أيلة ، فهُزم زُهير ، ومن الغريب أنه قال لعبد العزيز مادحاً :

مَنَعْتَ بُصَاقاً والبطاحَ فلم تُرَمْ   بطاحُك لما أن حميتَ ذِمَاركا
قَسَرْتَ الأُلَى وَلَّوْا عن الأمر بعدما   أرادوا عليـه ، فاعلمَنّ ، اقتساركا

وسار مروان حتى نزل عين شمس ، فخرج إليه ابن جحدم ، فتحاربوا يوما أو يومين . ثم رجع المصريون إلى خندقهم ، فَصُفُّوا عليه ، فكانت تلك الأيام تسمى أيام « الخندق ، والتراويح » لأن أهل مصر كانوا يقاتلون نُوَباً ، يخرج هؤلاء ثم يرجعون ، ثم يخرج غيرهم ، واستحر القتل فى المعافر فقتل منهم جمع ، وقتل كثير من أهل القبائل من مصر ، وقتل من أهل الشام جمع كثير . قال عبد الرحمن بن الحكم[٣] :

---

(١) الولاة والقضاة ص ٤٢ ، خدوه = شقوه .

(٢) ص ٤٣   (٣) ص ٤٤

ألا هل أتاها على نأيهـــا ... نِـبَاءُ التروايح والخنــدقِ
بلغنا بفيلقَ يغشى الظِّرابَ ... بعيد الســمو لمن يرتقى
وجاشت لنا الأرض من نحوهم ... بحَيَّى تُجِيبَ ومن غافق
وأحياءِ مَذْحِج ، والأشعرينَ ... وحِمْيَر كاللهب المحرق
وسدت مَـعَافر أفْق البـــلاد ... بـرُعْـدِ جيشٍ لها مُبْـرِق
ونادى الـكُـمَاة : ألا فابرزوا ... فختـــام ، حتى ، ولا نلتقى
فلو كنت ، رَمْلةُ ، شاهدتِـه ... تمنيتِ أنكِ لم تخــلقى

وبايع الناس لمروان إلا المَـعافر ، فقتل عدداً كبيراً منهم ، وقتل الأكدر ابن حمام فى جمادى الآخرة سنة ٦٥ ، وكان سيد لخم وشيخها ، وممن حضر فتح مصر هو وأبوه ، وكانا ممن سار إلى عثمان . ومات فى اليوم نفسه عبد الله بن عمرو ابن العاص ، فلم يستطع الخروج بجنازته لتشغب الجند على مروان بسبب قتل الأكدر ، فدفن عبد الله فى داره ، وقال زياد بن قائد اللخمى يرثى الأكدر(١) :

كما لقيت لخمُ ما ساءها ... بأكدرَ ، لا يَـبْعَدَنْ أكدرُ
هو السيف أجرِدَ من غِمْـده ... فلاقى المنـــايا وما يشعرُ
فلهفى عليـــك غداةَ الردى ... وقد ضاق وِردُك والمصدرُ
وأنت الأسيرُ بلا مَـنْعة ... وما كان مثلُك يَسْتَأْسِرُ

هذه الأبيات القليلة التى جاءتنا من شعر ذلك العصر ، فيها الهجاء والفخر والرثاء والمدح والوصف ، ولكنها لا تصلح أساساً للحكم على الشعر عندئذ ، لقلتها ، ولما أصاب بعضها من تحريف جعل من العسير قراءته وفهمه فهماً صحيحاً .

---

(١) الـكندى ص ٤٦

(ب) عبد العزيز بن مروان :

إذا كان للشعر بواعث تثيره ، وعوامل تدعو إليه ، وظروف ترغب فى الرحلة به ، ومزايا تشجع على روايته ، فقد تحققت هذه فى زمن عبد العزيز بن مروان .

ولى عبد العزيز أمر هذه البلاد لأبيه ، ولأخيه عبد الملك ، أكثر من عشرين عاما (سنة ٦٥ — ٨٦) ، وفى عهده الطويل ازدهر الشعر ، ووفد الشعراء لمدحه وسنرى أن شخصية عبد العزيز وصفاته ، كانت من أكبر الأسباب التى جعلت مصر فى أيامه قبلة كثير من الشعراء ، ومطمع عدد من المادحين . وكان الذين قصدوا مصر لمدحه ، أكبر عدداً ممن وفدوا عليها من الشعراء فى أى عهد آخر ، ولا نعرف والياً غيره طال عهده فى البلاد كما طال عهد عبد العزيز ، مع العناية بالأدب والرواية ، والاهتمام بالمدح ووفادة الشعراء .

وكان قصره فى مصر شبيهاً بقصر أخويه ، عبد الملك فى دمشق ، وبشر فى العراق . فكانت قصورهم مثابة الشعراء ومنتدى الأدباء ، وكانت لهم فيها مجالس يُسقَوْن فيها من رحيق الأدب العربى ألذه ، ويسمعون من موسيقاه أحلاها ، ويستمتعون من نوادره بأعجبها ، ولهم فيه النقد القيم ، والتوجيه الحسن .

ولا ننسى أن عبد العزيز كان ولى عهد الدولة ، وكانت الآمال معلقة به بعد عبد الملك ، وكان له فى مصر نعيم وملك كبير .

ومن الذين وفدوا عليه بمصر :

١ — أيمَن بن خُريم بن فاتك الأسدى :

وهو شاعر من الذين كثر تقلبهم فى البلاد ، وتقلبهم فى العقيدة . فقد كان

أيمن شيعياً ، ثم تولى آل الزبير ، ثم انقلب أموياً ، ووالى عبد العزيز ، ثم مال عنه إلى بشر .

وقد جاء إلى مصر غاضباً من يحيى بن الحكم ، عم عبد العزيز ؛ كما خرج منها غاضباً ، لأن عبد العزيز فضل عليه شاعراً آخر ، هو نُصَيْب بن رباح .

كان مجيئه إلى مصر لمدح عبد العزيز ، ومن شعره فيه[١] :

لا يرغَبُ الناسُ أن يَعْدِلوا بعبد العزيز بنِ ليلى أميرا

ترى قِدْرَه مُعْمَلناً بالفِناءِ يَلْقَمُ بعد الجَزُورِ الجَزُورَا

وهو شعر عربى فى لفظه ومعناه ؛ فقد مدح عبد العزيز بما جرت به العادة ، إذ مدحه بالكرم ، وإطعام الطعام . وبمحبة الناس له ، حتى ما يرغبون أن يعدلوا به أميرا . وهو مدح هادىء معتدل ، لا مبالغة فيه ولا إسراف .

أما نسبة عبد العزيز إلى أمه فهى نسبة كان يحبها ، ويحب أن يراعيها الشعراء فى مدحهم له ، كما كان معاوية يحب هذه النسبة لشرف أمه . وما أباها عبدُ الملك فى مدح ابن قيس الرقيات له إلا لسبب آخر ، إذ أضاف الشاعر عبدَ الملك إلى « بطن عائشة » أمه ، فكره عبد الملك أن يتحدث عن بطن أمه فى الشعر .

وإذا أردنا أن نعرف منزلة أيمن عند عبد العزيز بن مروان فعلينا أن نقص بعض أخبار نُصَيْب فى مصر ، فإن لأيمن دوراً كبيراً فيها ، وكانت ذات أثر خالد فى حياته ، إذ قطعت صلته بعبد العزيز وبمصر .

روى الأغانى وفادة نصيب على عبد العزيز بروايات مختلفة ، تجمع كلها على أنه لقى أيمن عنده ، ونكتفى منها بما روى فى ترجمة أيمن نفسه ، قال أبو الفرج[٢] :

« دخل نصيب يوماً إلى عبد العزيز بن مروان ، فأنشده قصيدة له امتدحه بها

---

(١) الولاة والقضاة ص ٥٢ وأول المدح هناك « لا يرهب » وهو تحريف

(٢) ج ٢١ ص ٧

فأعجبته ؛ وأقبل على أيمن بن خريم فقال : كيف ترى شعر مولاى هذا ؟ قال : هو أشعر أهل جِلْدته . فقال : هو أشعر والله منك ! قال : أمِنِّى أيها الأمير ؟ فقال : إى والله . قال : لا والله ، ولكنك طَرِفٌ مَلُول . فقال له : لو كنتُ كذلك ما صبرتُ على مؤاكلتك منذ سنة ، وبك من البرص ما بك . فقال : ائذن لى أيها الأمير فى الانصراف . قال : ذلك إليك . فمضى لوجهه حتى لحق ببشر بن مروان ، وقال :

ركبت من المقطم فى جُمَادى　　إلى بشر بن مروان البريدا »

ومدح بشراً بأبيات ختمها بقوله :

« كأن التاج تاجَ أبى هِرَقْلٍ　　جلَوْه لأعظم الأيام عيدا

يحالف لونه ديباجَ بشر　　إذا الألوانُ حالفت الخدودا »

يعرض بنَمَشٍ كان بوجه عبد العزيز ، فقبله بشر بن مروان ووصله ، ولم يزل أثيراً عنده » .

ونرى أنفسنا فى هذه القصة أمام شاعر يفد على عبد العزيز ، فيقيم عنده عاما كاملا ، يجالسه ويؤاكله ، على الرغم من مرضه ، وتلك منزلة عالية نزلها أيمن بشعره ، ولا أدرى مبلغ ما أخذ من المال ، ولا عدد القصائد التى قالها فى مدح عبد العزيز فى ذلك العام ؛ ولا التى وفد بها إلى مصر . ولا ما أنشد وروى من أدب فى مجالس عبد العزيز ، ولا ما كان له من فضل فى تأييد سياسته والثناء على أفعاله .

ونجد أنفسنا أمام شاعر مُدِلٍّ بمنزلته عند الأمير ، جرىء عليه ، لا يخشى أن يخالفه فى الحكم على نصيب ، ولا أن يرد عليه رداً جافياً ، ولا أن يترك بلدته سريعاً حينما أحس أنها نَبَتْ به ، وأن جوار عبد العزيز لم يعد خصباً ممرعاً له وحده ؛ فاستأذن فى الرحلة إلى العراق ، واثقاً أنه سيجد باباً آخر يأتيه منه الرزق

رغداً ، والعطاء جزيلا .

ونجد أنفسنا أمام شاعر يخشى المنافسة ويحسب لها حسابا ، فيحاول أن يغض من قدر نصيب وإن رفعه الأمير ؛ إذ كان يتوقع تقدم منزلته ، وتقدير الأمير لشعره ؛ لما عليه الأمير من علم بالشعر ، ولما فى شعر نصيب من جمال ، وما فيه من ولاء وإخلاص .

وكان ما توقعه أيمن صحيحا فقد عظمت منزلة نصيب فيما بعد ، وتركه أيمن لنا نتحدث عنه فيمن قدموا مصر لمدح عبد العزيز .

٢ — نُصَيْبُ بنُ رَبَاح .

اتفق الرواة على أنه كان عبداً أسود ، وأنه كان مولى لبعض بنى كنانة ، وأنه وفد على عبد العزيز بن مروان بمصر ، فمدحه وصار مولى له .

ولكنهم يختلفون فى تفصيل ذلك اختلافا لا ينقض شيئاً مما تقدم ؛ فيختلفون فيمن أعتقه ، وفى زمن وفادته على عبد العزيز وأسبابها . وقد تقدم أنه لقى أيمن ابن خريم فى مجلس عبد العزيز ، وأن أيمن نقصه قيمته عند ما علم أنه شاعر . ومجيئه إلى مصر لا يخلو من قصص تشبه قصص المغامرات أحيانا ، وأول هذه وأقربها إلى الصواب ما يأتى :

كان نصيب يقول الشعر فيعجبه ، ثم عرض بعض شعره على مشيخة من بنى ضمرة بن بكر بن عبد مناة — وهم مواليه — ونسب بعض ما قاله إلى شعراء الجاهلية فأعجب به مواليه ، وقالوا : « هكذا يكون الكلام ! وهكذا يكون الشعر ! » فأخبرهم أنه شعره ، فشجعوه على الرحلة به إلى مصر لمدح عبد العزيز .

ثم عرف أخته أنه شاعر ، وأنه سيقصد عبد العزيز بمصر ليمدحه ، عسى أن يكون على يديه عتقه ، وعتق أمه وأخته ، ومن كان مرموقا من أهل قرابته . فقالت أخته : « إنا لله وإنا إليه راجعون ! يابن أُمَّ ، أتجتمع عليك الخصلتان : السواد وأن تكون ضحكة للناس » .

قال : قد قلتُ فاسمعي ، فأنشدَها فسمعَتْ ، « فقالت بأبى أنت ! أحسنتَ والله ! فى هذا والله رجاء عظيم ؛ فاخرج على بركة الله » ، فخرج على قَعُود له حتى قدم المدينة ، فلقى الفرزدق بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعرض عليه شعره ، فقال له الفرزدق : « ويلك ! أهذا شعرك الذى تطلب به الملوك ! إن استطعت أن تكتم هذا على نفسك فافعل » فتدفق عَرَق نُصَيْب . وسمع إنشاده وما قاله الفرزدق ، رجل من قريش كان قريبا فخصبه ، فذهب إليه نصيب فقال له القرشى : « ويحك ! أهذا شعرك الذى أنشدته الفرزدق ؟» فقال نعم ، فقال القرشى : « قد والله أصبت ، والله إن كان هذا الفرزدق شاعراً لقد حسدك . فإنا لنعرف محاسن الشعر ، فامض لوجهك ولا يكسرنك » .

فسره قوله وأعانه على المضى ، قال: « فقدمت مصر وبها عبدالعزيز بن مروان ، فحضرت بابه مع الناس فنُحِّيتُ عن مجلس الوجوه ، فكنت وراءهم ، ورأيت رجلا جاء على بغلة ، حسنَ الشارة سهلَ المدخل يؤذَن له إذا جاء ، فلما انصرف إلى منزله انصرفت معه أماشى بغلته ، فلما رآنى قال : ألك حاجة ؟ قلت نعم ، أنا رجل من أهل الحجاز شاعر ، وقد مدحت الأمير وخرجت إليه راجياً معروفه » فاستنشده الرجل ، فأنشده ، فقال له : « ويحك ! أهذا شعرك ؟ فإياك أن تنتحل ، فإن الأمير راوية عالم بالشعر ، وعنده رواة ؛ فلا تفضحنى ونفسك » . وطلب منه أن يقول أبياتاً يذكر فيها حوف مصر وفضلها على غيرها ؛ ففعل ، ولقيه من غده فأنشده :

سَرَى الهمُّ تثنينى إليك طلائعُه ... بمصرٍ وبالحوفِ اعترتنى روائعه
وبات وِسَادِى ساعدٌ قلَّ لحمه ... عن العظم حتى كاد تبدو أشاجعُه

ثم وصف الغيث بعد هذين البيتين اللذين لا يصلهما بمصر إلا ورود اسمها واسم حوفها فيهما ، ولكنه أجاد فى وصف الغيث .

فلما أتمها قال له الرجل : « أنت والله شاعر ! احضر حتى أذكرك للأمير . قال فجلست على الباب ودخل ، فما ظننت أنه أمكنه أن يذكرنى حتى دُعِىَ بى ، فدخلت فسلمت على عبد العزيز ، فصعَّد فىَّ بصره وصوَّب ، ثم قال : أنت شاعر ! ويلك ! » .

واستنشده شعراً فأنشده ، فأعجب به عبد العزيز ، واستأذن الحاجب لأيمن ابن خريم ، ولما اطمأن سأله الأمير أن يُقَوِّمَ نصيباً ، فقال : والله لنعم الغادى فى أثر المخاض ، وقَوَّمه بمائة دينار ، فلما علم أنه شاعر نقص قدره إلى ثلاثين ديناراً . وتستمر القصة بعد ذلك كما تقدمت فى الكلام على أيمن مع فرق يسير فى التعبير(١)

وفى رواية أخرى أن عبد الله بن أبى فروة أول من نوه باسم نصيب . وقدم به على عبد العزيز بن مروان ، « وهو وصيف حين بلغ ، وأول ما قال الشعر » ، فلما أعجب عبد العزيز بشعره قال : « إذا دعوت بالغداء فأدخلوه على فى جبة صوف ، محتزماً بعقال ، فإذا قلت قوموه فقوموه وأخرجوه ، وردوه على فى جبة وشى ، ورداء وشى » ففعلوا ، وكان أيمن حاضراً هذا المجلس ، فنقص قيمته حين أخبر أنه شاعر ، فكان بين الأمير وبينه ما تقدم .

وتنتهى هذه الرواية بأن أيمن جاز بعبد الملك فى طريقه إلى بشر ، فقال له : أين تريد ؟ فقال أريد أخاك بشراً . قال : أتجوزنى ! قال : إى والله أجوزك إلى من قدم إلى وطلبنى ، قال : فلم فارقت صاحبك ؟ قال : : رأيتكم يا بنى مروان تتخذون للفتى من فتيانكم مؤدباً ، وشيخكم والله محتاج إلى خمسة مؤدبين ! فسر ذلك عبد الملك ، وكان عازماً على أن يخلعه ويعقد لابنه الوليد(٢) .

وإذا صحت هذه الرواية كانت وفادة نصيب على عبدالعزيز فى أواخر أيامه بمصر ،

---

(١) الأغانى جـ ١ ص ٣٢٩ (٢) الأغانى الأغانى جـ ١ ص ٣٣٢

عندما كاتبه عبد الملك لينزل عن ولاية العهد لابنه الوليد [١] .

ولكن أخبار نصيب مع عبد العزيز تشير إلى أنه مدحه أكثر من مرة ، ووفد عليه أكثر من مرة ، وأنه أمره فى أول خروجه إليه أن يرجع إلى مواليه فيشترى نفسه ثم يعود . ففعل .

ومن طريف الروايات ، وأدخلها فى باب القصص [٢] أنه كان يرعى إبلاً لمواليه فأضل منها بعيراً ، فخرج فى طلبه حتى أتى الفسطاط ، وبه إذ ذاك عبد العزيز بن مروان ، فرآه أهلا لحاجته ، فاستأذن عليه ، وأخبر الحاجب أنه قد هيأ له مدحاً . فلما أخبر الحاجب عبد العزيز بسواده ، ورغبته فى المديح ، ظن أنه ممن يُهزأ به ويضحك منه . فقال للحاجب : مُرْهُ بالحضور ليوم حاجتنا ، فغدا نصيب وراح إلى باب عبد العزيز أربعة أشهر ؛ وأتاه آت من عبد الملك فسره ، فأمر بالسرير فأبرز للناس ، وقال : علىّ بالأسود ، وهو يريد أن يضحك منه الناس ، فدخل ، فلما كان حيث يسمع كلامه قال :

لعبد العزيز على قومه ... وغيرِهمُ نِعَمٌ غامره
فبابُكَ ألين أبوابهم ... ودارُكَ مأهولة عامره
وكلبُك آنَسُ بالمعتفين ... من الأم بالابْنَةِ الزائره
وكفُّك حين ترى السائليـ ... ـن أندى من الليلة الماطره
فمنك العطاء ومنى الثناء ... بكل مُحَبَّرَةٍ سائره

فقال : أعطوه أعطوه ، فقال : إنى مملوك ، فدعا الحاجب فقال : اخرج فأبْلغ فى قيمته ، فدعا المقومين ، فقال : قوّموا غلاماً أسود ليس به عيب ، فقالوا . مائة دينار . قال : إنه راع للابل يبصرها ويحسن القيام عليها . قالوا : حينئذ مائتا

(١) ص ٩١ من هذا الكتاب .

(٢) الأغانى ج ١ ص ٣٣٣ .

دينار، قال: إنه يبرى القِسِى ويثقفها ، ويرمى النبل ويريشها . قالوا : أربعمائة دينار . قال : إنه راوية للشعر بصير به ، قالوا ستمائة دينار. قال : إنه شاعر لا يلحق، حذقاً . قالوا : ألف دينار ، قال عبد العزيز : ادفعوها إليه . قال : أصلح الله الأمير ، ثمن بعيرى الذى أضللت .·. قال : وكم ثمنه ؟ قال : خمسة وعشرون ديناراً ، قال ادفعوها إليه . قال : أصلح الله الأمير . جائزتى لنفسى عن مديحى إياك . قال : اشتر نفسك ، ثم عد إلينا » .

وقد فعل ، وعاد إليه لمدحه .

هذه قصص عن وفادة نصيب ، أو روايات متعددة ، وليس يضير هذا الكتاب أن يطول الحديث فيه عن وفادة نصيب ، ففى كل قصة منها من الإمتاع والطرافة ما يجعل روايتها لازمة للتسلية والسرور .

وهى تتصل بموضوعنا من قريب ، وفيها من الدلائل النافعة لمؤرخ الأدب والمعقب عليه ما يجعل روايتها واجبة .

وانظر إلى هذه الوفادة كما تقدمت ، تجد :

١ — أن عبدالعزيز كان مقصد الشعراء ، وكان « مُمَـدَّحا » يفد عليه الشعراء لمدحه ، وأخذ جوائزه .

٢ — وأنه كان أديباً ناقداً راوية ، وحوله رواة ، فلا يستطيع منتحل أن يحظى عنده .

٣ — وأن الشعراء الناشئين كانوا إذا رغبوا فى الرحلة إليه — أو إلى غيره من الأمراء الأدباء — اختبروا شعرهم قبل مقدمهم على هؤلاء الأمراء ، فكان خوفهم داعياً إلى الحرص على الإجادة .

٤ — وأن الشعراء كانوا يتنافسون ، لما يعرفونه من الشهرة المنتظرة ، والخير

المرتقب لمن ينال ثقة أمير أو خليفة . وكان كل منهم يطمع أن يكون صاحب المنزلة الأولى .

٥ — وما كان الشعراء يجدون بأساً فى الطلب من الأمراء ، إذ كان عطاء الأمراء جزيلا ، يغنى من فقر ، ويرفع من ضعة .

٦ — وكان الشعر تاريخاً يسجل حوادث عصره فى بعض نواحيه ، وإن كان تاريخاً متهماً بالميل مع الهوى ، والقول كما ترغب السياسة .

وكانت نعم عبد العزيز غامرة على نصيب وعلى غيره ، وقد أبطأت جائزته عند عبد العزيز يوماً ، فقال :

وإن وراء ظهرى يابن ليلى ... أناساً ينظرون متى أءوبُ
أُمامَةُ منهمُ ولمأْقِ عينيها ... غداةَ البين فى أثرى غُروبُ (١)
تركتُ بلادها ونأيتُ عنها ... فأشبه ما رأيتُ بها السَّلوبُ (٢)
فأتْبِعْ بعضَنا بعضاً فلَسْنا ... نُثِيبُكَ ، لكنِ اللهُ المُثيبُ

فعجل جائزته وسرحه .

وكان يرحل إليه كل عام فيجيزه ويحسن صلته ، فقال نصيب (٣) .

يقول فيحسن القولَ ابنُ ليلى ... ويفعل فوق أحسنِ ما يقولُ
فتى لا يَرْزَأُ الخلان إلا ... مودَّتهم ، ويرزَؤه الخليل
فَبَشِّرْ أهلَ مصرَ فقد أتاهم ... مع النيل الذى فى مصر نيل

---

(١) مأقى العين = حرفها الذى يلى الأنف ، والغروب = الدموع حين تخرج من العين ، واحدها غرب .

(٢) الظبية السلوب والسالب ، التى سلبت ولدها ، والمراد أن أمامة كثيرة البكاء والدمع ، كالظبية التى فقدت ولدها .

(٣) الأغانى ج ١ ص ٣٥٢

ومدح نصيب ليس تقليدا ، إذ أنه نتيجة تجربة خاصة فى القصيدة التى استعجل فيها العطاء ، فأثار العطف ، بذكر أولئك الذين تركهم ينظرون متى يئوب ، وبالحديث عن بكائهم من أجل فراقه ، ولكن الصورة عربية لحماً ودماً ، وبخاصة فى تشبيه أمامة بالظبية التى سلبت ولدها فلا تزال تبكيه حتى يعود .

وفعل نصيب ما فعله أيمن فى مدح عبد العزيز ، فمدح « ابن ليلى » بالكرم ، وأنه يفعل فوق أحسن ما يقول . ولكنه رأى النيل بمصر وأحس به ، فخرج عن الطريقة التقليدية فى تشبيه الكريم بالبحر ، وشبه عبد العزيز بالنيل ، وبشر به أهل البلاد .

ومرض عبد العزيز فاستأذن عليه نصيب ، فأذن له : فقال يدعو له بالشفاء ، ويفديه لو كان يُقْبَلُ الفداء :

ونزور سيدَنا وسيدَ غيرِنا ليت التَّشَكِّى كان بالعُوَّادِ
لو كان يَقبلُ فِدْيةً لفديته بالمصطفى من طارِفِي وتِلادى

فلما سمع عبد العزيز شعره ، فتح عينيه ، وأمر له بألف دينار[١] .

وحفظ نصيب معروف عبد العزيز ، وأثنى عليه حياً وميتاً . فإن عبد العزيز مات فى طاعون حل بمصر سنة ٨٦ هـ ، وكان موته بقرية يقال لها « سُكَر » خرج إليها فراراً من الوباء ، فقال نصيب يرثيه[٢] :

أصبت يوم الصعيد من « سُكَر » مصيبةً ليس لى بها قِبَلُ[٣]

---

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ٢٣٧

(٢) الأغانى ج ١ ص ٣٦٠

(٣) « سكر مدينة من مدن الإطفيحية ، تجاهها واد به إلى وقت المقريزى ، جمل من الحجر » ، « الخطط ج ١ ص ٣٣١ » . ونسب هذا البيت إلى كثير في رثاء غير عبد العزيز. الولاة والقضاة ص ٦٦ »

تالله أنْسَى مصيبتى أبــدا ما أسمَعَتْنِي حنينَهـا الإبلُ
ولا التَّبَكى عليـــه أعْوِلُه كلُّ المصيباتِ بعدَه جَلَلُ(١)
لم يعلَمِ النَّعْش ما عليه من الـ عُرْف ولا الحاملونَ ما حملوا
حتى أجَنُّوه فى ضَريحِهِمُ حينَ انتهى من خَلِيلِه الأمَلُ

وسأله عبد الملك أن ينشده بعض مارثى به أخاه عبد العزيز ، فأنشده هذه القصيدة(٢) :

عرفتُ وجرَّبتُ الأمورَ فما أرى كماضٍ تلاهُ الغابرُ المتأخرُ(٣)
ولكنَّ أهل الفضلِ من أهل نعمتى يمرُّون أســـلافاً أمامِى وأغبرُ
فإن أبكه أعْذَرْ ، وإن أغلِبِ الأسى بِصَبْرٍ فمثلى عندما اشتدَّ يَصْبِرُ
وكانت رِكابى كلما شئتُ تنتحى إليك ، فتقضى نحْبَها وهى ضُمَّر
ترى الوِرْدَ يُسْراً، والثواءَ غنيمةً لديك ، وتُثْنِى بالرضاحين تصدُرُ
فقد عَرِيَتْ بعد ابنِ ليلى ، فإنما ذراها لمن لاقَتْ من الناس مَنظرُ
ولو كان حيًّا لم يزل بدُفوفها مَرَادٌ لغربانِ الطريق ومنْقَرُ(٤)
فإن كُنَّ قد نِلْنَ ابنَ ليلى فإنه هو المصطفَى من أهله المُتَخَيَّر

وإذا كان فى القصيدة الأولى أثر الحسرة والبكاء على عبد العزيز ، فإن القصيدة الثانية تميل إلى الحديث عن آثار نعمته على نصيب ، وما كان يعطيه من مال ، وما كان لنصيب من رحلات كثيرة إليه أهزلت راحلته ؛ وتذكر أنه كف عن ذلك

---

(١) جلل = صغيرة .
(٢) الأغاني ج ١ ص ٣٦١
(٣) الغابر = الباقى .
(٤) الدفوف جمع دف وهو الجنب .

وأراحها بعد موته ، لأنه لم يعد هناك من يقصده من الممدوحين ، وأخيراً يمدح « ابن ليلى » بأنه المصطفى من أهله والمختار منهم . فيذكره منسوباً إلى أمه لعله يرضيه بهذه النسبة ميتاً كما كان يرضيه بها حياً .

ولما سمع عبد الملك قوله :

فإن أبْكه أعذَر ، وإن أغلب الأسى بصبرٍ فمثلى عندما اشتد يصبر

قال له : ويلك ! أنا كنت أحق بهذه الصفة فى أخى منك ! فهلا وصفتنى بها ! وجعل يبكى .

وحفظ نصيب جميل مولاه ؛ فبكاه ورثاه أكثر من مرة ، وروى له الكندى قصيدة فى رثائه ورثاء ابنه الأصبغ الذى توفى قبله بشهرين (١) ، ومنها :

هما أخواى الصالحان تواليا بحمد فهدَّا للفراق أخاهما

جزى خيرُ مولىً مولَيَيَّ ، ولا جزى من الناس خيراً من أحب رداهما

ولا أدرى من أين جاءت هذه الأُخوة بين نصيب وبينهما ، وكيف اجترأ على تلك المنزلة ؟ ولقد عرَّض ؛ ودعا على من أحب رداهما ؛ ولا أظنه كان يقصد عبد الملك أو ابنه الوليد ، فليست به حاجة إلى عداوتهما بعد موت عبد العزيز ، وليس فى قدرته أن يعاديهما ، وهو يأمل فيهما الخير والعطاء الجزيل .

٣ — ابن قيس الرقيات :

وهو شاعر مادح ، أراد يوماً أن يكون له مبدأ ، فوالى ابن الزبير فى سلطانه ثم دار الزمان ، وصار الأمر لبنى أمية ، فلفظته البلاد إليهم ، وتشفع بابن جعفر لديهم فعفا عنه عبد الملك وقبل مدحه . وله عليه بعض النقد ، والمآخذ المشهورة .

---

(١) الولاة والقضاة ص ٥٦

ومما يَسَّر لابن قيس الرقيات موالاة بنى أميه ، وهونه على نفسه ، أنه كان يؤمن بقريش ؛ وهؤلاء منها فى المحل الأرفع ، وأعلاهم قدراً هو عبد الملك .

ووفد على عبد العزيز بمصر فمدحه ، وامتاز على غيره من مادحيه بالحديث عن بعض المناظر فى مصر ، وربما كان الباقى من شعره فى الوصف أكثر من أى شاعر آخر فى عهد بنى أميه على قلته ومن قصائده المشهورة فى مدحه قصيدته البائية (١)

لم يَصْحُ هذا الفؤادُ من طَرَبه ... ومَيْله فى الهوى وفى لَعبه
أهلا وسهلا بمن أتاك من الرَّ ... رقة يَسْرِى إليك فى سُخُبِه (٢)
باتت بحلوان تبتغيك كما ... أرسلَ أهل الوليد فى طَلَبه
فدلَّها الحب فاشتفيت كما ... تَشْفِى دماء الملوك من كَلَبِه (٣)

وفى هذه المقدمة كثير من الالتفات والانتقال كالحديث عن فؤاده ، وعن خيال المحبوب ثم مخاطبة نفسه ، ثم الحديث عن تلك التى باتت بحلوان تبتغيه ودلها الحب عليه . ولا شك أن هذا الالتفات أحدث غموضاً فى الأبيات مجتمعة .

ثم يقول فى وصف حلوان ونخلها :

سَقْياً لحلوانَ ذِى الكروم وما ... صُنِّفَ من تينه ومن عنبه
نخلٌ مواقيرُ بالْفِنَاءِ منَ الْـ ... ـبرْنِىِّ ، غُلْبٌ ، يهتز فى شرَبه (٤)
أسْوَدُ سُكانِه الحمام فما ... تنفكُّ غِرْبانه على رُطَبِه

---

(١) ديوان ابن قيس الرقيات ص ٨١

(٢) جمع سخاب بكسر السين وهى قلائد من الزهر وفسرها فى الديوان بأنها ضرب من الثياب والحلى .

(٣) الكلب : داء يصيب من عضه الكلب المسعور ، وعند العرب لا يبرأ المكلوب حتى يسقى دماء ملك شريف .

(٤) مواقير : مثقلة . والبرنى : التمر . الشرب : حوض حول أصل النخلة فيه ماء يسقيها . غلب : جمع غلباء ، وهى النخلة المتكاثفة الكثيرة السعف .

وقد كانت حلوان عامرة فى أيام عبد العزيز ، وكانت جديرة بأ كثر من قصيدة فى وصفها والحديث عن عمارتها ، ولكن ابن قيس جاء مادحاً للامير ، وكفاه هذه الأبيات الثلاثة فى الوصف .

ثم يبدأ المدح فيقول :

أَثْنِ على الطيب ابنِ ليلى ، إذا … أثنيت ، فى دينه وفى حسبه
من يصدق الوعد والقتال ، ويخ … شى الله فى حلمه وفى غضبه
ومن تفيضُ الندى يَداه ، ومن … ينتهِب الحمدَ عندَ مُنْتَهبه
أمُّكَ بيضاء من قُضَاعَةَ فى الـ … بيت الذى يُسْتَظَلُّ فى طُنُبه
وأنت فى الجوهر المهذب من … عبد مَنَاف ، يَدَاكَ فى سببه[1]
يخلفك البيض من بنيك كما … يَخْلُفُ عود النضار فى شُعَبِه
ليسوا من الخروع الضعيف ولا … أشباهَ عيدانه ولا غَرَبه

وابن قيس ينوع فى مدحه ، فيمدح عبد العزيز بالدين والحسب والشجاعة ، والوفاء ، وخشية الله فى الحلم والغضب ، وبأنه رجل كريم كل أفعاله محمودة . وبأن أمه بيضاء ، وأصلها ثابت ، وملجأ للناس ؛ وأن آباءه كرام الأصل ، فهو من عبد مناف ، وفى الجوهر المهذب منهم . أما أبناؤه فليس فيهم خور ولا ضعف ، بل إنهم صلاب شداد . وهذه الصفات الكثيرة التى تضمنتها هذه الأبيات القليلة قد صيغت صياغة جميلة ، فجاءت أبياتها سائغة عذبة ، ليس فيها شىء من الضعف الذى تحس به عند خروج الأدب إلى السرد والتعداد .

أما قصيدته القافية[2] فى مدح بنى أمية عامة ، فتفضلهم على قوم لم يعينهم

---

(١) فى سببه : مستمسكة به ، والضمير للجوهر أو للبيت .

(٢) الديوان ص ٢٦٤

فيها ، ولم يعيبهم ظرف هذه القصيدة كما رواه الديوان والمؤرخون .

وقال ابن قيس الرقيات فى ذلك :

لَحَيٌّ من أميـــة ليـ	س فى أخـــلاقهم رَنَق
يكون لخابط المعرو	ف فى واديهـــمُ وَرَق
أحبُّ إلىَّ من قـوم	إذا ما أصبحوا نعقوا

وقد كان موسى بن نصير والياً على المغرب لعبد العزيز ، ففتح الله عليه الفتوح بالمغرب . وخرج عبد العزيز إلى الإسكندرية للمرة الثالثة سنة ٨١ ، وخرج معه إليها وجوه الناس من الأشراف والشعراء . ووصف ابن قيس عودة الركب كله ؛ وخص السفن المصعدة فى النيل إلى حلوان جماعات ، من قرية الـكِـرْيَوْن قرب الإسكندرية وأشار إلى ما كانت تحمله من أنواع الحرير والخز وخمل الأرجوان . وختم ذلك بمدح عبد العزيز بن ليلى . قال :

غدوا من مَدْرَج الـكِـرْيَوْ	نِ حيثُ سفينهم حُزُق (١)
كما يَغْدُو نِـشَاصٌ من	سـحاب الصيف منطلقُ (٢)
فلمـا أن علونَ النيـ	ـل والراياتُ تختفـــقُ
رأيت الجـوهَـرَ الحـكمِـ	ـىَّ والديبـــاجَ يأتـلِقُ
وخـزَّ السـوسِ والإِضريـ	ـجَ فَـصَّلَ بينَـه السَّرقُ (٣)
وخَمْـل الأُرْجُـوانِ على السَّـ	ـفِـينِ كأنه العَـلَق
سـفائنَ غيرَ مُقْلَـعَةٍ	إلى حـلوانَ تسـتبق

---

(١) حزق : جماعات .

(٢) نشاص : (بفتح النون وكسرها) مرتفع ومتراكم .

(٣) أنواع من الحرير جىء بها من بلاد المغرب ، بلاد السوس على شـاطىء المحيط الأطلسى فى مراكش . والسرق = شقق من الحرير الأبيض .

ثم يثنى على حلوان ، وما ارتفع قدرها إلا بعبد العزيز ، فيقول :

محلٌّ ، من يحل به لذيذٌ عيشُه ، غدق
يحل به ابن ليلى والنـ ـدى والحلم والصِّدق
تكون جفانه رُذُما فمصبوح ومغتَبَق (١)
إذا ما أزحفت رُفَق أتت من دونها رفق

ومن مدائحه فى عبد العزيز قصيدته الميمية التى مطلعها :

طرقته أسماء أم حَلَما أم لم تكن من رِحالنا أَمَما

أما أول المدح فهو قول لا ترتاح إليه النفس ولا يهدأ عنده القلب ؛ لأنه أشبه بالرثاء . ولا يخفف منه الاستثناء الذى جاء به فى البيت ، يقول :

فُجِعْتُ بالغُرِّ من أُمَيَّةَ حا شى واحداً تَنْجَلِى بِهِ الظُّلَما
أعنى ابنَ ليلى عبدَ العزيز ببا بِليُونَ تغدو جفانُهُ رُذُما (٢)
يلتفُّ الناسُ حول مِنْبره إذا عَمُودُ البرِيَّةِ انهدما
مُجَرَّبُ الحزم فى الأمور ، وإنْ خَفَّتْ حُلُومٌ بأهلها حَلُما
ينتهِب الحمدَ باليدين كما ناهَبَ فرسانُ غارةٍ نَعَما
أغَرُّ ، أشياخه العُصاةُ ، بَنُو أُمَيَّةَ ، المرْغِمُونَ من رَغِما (٣)
أشياخ صِدْقٍ نُمُوا بمعتلج الـ ـبَطْحاءِ كانُوا لقومهم عِصَما
نالوا مواريثَ من جدودهم فورَّثوها مَرْوانَ والحَكَما

(١) رذما ممتلئة تفيض جوانبها من الشحم .

(٢) الديوان ص ٢٥٥

(٣) بابليون : حصن بناه الفرس ، ومازالت آثاره باقية إلى الآن جنوب الفسطاط ، واسمه عند العرب قصر الشمع .

أهل الحمالات والدَّسيعَةِ والـ ـمـفنُونَ عند الشدائد البَهَما(١)
اخْتَرتُ عبد العزيز مرتَغباً والله للمرء خيرُ مَنْ قَسَما
من البهاليل من أميــة ، يز داد إذا ما مدحته كَرَما(٢)
لا يحسب المدحة الخداعَ ، ولا يُدْرِكُ تيـــارَهُ إذا التطما
جاءت به حُرَّةٌ مهـذبة كلبية كان بيتها دعما

وتدور معانى المدح عنده فى دائرة المتعارف المتفق عليه من صفات الفضل والكرم فى الفرع والأصل ، كما كانت عند أكثر شعراء ذلك العصر .

٤ — عبد الله بن الحجاج(٣) :

شاعر آخر من مادحى عبد العزيز وهو شاعر فاتك شجاع ، من معدودى فرسان مضر ، ذوى البأس والنجدة فيهم ، خرج مع عمرو بن سعيد على عبد الملك ، فلما قتل عمرو خرج مع نجدة بن عامر الحنفى ، ثم هرب فلحق بعبد الله بن الزبير حتى قتل ، ثم جاء إلى عبد الملك متنكراً ، واحتال عليه حتى أمَّنه .

ورحل إلى عبد العزيز ، ومدحه بمصر .

يقول أبو الفرج(٤) : « ونسخت من كتاب ثعلب عن ابن الأعرابى : قال : وفد عبد الله بن الحجاج إلى عبد العزيز بن مروان ومدحه ، فأجزل صلته ، وأمره بأن يقيم عنده ، ففعل ، فلما طال مقامه اشتاق إلى الكوفة وإلى أهله ، فاستأذن عبد العزيز فلم يأذن له ؛ فخرج من عنده غاضبا ، فكتب عبد العزيز إلى أخيه بشر أن يمنعه عطاءه ، فمنعه ، ورجع ابن الحجاج ، لما أضرَّ به ذلك ، إلى عبد العزيز ، وقال يمدحه ويعتذر :

---

(١) الحمالات جمع حمالة بفتح الحاء = الدية يحملها قوم عن قوم . الدسيعة = العطية العظيمة . البهم جمع بهمة ، وهى صغار الضأن والمعز والبقر .
(٢) البهاليل جمع بهلول ، وهو السيد الجامع لكل خير .
(٣) الأغانى جـ ١٢ ص ٢٤ (٤) شرحه ص ٢٩

تركت ابن ليلى ضلةً وجريمة ... وعند ابن ليلى مَعْقِل ومُعوَّل
ألم يَهْدِنى أن المَراغَم واسعٌ ... وأن الديارَ بالمقيم تنقَّل(١)
سأُحْكِم أمرى إذ بدا(٢) لى رُشْدُه ... وأختارُ أهل الخير إن كنت أعقل
وأترك أوطارى وألحق بامرئ ... تُحلِّبُ كفَّاهُ الندى حين يُسأل
أبت لك يا عبد العزيز مآثرٌ ... وجرْىٌ شأى جرْىَ الجياد، وأول
أبى لك، إذ أكْدَوْا، وقلَّ عطاؤهم، ... مواهبُ فياض ومجدٌ مؤثَّل(٣)
أبوك الذى ينميك، مَرْوانُ، للعلا ... وسعد الفتاة الخالُ، لا من يُخَوَّل

فقال له عبد العزيز: أما إذ عرفتَ موضع خطائك واعترفت به، فقد صفحت عنك. وأمر بإطلاق عطائه، ووصله، وقال له: أقم عندنا ما شئت، أو انصرف مأذوناً لك إذا شئت.

٥ — كثير وجميل:

ووفد عليه كثير بمصر مراراً. ويروى أنه كان قصيراً لا يزيد طوله على ثلاثة أشبار، وكان إذا دخل على عبد العزيز يمازحه ويقول له: «طأطئ رأسك لا يصيبه السقف». ويقال إنه دخل عليه يعوده فى مرضه وأهله يتمنون أن يضحك. فلما وقف عليه قال: «لو أن سرورك لا يتم إلا بأن تَسْلمَ وأسقَم، لدعوت ربى أن يصرفَ ما بك إلى، ولكنى أسأل الله تعالى لك العافية، ولى فى

---

(١) المراغم = الطريق، يراغم الرجل أهله بسلوكه. أى يفارقهم على رغم أنوفهم.
(٢) رويت «أو» فى الكندى، وأظنها «إذ».
(٣) شأى = سبق. أكدى = قطع عطاءه وأمسك خيره.

كنفك النعمة » . فضحك عبد العزيز وسُرَّ أهله[١] .

وهو شبيه بما قاله نصيب له عندما زاره وهو مريض[٢] .

وأما جميل بن معمر[٣] فقد أشار في قصيدته الدالية إلى رحلته إلى مصر ، وإلى تحسر بثينة على فراقه عندئذ ، فقال :

وما أنس مِ الأشياء لا أنس قولها　　وقد قرُبت نضْوِى ، أمصرَ تريد ؟

وكان قدوم جميل إلى مصر لمدح عبد العزيز بن مروان ، وإن كانت شهرته في الغزل غالبة ، وأذن له عبد العزيز ، وسمع قصائده ، وأحسن جائزته . وسأله عن حبه لبثينة ، وأمره أن يقيم معه في مصر في منزل أعده له . ولم يلبث جميل إلا قليلا حتى وافته منيته بمصر سنة ٨٢ هـ . ونعى نفسه قبل موته فقال :

بكر النعيُّ وما كنَى بجميل　　وثوى بمصر ثَوَاءَ غير قُفُول

قومى بثينة فاندبى بعويل　　وابكى خليلك قبل كل خليل

وليس غريباً أن يجيء هذان الشاعران إلى مصر كما جاء غيرهما ، حيث النعم الغامرة ، والعطاء الجزيل ، والتقدير الصحيح للأدب ، والتذوق السليم لشعره ونثره وأخباره .

وهذه المدائح التي تقدمت في عبد العزيز متشابهة المعاني والصفات ، مثل كرم الأصل والفرع ، وعلو النفس ، والسخاء ، والجود ، وحسن القول والفعل ، وقد يُمْدَح بالدين والملك .

ولكن لكل من هؤلاء الشعراء فنه وطريقته في التعبير وأسلوبه الذى يميزه عن غيره . من أجل هذا ظهر كل منهم مستقلا عن غيره ، متميزاً في فنه وطريقته :

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٢٧ ، زهر الآداب جـ ٢ ص ١٦٩

(٢) ص ١٤٤ من هذا الكتاب .

(٣) الأغانى جـ ٧ ص ٧٩ ، ص ١٠٣ . حسن المحاضرة للسيوطى جـ ١ ص ٣٢٢

يقرأ القارىء شعر الواحد منهم فيشعر بجدة وتنوع واستقلال ، بل إن قصائد الشاعر الواحد تترك مثل هذا الشعور عند القارىء ؛ بسبب مهارة أولئك الشعراء وحسن تصرفهم فى التعبير ، ومقدرتهم على إظهار المعانى فى صورة تزينها موسيقى الألفاظ ، وجمال النغم ، وحسن النظم .

وكثر رثاء عبد العزيز كما كثر مدحه ، بل إن فيمن رثوه قوماً لم نسمع بمدحهم له : ومن هؤلاء ذو الشامة ، محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبه بن أبى معيط ، وقد رثاه ورثى ابنه الأصبغ الذي توفى قبله بشهرين قال[1] .

فما مصرُ لى بعد عبدَ العز ... يز والأَصْبَغ الخير بالمونقَه
سقى الله قبريهما ، والصَّدى ... وماجا وَرَا ، دِيْمَةً مُغْـدِقه
فإن تَكُ مصر أشارت بها ... إلى الشر يوماً يَدٌ مُوبِقه
فقِدماً تَقَرٌّ بمصر العيو ... ن فى لذة العيش محدودِقه

ورثاهما سليمان بن أبى حدير الأنصارى ، ومن ذلك قوله فى عبد العزيز[2] :

فمن ذا الذى يبنى المكارم والعلا ... ومن ذا الذى يهدى له بعدك السفرُ
فكنت حليف العرف والخير والندى ... فمتن جميعاً حين غيبك القبر

ولقد كان عهد عبد العزيز أزهى عصور الشعر فى عهد الولاة ؛ وكانت شخصيته أكبر مشجع على وفادة أولئك الشعراء ، فلما قل العطاء قلت الوفادة أو انقطعت ، ولم نعد نسمع بها إلا قليلا . وقد يكون ذلك من الأسباب التى هيأت الفرصة فيما بعد لظهور الشعراء المقيمين ، ولعناية الرواة بشعرهم .

(١ ، ٢) الولاة والقضاة ص ٥٦

(ح) من عبد العزيز إلى العباسيين .

وروى لنا شعر عربي فى مصر بعد عبد العزيز بن مروان ، بعضه قادم من بلاد أخرى للمدح ، وبعضه مصرى الدار والحوادث والمناسبات ، ولكنه فى جملته شعر ضعيف مقتضب محرف ، احتفظت به كتب التاريخ استشهاداً على حادثة ، أو تأييداً لخبر ، أو دليلا على صدق رواية ، أو بياناً لخلق أحد من الولاة ، أو رثاء لشهيد ؛ أو شبه ذلك مما يهم المؤرخ أن يشير إليه ، ويؤيده بالدليل الأدبى من شعر أو نثر .

ولا نسمع بشاعر قدم بعد عبد العزيز إلا بالحزين الكنانى ، الذى جاء إلى مصر لمدح واليها الجديد عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، وليس عبد الله غريباً علينا بعد ما قدمنا من فضله فى نقل الديوان إلى اللغة العربية[1] .

وأما الحزين الكنانى مادحه[2] فقد اختلف فيه ، فقيل عربى وقيل مولى ، واختلف فى أخلاقه ، فقيل شاعر متكسب ، ينتجع الولاة والأمراء ، يمدح على العطاء ، ويهجو على الحرمان . وقيل إنه لم يبرح الحجاز . واختلف فى شعره ؛ فنسب إليه ونسب إلى غيره ، ومن هذا الشعر قصيدة قيل إنه قالها فى مدح عبد الله بن عبد الملك ، وارتحل بها إليه فى مصر ؛ وقد بدأها بالحديث عن تنقله فى البلاد فقال

الله يعلم أن قد جُبْتُ ذا يَمَنٍ ... ثم العراقين لا يَثْنِينِيَ السَّأَمُ
ثم الجزيرة أعلاها وأسفلها ... كذاك تسرى على الأهوال بي القدم
ثم المواسمَ قد أوطأْتُها زمناً ... وحيثُ تُحْلَق عند الجمرة اللِّمَمُ
قالوا دمشق يُنَبِّيك الخبير بها ... ثم ائتِ مصر فثم النائل العَمَمُ

ثم ينتقل إلى المدح ، ويتحدث عن ممدوحه فيقول :

لما وقفت عليه فى الجموع ضحى ... وقد تعرَّضَت الحجاب والخَدَمَ
حييته بسلام وهو مُرْتَفِق ... وضجَّةُ القومِ عند الباب تزدحم

(١) ص ٩٢ من هذا الكتاب
(٢) الأغاني ج ١٤ ص ٧٦

فى كفه خيزران ريحه عبق   من كف أروع فى عرنينه شمم
يغضى حياء ويغضى من مهابته   فلا يكلم إلا حين يبتسم
ترى رءوس بنى مروان خافضة   يمشون حول ركابيه وما ظلموا
إن هش هشوا له، واستبشروا جذلا   وإن همو آنسوا إعراضه وجموا

وأرجح أن تكون هذه القصيدة لمدح عبد الله بن عبد الملك ، وأن شاعرها جواب آفاق منتجع ، دارت به الأيام حتى جاء إلى مصر حيث النائل العمم عند عبد الله . وهو يعرفه من قبل ، حينما ذهب إلى الحجاز ووصاه أبوه عبد الملك بالإحسان إليه ، ولكن من الرواة من يجعل هذه الوفادة على عبد العزيز والمدح له .

ومنهم من روى البيتين السابع والثامن فيها للفرزدق فى مدح على زين العابدين .

وقيل كثير من الشعر فى هجاء عبد الله ، وذلك أن الطعام غلا فى أيامه ، فتشاءم الناس واضطربوا ، فهجاه ابن أبى زمزمة ، فطلبه عبد الله ، فهرب ؛ وبلغ عبد الله أن القاضى عمران بن عبد الرحمن الحسنى ، آواه . وبلغه كذلك أن القاضى قال شعراً يفخر فيه بنفسه وأهله ، وشعراً آخر يهجو فيه عبد الله ، فعزله وولى مكانه عبدالواحد ، حفيد معاوية بن حديج ، وكان شابا ، إلا أنه كان عالما فقيها . فقال عمران يهجو الوالى مرة أخرى (١) :

لحا الله قوما أمروك ، ألم يروا   بأعطافك التخنيث كيف يريب
أتصرفنى جهلا عن الحكم ظالما   ووليته عجزاً فتاة تجيب
ثكلتك من وال ، وأيضا ثكلته   ألم يك فى الناس الكثير يصيب

هكذا روى هذا الشعر ، وفى البيت الثانى منه هجاء غريب ؛ فقد جعل

(١) الولاة والقضاة ص ٣٢٦

القاضى الجديد « امرأة » ولم يسلم البيت نفسه من عيب فنى هو الإقواء ، إذ اختلفت حركة الروى فى « تجيب » وهو اسم قبيلة ، عن حركة آخر البيت الذى قبلها والذى بعدها .

وكان جزاء القاضى من عبد الله جزاء غريبا ، كما كان طريفا أيضا ، فقد أمر أن يقطع له قميص من قراطيس ، تكتب فيه عيوبه ، ويوقف للناس ، ولكن عبد الله صُرف قبل أن ينفذ هذا العقاب .

وفى سنة ٨٨ هـ خرج إلى أخيه الوليد ، وكان الناس فى شدة عظيمة ، فقال زرعة بن سعد الله بن أبى زمزمة الحسنى :

إذا سار عبد الله من مصر خارجا ... فلا رَجَعت تلك البغال الخوارجُ
أتى مصر والمكيالُ وافٍ مُغَرْبَلٌ ... فما سارَ حتى سارَ والمُدُّ فالجُ

فأهدر عبد الله دمه ، فهرب إلى المغرب ، وكتب إلى الوليد .

ألا لا تنه عبد الله عنى ... كما قد قال يجعلنى نكالا
ولم أشتم لعبد الله عرضا ... ولم آكل لعبد الله مالا

ويظهر أن عبد الله لم يكن شراً كله ، ولم يكن كل الناس يكرهونه ، فإن الوليد لما عزله ، وولى قُرَّة بن شريك كتب إليه رجل من قريش :

عجباً ما عجبتُ حين أتانا ... أن قدَ امَّرْتَ قُرَّةَ بن شريكْ
وعزلت الفتى المبارَك عنا ... ثم فَيَّلت فيه رأىَ أبيكْ

وفى ولاية عبد الله بن كنانة نزل الروم بتنيس سنة ١٠١ هـ ، وقتلوا أحمر بن مسلمة المرادى أميرها فى جمع من الموالى ، وفى ذلك يقول الشاعر :

ألم ترَبعْ فتخبرك الرجال ... بما لاقى بتنيس الموالى[1]

---

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ١٧٧ .

وكتب يزيد بن عبد الملك إلى حنظلة بن صفوان أن يكسر الأصنام سنة ١٠٤ فكسرت كلها ومحيت التماثيل ، وكسر فيها صنم حمام زبان بن عبد العزيز ، الذى يقال له حمام أبى مرة ، وله يقول كُرَيْبُ بن مخلد الجيشانى :

من كان فى نفسه للبيض منزلة   فليأت أبيضَ فى حمام زَبّان
عَبْلٌ لطيف هضيم الكشح معتدل   على ترائبه فى الصدر ثديان

وعرف الناس مكاييل مصر واطمأنوا إليها ، حتى كان عهد هشام بن عبد الملك(١) فبعث بالمدى إلى مصر ، وأمرهم أن يتعاملوا به ، فقبله بعض الناس ، وأباه المعافر ، وكسره واحد منهم ثم قال . إن لنا ويبة وإردباً قد عرفناهما ، ولسنا نحتاج إلى هذا .

وقال شاعرهم : يفتخر .

قومى الذين تبادروا   مُدْىَ الخليفة بالحجَر
وتحزبوا وتعصبوا   وَجَثوا عليه فانْكَسر
من بعد ماذلت له   أعناقُ يَعْرُبَ أومضرَ

ولما استخلف هشام ولى يحيى بن ميمون بن ربيعة الحضرمى قضاء مصر ، وكان كتابه متهمين بالرشوة ، وعرف بذلك فلم يعزل أحداً منهم ، وكان قد ولى عريفاً من العرفاء أمر يتيم من قومه ، وتظلم اليتيم من العريف بعد البلوغ زماناً ، وجاء ببينة من قومه ، فلم ينصفه يحيى ، فكتب إليه مسجلا الحادثة بالشعر :

ألا أبلغ أبا حسان عنى   بأن الحكم ليس على هواكا
حكمت بباطل ، لم تأت حقاً   ولم يسمع بحكم مثلُ ذاكا
وتزعم أنها حق وعدل   وأزعم أنها ليست كذاكا

---

(١) الولاة والقضاة ص ٧٢ .

ألم تعلم بأن الله حــق   وأنك حين تحـكم قد يرا كا

فبلغه الشعر ، فسجن اليتيم ، فرفع أمره إلى هشام ، فعظم ذلك عليه ، وكتب إلى الوليد بن رفاعة يصرفه (١) .

وقال سعيد بن شريح مولى تجيب يهجو حفص بن الوليد ، والى مصر لمروان ابن محمد ، وكان سعيد منقطعاً إلى زبان بن عبد العزيز بن مروان .

يا باعث الخيل تردَى فى ضلالتها   من المقطم فى أكناف حلوان

لا زال بغـِضيَ ينمى فى صدوركم   إذ كان ذلك من حبى لزبان

وكان زبان بن عبد العزيز شديد التحريض على حفص بن الوليد حتى قتله الحوثرة بن سهيل الباهلى والى مصر لمروان سنة ١٢٨ هـ .

وقال مسرور الخولانى يرثى ويحذر .

فإياك لا تجنى من الشر غلطة   فتودى كحفص أو رجاء بن الأشيم

فلا خير فى الدنيا ولا العيش بعدهم   فكيف وقد أضحوا بسفح المقطم (٢)

وقال ابن ميادة المرى يحبذ فعل حوثرة :

لقد سرنى ، إن كان شىء يسرنى   مُغَــارُ ابن هبار على بلخَ والسَّــفْرُ

---

(١) ص ٣٤١

(٢) رجاء بن الأشيم : كان والياً على الصعيد لحفص بن الوليد فى ولايته الثانية . زمن يزيد بن الوليد (ص ٨٤ : الولاة والقضاة) ولما قدم حنظلة بن صفوان من إفريقية ، وولاه مروان بن محمد ، أبى المصريون ذلك وثاروا . ومضى إليه رجاء بن الأشيم بالجيزة ، فأخرجه إلى الحوف الشرقى . ولما ولى حوثرة بن سهيل لمروان بن محمد أمن أهل مصر . واستدعى من دخل فى الطاعة أن يقابله فى ردائه . فخشى ذلك رجاء بن الأشيم ، وقال لحفص بن الوليد : دعنى أقف فى جبــل لأرى ما يصيبك . فأبى حفص . ثم ذهب إليه حفص ورجاء . فقيدهما ، ثم طلب رؤساء الفتنة فجمعوا له ، فقتلهم سنة ١٢٨ وفيهم رجاء بن الأشيم ، وعقبة بن نعيم الرعينى ، وعمرو بن يزيد الشيبانى وفهد بن مهدى ، وابن السليط (ص ٩٠ الكندى)

وحوثرة المُهدى بمصر جيــاده　　وأســيافه حتى استقامت له مصر

وقال مرسل بن حمير يبكى حفصاً وأصحابه :

يا عين لا تبقى من العــبرات　　جودى على الأحيـاء والأموات
يا حفص يا كهف العشـيرة كلها　　وأخا النوال وســاتر العورات
إما قُـتِلْـتَ فأنت كنت عميدهم　　والـكهف للأيتـام والجارات
أودى رجاء ، لا كمثـل رجائنـا　　رَجُـلٌ ، وعقبةُ فارج الـكُـرُبات
وشبابنا عمرٌو وفَـهْدٌ ذو الندى　　وابن السليط وعامرُ الغـارات
قُـتِـلوا ولم أسمع بمثل مصابهم　　سرواتُ أقوامٍ بـنُو سروات

وقدم مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية هارباً من جيوش العباسيين (يوم الثلاثاء ٢ شوال سنة ١٣٢) فوجد أكثر الناس قد « سـودوا » ؛ وأمر بإحراق الدار المذهبة ، فقال له زبان بن عبد العزيز : إنها دار بنى عبد العزيز ، وقد أعظمت فيها النفقة . فقال مروان : إن أبق أبنها لبنة من ذهب ولبنه من فضة ، وإلا ، فما تصاب به من نفسك أعظم . ثم دخل مروان إلى الجيزة وحرق الجسرين ، فقال عيسى بن شافع يبكى الدار المذهبة ، وهو شعر ملىء بالحسرة ، على قلته :

يا طللا أقوى وحل البِـلى　　منـه لدى العُلو وفى السُّـفل
قد كنت مَغْنًى لعيون المَـها　　وكنت مأوى لظِـبَا الرمــل
وكان أربابك ما إن لهم　　فى الناس من نوع ولا شـكل

وقتل مروان ببوصير من كورة الأشمونين ، ٢٣ ذى الحجة سـنة ١٣٢ ، ودخل صالح بن على (١) الفسطاط يوم الأحد لثمان خلون من المحرم سنة ١٣٣ .

---

(١) الولاة والقضاة ص ٩٥

ولهذه الأبيات الأخيرة قيمة فى تاريخ الأدب ، لما فيها من اتجاه غير مألوف فى الشعر ، وهو رثاء القصور التى أخنى عليها الزمن ، وبكاء الآثار التى تبدل عزها ذلا ، وصار عامرها خرابا . ورأينا له صدى بعد ذلك فى رثاء البحترى لإيوان كسرى، وفى رثاءشعراء الطولونيين لمغانيهم ومرابعهم ، وقصورهم وميادينهم ، وفى بكاء شعراء الأندلس على آثارهم التى أبادها الفاتحون الإسبان .

وليس ذلك من نوع الوقوف على الأطلال والدمن الذى رأيناه فى الجاهلية وبعدها ؛ لاختلاف الباعث ، وهو العظة والاعتبار فى الأول ، وذكرى الأحباب فى الثانى . وقد صار هذا الأخير تقليداً عند بعض الشعراء ، يرونه حتما لازماً فى أول القصائد : جرياً على الطريقة العربية القديمة .

هذا هو الشعر العربى فى مصر زمن الأمويين ، وهو قسمان كما رأيت : قسم منه وافد زائر للمدح والثناء ، وأكثر مابقى لنا منه ظهر فى عهد عبد العزيز بن مروان ، وهو شعر طابعه التقليد فى المعانى . أما الأسلوب فكان فيه استقلال وذاتية .

والقسم الثانى شعر المقيمين ، وهو أقل ما بقى وأضعفه : وفيه كثير من التحريف والتبديل ، ولكننا نلمح فى ثناياه استقلالا فى المعانى والأسلوب ، وفى رجاله استقلالا فى الرأى وحرية فى التعبير والنقد ، فغلب عليه الهجاء واللوم . وليس فى هؤلاء الشعراء شاعر محترف ، فكان هذا الشعر ، على قلته وضعفه ، نتيجة وحى خاص ، وشعور مستقل ، وتجارب ذاتية . وهو « شعر مناسبات » ، ولكنه من النوع الذى تثيره أحوال وظروف خاصة ، تؤثر فى الشاعر ، فتطلق لسانه بالتعبير عما يملأ نفسه ، وليس من ذلك النوع الذى يقوله الشعراء للمجاملات أو للشهرة ، بغير وحى من الشعور والعاطفة .

وربما كان اتجاه هذا الشعر إلى الحياة العامة ، واتخاذه سجلا للحوادث وتطورات التاريخ ، سبباً فى ضياعه وعدم اهتمام الرواة به ، بجانب ضعفه وعجزه عن منافسة شعر الحجاز والشام والعراق ، الذى تجمعت له العوامل الفعالة للبقاء والشهرة وأقواها السياسة .

الفصل السابع

شعر العصر العباسى

— ١ —

الشعر التاريخى

كان حظ مصر من الشعر قليلا فى عهد ولاة الأمويين كما رأينا ؛ ولولا الشعراء الزائرون الذين رعاهم عبد العزيز بن مروان لما كان للشعر فى هذا العهد حديث يذكر .

أما فى عهد العباسيين فكان حظها أوفر ، وأدبها أرق ، وشعرها أكثر ، وإن لم تصل إلى منزلة بغداد ، ولا إلى درجة قريبة منها ؛ لما كان فى بغداد من حضارة ونعيم ، ومن جاذبية وإغراء ، ومن نهضة شملت العقل والذوق والخيال ، ومن رعاية كان يسبغها خلفاؤها ووزراؤها على العلوم والفنون والآداب ، فسمت بهذا على غيرها من الأقطار .

وكانت مصر تابعة لدار الخلافة ، فلم يكن فيها من الحكومة المستقرة ، والثروة الواسعة ، والعطاء الجزيل ، ما كان فى حاضرة الدولة . ولم يكن فيها من حماة الأدب ومجالسه وبواعثه ، مثل ما كان فى بغداد ؛ فانصرف الشعراء عن قصدها ؛ إذ كان ولاتها أتباعاً ، وكان عهدهم قصيراً ، وعطاؤهم قليلا ، وحسابهم من رؤسائهم عسيراً ؛ وإن لم يخل هذا العهد من ولاة رعاة للأدب ، صفت أذواقهم فقدروه ، وسخت نفوسهم فأجزلوا له العطاء :

ولكن بغداد أفاءت على البلاد الأخرى بعض حضارتها ورخائها ، ونفخت فيها من روحها ، وبثت فيها من علومها ومذاهب أدبائها ، فكان لذلك آثار ظاهرة فى تاريخ البلاد التابعة لها ؛ ونالت مصر قسطها من ذلك ، فارتقت بها الآداب والفنون والأذواق ، وتقدمت العلوم الشرعية واللسانية ، وظهر فيها أدباء من أهلها لا ينكر أدبهم .

غير أنه كان بين الشعر هنا وفى بغداد ما بين التابع والمتبوع من تفاوت فى المنزلة ، وفرق فى تقدير الناس . وأخص منهم الرواة ، ومؤرخى الأدب ، والمحدثين بالأخبار والنوادر ، الذين استضعفوا ما كان منه ، وآثروا عليه رواية القديم ، أو الجديد الجيد من أدب بغداد وغيرها . واستطاعت مصر — بالرغم من ذلك كله — أن تخرج شعراء فى عهد العباسيين يتحدث عنهم تاريخها .

وهذا الشعر الذى فاضت به خواطر الشعراء المقيمين بمصر كان صفحة من تطورات الوقائع والحوادث ، وديواناً للتقلبات السياسية ، وسجلا من سجلات التاريخ المصرى ، كما نرى فى الباقى من مختاراته فى كتب التاريخ . فاهتم به المؤرخون لأنه حفظ لهم ما لم يحفظه الرواة ، واهتم به مؤرخو الأدب لما رأوا كثيرا منه ذاتياً فى معانيه ، مستقلا فى فكرته ، مصرياً فى وحيه وموضوعاته . أما أسلوبه وعباراته فلم تخل من طابع مصرى يبدو فى بعض الأحيان .

وإذا نظرت إلى ما أثر من هذا الشعر وجدت منه شعراً يحرض على الولاة الذين فسد حكمهم ، ويغرى بالعمال الذين ضل سعيهم ، كموسى بن مصعب الخثعمى الذى كان والياً للمهدى (سنة ١٦٧) وتشدد فى استخراج الخراج ، وزاد على كل فدان ضعف ما كان أولا ، وقبل الرشوة فى الأحكام ، وجعل خراجاً على أهل الأسواق وعلى الدواب ؛ فكره الناس فعله ، وقال شاعر يثير الخليفة عليه ، ويحبذ رأى الوزير يعقوب بن داود فى وجوب عزله :

لو يعلمُ المهدىُّ ماذا الذى يفعـــله موسى وأيوبُ[(١)]
بأرضِ مصرٍ حين حلاَّ بها لم يُتَّهمْ فى النصح يعقوبُ

ومنه شعر جمع بين المدح والتأييد ، وبين التشفى والشماتة ؛ فإن أهل الحوف والفسطاط تحالفوا على موسى بن مصعب ؛ وكان ظالماً غاشماً ، فضاق الجند والناس به وخرجوا عليه وقتلوه (سنة ١٦٨) .

وقال سعيد بن عفير يذكر الذين قتلوه . ويحمد لهم أعمالهم[(٢)] .

ألم ترهم أَلْوَتْ بموسى سيوفهـُم وكانت سيوفاً لا تدين لمُتْرِف
فما برحت فيـه تعود وتبتدى إلى أن تروى من حِمام مُذَرِّف
فأصبح من مصر وما كان قد حَوَى بمصرٍ من الدنيا ،سليبا بنَفْنَفِ

وقد يتحدث الشعر بلسان أهل البلاد فيعبر عن آلامهم وسخطهم ، وينطق بمشاعرهم وإحساسهم ، ويتكلم بما يحبون من طعن فى واليهم وأعوانه :

ولى مصر الحسين بن جميل للرشيد سنة ١٩٠ ، وجعل على شرطه كاملا الهُنائى ، وسخط بعض الناس عليه ، وامتنع أهل الحوف عن أداء الخراج ، فقال سعيد بن عفير[(٣)] : يطعن فى الأمير وأعوانه ، ويذم قبائل من أشقاهم الحظ بهجائه .

ما كنت أحسب أن الحينَ يجمع ما أمسى بمصر من الأنذال فى الإمَرِ
أما الأمير فخَنَّاجٌ ، وصاحبه على الخراج سَوَادِىٌّ من الأُكَرِ[(٤)]
هذا الهُنائِى من الفسطاط يخلفه والباهِلىُّ على أعماله الأُخَرِ
كل لصاحبه شـــكلٌ يلائمه فهمْ سواسِيَةٌ فى اللؤم كالحُمُرِ
وما هُناءةُ إلا ظِلفُ ذى يمن والباهليون مأوى اللؤم من مُضرِ

---

(١) الولاة والقضاة ص ١٢٥ (٢) شرحه ص ١٢٧
(٣) شرحه ص ١٤٢ (٤) حناج : مخنث . سوادى : فلاح .

فما يسوغُ لنا عيش فينفعنا مَعْ ما نرى لهمُ من رِقَّةِ الخطرِ

وهذا شعر آخر ينشده ثائر على الدولة ، خارج على السلطان هو أبو الندى مولى بلى ، الذى خرج فى نحو ألف رجل فقطع الطريق « بأيلة » وغيرها ، وأغار على بعض مدن الشام ، ثم ضوى إليه رجل من جذام يقال له أبو المنذر بن عابس ، وأرسل الرشيد يحيي بن معاذ فى طلبهم ، وطلبهم الحسين بن جميل من مصر أيضاً(١) .

وكان أبو الندى يقول محرضاً لأصحابه ، مثيرا لحماستهم عند اللقاء :

أقول إذا الرِّفَاقُ بدت لوجهى ألا حُلُّوا رحالكم وطيروا

وإن لم تتركوها فاستعدوا لحرب مثل جابية تفور

أقول لصحبتى كُرُّوا عليهم فليس يُهرُّهم إلا الكرُور

وظفر يحيي بن معاذ بأبى الندى وصاحبه ابن عابس وأرغم أهل الحوف على الخراج بعد امتناعهم ، وقدم الفسطاط سنة ١٩٢ ، فنزل دار ابن عون ، وقال أبو عثمان السكرى : يفخر بما كان ويمدح يحيي(٢) :

قد جبينا قيساً ولم تكُ تجْبى وقتلنا أبا الندى وابنَ عابِسْ

وتركنا لخما وحيَّيْ جُذامٍ لا يطيقونَ رفعَ كفٍّ تُلامِسْ

آمن الله بالمبارك يحيي حَوْفَ مصرٍ إلى دمشقَ فبالِس(٣)

وأباد الخُلَّاعَ من كل أرض بعد ما حاد عنهمُ كل فارس

وقال أيضاً يحذر قيساً ، وينصح لهم أن يؤدوا الخراج(٤) :

يا قيس عيْلانَ إنى ناصح لكمُ أدوا الخراجَ وخافوا القتلِ والحرَبا

---

(١) الكندى ص ١٤٣ (٢) ص ١٤٥

(٣) بالس : بلدة على الفرات . (٤) ص ١٤٥ .

إنى أحذركم يحيى وصولتَه فما رأيت له تَقْيًا إذا غضبَا

ثم خرج يحيى من مصر بعد أن أهان القيسية واليمانية .

النزاع بين الأمين والمأمون :

ولم يغفل الشعر عما كان من النزاع بين الأمين والمأمون ، وامتد أثره إلى مصر فقد كان بها واليان أحدهما : عباد بن محمد بن حيان من قبل المأمون ؛ والثانى ربيعة ابن قيس الذى جعله الأمين والياً . فتحاربا ، وعقد عباد لابراهيم بن حُوَىّ العذرى ، وحاربه يزيد بن الخطاب من معسكر الأمين ، فقتل ابن حوى ، وقال سعيد بن عفير[(1)] يلوم يزيد بن الخطاب الكلبى على قتله ، ويحرض قضاعة على الأخذ بثأره .

قتلوا ابنَ سيدهم وفارس حزبهم عن غير نائرة ولا إجرامِ

فلئن قضاعةُ لم تطالبْ ثأره بكتيبة خشناء ذاتِ غرام

ما فى قضاعة بعدها ما يرتجى للنائبات ، وما همُ بكرام[(2)]

ولم تنفع المأمون ولاية عبد العزيز الجروى ولا السرى بن الحكم ، وكادت ريحه بمصر تذهب ، لولا أن أدبر أمر الأمين بالعراق ، وقتل سنة ١٩٨ . عند ئذ رجحت كفة المأمون ، ودانت له البلاد .

ووليها المطلب الخزاعى للمأمون (ربيع الأول سنة ١٩٨) . فأقر على شرطه هبيرة بن هاشم بن حديج ، وكان السرى بن الحكم تلقاه وهو قادم من مكة فأغراه بأهل مصر ، وخوفه إبراهيم بن نافع الطائى ، فجد المطلب فى أثره ، فأعياه ، واتهم ناساً بإخفائه منهم هبيرة ، فحبسهم ليظهروه ، أو ليدلوا عليه ، وعرض هبيرة على

---

(١) الكندى ص ١٥٠ .

(٢) النائرة : الثورة والهياج ، الغرام : الهلاك .

السيف ، فأبى أن يدل عليه ، فلما سكن الطلب هرب إلى الصعيد .

وقال سعيد بن عفير : يذكر وفاء هبيرة ويمدحه مدحاً خالصاً[٣] :

لعمرى لقد أوفى ، وَفاقَ وفاؤه ، هُبَيْرةُ ، فى الطائى وفاءَ السموْءَلِ[١]

وقاه المنايا ـ إذ أتاه ـ بنفسه وقد بَرَقت فى عارضٍ متهلل

فما انفك محبوساً ومُطَّلبٌ له عليه قصيف بالوعيد المُهَوّل

فما زاده الإيعادُ إلا تَوَقُّراً وصبراً ، ولم يخشع ولم يتفكّل

إلى أن تجلت عنه أبيض ماجدا كريم النَّثا فى المشهد المُتَدِّخل[٢]

وبلغ المطلب اجتماع ربيعة بن قيس ويزيد بن الخطاب على حربه بأسفل الأرض فبعث إليهم عبدالعزيز الجروى ، فهزمهم بشطنوف ، وبعث السرى بن الحكم فكان مقيما بالحوف . وتفرقت قيس وسكن أمرهم .

وعُزل المطلب عن مصر فى شوال سنة ١٩٨ ، ثم وليها العباس بن موسى من قبل المأمون فولى عليها ابنه عبد الله — وهو الذى جاء إلى مصر بالإمام محمد بن إدريس الشافعى رضى الله عنه سنة ١٩٨ هـ[٣] — وانضم إليه عبد العزيز ابن الوزير الجروي ، وسجن المطلب . واستبد عبد الله بن العباس والجروى والأنصارى بالجند والناس ، فثاروا بهم وأخرجوا المطلب من سجنه وولوه أمرهم[٤] .

وانضم إبراهيم الطائى إلى المطلب وكذلك الأنصارى . ثم عرف المطلب بكتب من العباس إلى الطائى والأنصارى . فبعث المطلب بهبيرة بن هاشم فقتل الطائى ، وسلط الجند على الأنصارى فقتلوه . وقال المعلى الطائى يذم العباس ، ويحرض

---

(١) ص ١٥٢ . (٢) لم يتفكل : لم يجبن ولم يضعف قلبه . النثا : الخبر .

(٣) النجوم الزاهرة جـ٢ ص ١٦١ . (٤) ص ١٥٥ .

المأمون عليه ، ويذكر فضل المطلب فى إراحة المأمون والناس منه :

كفاهم من العباس ما لو مُنُوا به ... لأحيا لهم من جور فرعون ما عدلْ
فمن مبلغٌ المأمون عنى نصيحة ... وما عالم شيئاً سواءٌ ومن جهل
بأن ابن عبد الله لولا مكانه ... لَعُرِّفتَ للعباس داهيةً جَللْ

وقال سعيد بن عفير فى مقتل أبى بشر — الحسن بن عبيد بن لوط — الأنصارى ويذم المطلب فيما فعل : ويتهمه بالغدر بأبى بشر الأنصارى(١) :

أرى كل جار قد رمى بجواره ... وخان أبا بشر جوارُ ابن مالك
أمُطَّلِبٌ هلاَّ منعتَ ابن غادر ... وأديته قبل انسداد المسالك

الجروى والسرى بن الحكم :

وامتنع الجروى بتنيس على الرغم من ولايته عليها للمطلب ، فولى غيره ، فسار الجروى بمراكبه إلى شطنوف . فقابله السرى فى جمع من الجند للصلح ، فأجابهم ثم اجتهد فى الغدر بالسرى وأسره فى زلاجه ، وسار به إلى تنيس سنة ١٩٩ .

ثم عقد المطلب لمحمد بن هبيرة على الإسكندرية ، فاستخلف عليها عمر المعروف بابن هلاَّل من أسرته ، ثم عزله المطلب بأخيه الفضل بن عبد الله بن مالك .

فثار عمر بن هلال بإيعاز من الجروى ، وأخرج الفضل ودعا الأندلسيين ، وعند عودته عاون أهل الإسكندرية الفضل . وردوا الأندلسيين إلى مراكبهم التى كانت مرابطة تجاه الإسكندرية .

وجد المطلب فى أمر الجروى ، فأخرج الجرويُّ السريَّ من سجنه ، واستعان به ، والتقى هبيرة بن هاشم بجنود السرى ، الذى تحير به فرسه فسقط فى حفرة ، فأدركه

(١) الـكندى ص ١٥٦ .
(٢) الـكندى ص ١٥٦ وما بعدها .

الجند فقتلوه ، وجزع المصريون لذلك أشد الجزع . فقال سعيد بن عفير يرثيه ، ويذكر مصرعه فى ميدان الشرف ، بعد أن مدحه فى موقف آخر يوم أن أوفى وفاق وفاؤه وفاء السموءل :

لَعمرى لقد لاقى هُبَيْرَةُ حتفه بأفضلِ ما تُلقى الحتوفُ السوارعُ
بأنفٍ حَمىٍّ لم تخالطه ذِلَّةٌ وعِرْضٍ نَقيٍّ لم تَشِنْهُ المطامع
عشيةَ يستكفيه مُطَّلبُ الذى به ضاق ذرعاً والمنايا كوارع
فما انفك يحميه ، ويجعل نفسه له جُنَّةً ، حتى احتوته المصارع
فلاقى المنايا فوق أجردَ سابحٍ وفى الكف مأثورٌ من الهند قاطع
فبينا يخوض الهول من غمراته وأعداؤه من حوله قد تجاشعوا
تَقَطَّرَ فى أُهْوِيَّةٍ عن جواده فصادفه حَيْنٌ من الموت واقع(١)

وطلب المطلب الأمان من السرى على أن يسلم الأمر إليه ، ويخرج عن مصر فقبل السرى ، وخرج المطلب فى بحر القلزم إلى مكة .

قال دعبل الخزاعى للمطلب :

فكيف رأيت سيوف الجريشِ ووقعةَ مولى بنى ضبةِ
أحجتك أسيافهم كارها ومالك فى الحج من رغبةِ

وقد ولى السرى مصر بإجماع الجند (رمضان سنة ٢٠٠) (٢) ، وكان مسالماً للجروى وثار ابن هلال المعافرى بالإسكندرية ودعا للجروى . وخاصم الأندلسيين

---

(١) تقطر فى أهوية : سقط فى حفرة .

(٢) كانت هناك ثورة داخلية من سنة ١٩٧ — ٢٠٠ انتهت بتولى السرى بن الحكم أمر مصر ، وقد حكم البلاد هو وابناه من بعده حوالى عشرة أعوام . وتستحق أسرته أن يطلق عليها أول أسرة كانت مستقلة نصف استقلال بمصر . مقدمة الكندى ص ٣ Gjuest

وظهرت طائفة الصوفية بالإسكندرية فاتفقوا مع الأندلسيين على ابن هلال ، واعتضدوا بلخم ، وكانت أعز من فى الإسكندرية .

وذهبت الجموع إلى قصر بن هلال وحاصروه فيه ، وخشى أن يدخلوه وينتهكوا حرماته ويفتكوا بالحرم ، فاغتسل وتحنط ، وتكفن ، وأمر أهله أن يدلّوه إليهم ، فدلوه فأخذته السيوف ، ودلى عدد من أهل بيته فقتلوا جميعاً سنة ٢٠٠ .

قال سعيد بن عفير يرثى ابن هلال ويذكر دفاعه عن الاسكندرية ، ويشير إلى علمه وحبه للخير ، وإبائه للضيم :

لا يَبعدَنَّ ابن هلاَّل فقد ذهبت — منه المنون بعلم طيب النَّسم
لا يرأمُ الضيمَ من حب الحياة ، ولا — يقبل دون فعال الخير بالقسم
ولا يزال له من مجده طَرَف — يُسنِّدُ ما حاز عن آبائه القُدُم (١)
ما انفك يحمى ذمار اسكندرية فى — هدءٍ حميد وعز غير مهتضم
حتى إذا جاءه من كان يأمنه — وصرح الموت جهراً غير مكتتم
خاض الأسنة والهندىَّ محتسباً — حتى تجرع كأس الموت من أمم

وفسد الأمر بالإسكندرية بعد مقتله واضطرب ، فسار إليها الجروى سنة ٢٠١ وكاد يفتحها ، لولا أن بعث السرى إلى تنيس بعمرو بن وهب الخزاعى ليخالف إلى منزل الجروى ، فرجع الجروى إلى تنيس ، وفسد ما بينه وبين السرى .

وقال ابن عفير للجروى (٢) :

ألا من مبلغُ الجرویِّ عنى — مغَلْغَلةً يعاتب أو يلومُ

---

(١) القدم : الشجعان .
(٢) الكندى ص ١٦٥ .

أقمت تنازل الأبطال حتى تميز ذو الحفيظة والسَّئُومُ
وُصلت بهم فما وهنت قواهم وطيرُ الموت دائرة تحوم
ولو عجمت جموُعك حين حَلُّوا عليهم باد جمعهم المقيم

ثم وثب الجند على السرى وعزلوه ، وأظهروا كتاباً من طاهر بن الحسين بتولية سليمان بن غالب بن جبريل . وكان ذلك فى أول ربيع الأول سنة ٢٠١ . ونهب الجند دار السرى ، وسيره سليمان بن غالب إلى أخميم . ولكنه استعان ببنى مدلج وهم كثير ، وسار بهم إلى الفسطاط ، فبعث إليه سليمان بجيش فالتقوا «بقمن» فهزم السرى ، وأسر هو وابنه ، وردا إلى إخميم (جمادى الأولى سنة ٢٠١) فقال المعلى الطائى يمدح سليمان ويجامله :[1]

إذا شن فى أرض سليمانُ غارةً أثار بها نقعاً كثير المصائب
ألم تر مصراً كيف داوى سقيمَها على حينَ دانت للعدو المناصب
حماها ، ولولا ما تقلد أصبحت حبيساً على حكم القنا والمقانب[2]

ثم فسد الأمر على سليمان بن غالب ، ولحق بالجروى .

وولى السرى الأمر مرة ثانية بمصر من قبل المأمون وكان محبوساً بأخميم . فقدم الفسطاط (١٢ شعبان سنة ٢٠١) وتتبع من حاربه قتلا وصلباً وتعذيباً . فانتظم أمره وقوى سلطانه .

ثم جاءه كتاب المأمون بأخذ البيعة لعلى بن موسى بن جعفر بن على بن أبى طالب ، فى المحرم سنة ٢٠٢ ، فأبى هذه البيعة إبراهيم بن المهدى ، وخرج على المأمون ببغداد ، وكاتب وجوه الجند بمصر لخلع المأمون وولى عهده ، وعرف السرى بالخارجين لحاربهم ، وفيهم الجروى وسلامة الطحاوى وعبد العزيز الأزدى .

---

(١) الكندى ص ١٦٨

(٢) المقانب جمع مقنب ، وهو جماعة الخيل ، من ثلاثين إلى أربعين .

وسار الجروى إلى الإسكندرية فاستولى عليها ، واستعد كل من الجروى والسرى لصاحبه ، والتقت جموعهما بشطنوف . فقتل ميمون بن السرى وانهزم عسكره (جمادى الآخر سنة ٢٠٣) .

وقال معلى الطائى يرثى ميموناً(١) :

لو ردَّ غربَ منية بشجاعة | أحدٌ لدافع ركنها ميمونُ
لو كان تجريد السيوف يردها | لحماه منها مُنْصُل وثمين
ما زالت أطمع فى رجوعك سالما | ويَرُوعنى شفقاً عليك ظنونُ
فليُفْجَعَنَّ غداً بقتلك طاهرٌ | وليُفجَعَنَّ بقتلك المأمونُ

ثم فشلت حركة إبراهيم بن المهدى ومات على الرضا ، وعادت البلاد إلى طاعة المأمون فولى السرى مرة ثالثة ؛ ثم اختلف الجروى مع الأندلسيين بالإسكندرية ، فثاروا عليه ، ودعوا للسرى ، فخرج إليهم الجروى (رمضان سنة ٢٠٣) فثار القبط وساعدتهم بنو مدلج بسخا . فخرج إليهم الجروى فهزمهم .

فقال المعلى الطائى يمدح عبد العزيز بن الجروى(٢) .

فقل لأمير المؤمنين نصيحةً | وما حاضر شيئًا كآخر غائبِ
لقد حاطنا عبد العزيز بسيفه | ولولاه كنا بين قتْل وناهِبِ

وبعث السرى بأخيه إلى الصعيد لمحاربة سلامة الطحاوى ، فظفر به وبابنه إبراهيم وبعث بهما إلى الفسطاط فقتلا هناك (المحرم سنة ٢٠٤) فقال المعلى الطائى يعيب فعل الطحاوى ، ويبرر قتله .

أراد الطحاوى التى لا شَوَى لها | فأوقد ناراً ، كان بالنار صالياً
ودب لأقطار البلاد بفتنة | فجاشت بسقم لا يجيب المداويا

(١) الكندى ص ١٧٠ . (٢) الكندى ص ١٧١ .

وراسله من كان يحفى بفـاقـةٍ ... وأصبح ذا مَيْـلٍ إليه ممالياً
جنت ماتستحق القتلَ يا صاح كفُّه ... وكل امرىء يجزى بما كان جانياً(١)

وحاصر الجروى الإسكندرية من شعبان سنة ٢٠٤ إلى صفر سنة ٢٠٥ ونصب عليهم المجانيق وأصابته فلقة من حجر منجنيقة فقتلته فى آخر صفر سنة ٢٠٥ ، ومات السرى بالفسطاط بعده بثلاثة أشهر .

وانتقلت العداوة والصراع والولاية إلى ولديهما ، أبى نصر بن السرى ، وكان معه الصعيد ؛ وعلى بن عبد العزيز الجروى ، وكان يحكم أسفل الأرض (الوجه البحرى) والتقت جيوشهما بشطنوف فانهزم أحمد بن السرى أخو أبى نصر ، ولم يتبعه على الجروى ، فقال سعيد بن عفير :

ألا من مبلـــغ عنى علياً ... رسالة من يلوم على الرُّكوكِ
علام حبست جمعك مستكِفاً ... بشط يَنوف فى ضنك ضَـنيكِ
وقد سنحت لك الغفران ممن ... رماك بجيشه الوَهن الركيكِ(٢)

ثم اصطلحا ومات أبو نصر (٨ شعبان سنة ٢٠٦) ، وولى أخوه عبيد الله بن السرى مكانه ، وأرسل المأمون خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى ، وحالفه على بن عبد العزيز الجروى ، وجبى خالد ما مر به من القرى ، والتقى بجيش ابن السرى بفاقوس ثم التقت جيوش الفريقين بدمنهور ، على أميال من الفسطاط ، وانتهت المعارك بانتصار عبيد الله فى اليوم الرابع سنة ٢٠٧ .

واحتج كل من خالد ، وعبيد بن السرى بكتاب المأمون إليه بالولاية فقال سعيد بن عفير هذه الأبيات الثلاثة يقدم النصيحة ، ويود أن يرتقب الفريقان رأى المأمون الواضح .

---

(١) الكندى ص ١٧١ .
(٢) ص ١٧٣ . الغفران محرفة عن كلمة أخرى مثل « الغفوات » .

يأيها المتحاربان وإنما — دعواهما المأمون فى الصدقاتِ
هل ترجعان إلى التَّـقِـيَّة والتُّقى — وتتاركان تعاور الغارات
حتى يجىء من الخليفة أمره — فَـيَميز بين الحق والشبهات

ثم مكر على بن عبد العزيز بخالد فى زمن الفيضان وتركه محصوراً فى جهد وشدة (فى نهيا) فقال معلى وكأنه يؤيد فعل ابن الجروى :

سلا خالدا لما انجلى عنه شكـه — وأسلمه فى عُدوةِ البحر خاذله
فزالت أمانيه غداةَ سما لنـا — بعارضِ جيشٍ يمطرُ الموتَ وابِله

ولما انـكشف النيل سار عبيد إلى « نهيا » فأسر خالداً ، واستأمن أكثر جيشه فى (شوال سنة ٢٠٧) . قال معلى الطائى : يمدح القائد ويذم أعوانه الذين أسلموه(١) :

ألا لا أرى خيلا أضر له الوغى — وأجبن فى الهيجاء من خيل خالد
وقواده أشرار كل قبيلةٍ — تمالوْا على إسلامه فى الشدائد
فإن يقتلوه يقتلوا منه ســيداً — شجاعاً جواداً ماجداً وابن ماجد
وإن كـفوا عن قتله فهى مِنة — لآل سَرِىٍّ فى مناط القلائد

فمنَّ عليه عبيد وأكرمه ، وسيره إلى مكة من القلزم برغبته :

وولى المأمون عبيدالله على ما فى يده ، وعلى بن الجروى على ما فى يده وضمنهما الخراج ، ولـكن أهل الحوف منعوا الجروى الخراج واستعدَوْا عليه ابن السرى فأمدهم بأخيه ؛ وتحمل ابن الجروى بمن معه إلى دمياط بعد أن التقوا ببلقينة (١٣ صفر سنة ٢٠٧) .

---

(١) الـكندى ص ١٧٦ .

فقال معلى الطائى منتصرا لعبيد[١]

ألا هل أتى أهل العراقين وقعة ... لنا بحمى بلقين شيبت الوُلْدا
وما كان منا قتلهم عن جهـالة ... خطاءً ولكنا قتلناهمُ عمـدا
ولما تبينت المنية فى القنـا ... نكصت تنادى، حين ضل الندّا سعدا
فوليت عن ربع المحلة هاربا ... على أبله ما تركب الجور والقصدا
فكيف رأيت الله أنزل نصره ... علينا وولاك المذلة والطردا
سنهدى إلى المأمون منا نصائحاً ... عليه بإظهار الخلاف الذى أبْدَى

وسار ابن السرى وراء ابن الجروى ، ففر هذا من دمياط إلى الفرما ، ثم العريش ، ثم نزل ما بين العريش وغزة .

قال سعيد بن عفير :[٢]

ألا يا علىّ بن عبد العزيز ... إلى أين صرت تريد الفرارا
فلستَ بأولِ من كاده ... عدوٌّ فكر عليه اعتكارا
وأجْدُر مصيرك أن يسحبوا ... إليك فتوحاً عظاماً كبارا
فتدرك ثأرك من أهله ... وتلبس بعد الكبُوّ الفسارا[٣]

وعاد ابن الجروى فأغار على الفرما ، وهرب أصحاب عبيد من تنيس ودمياط إلى الفسطاط ، وأقبل ابن الجروى إلى شطنوف ، فقابله محمد بن سليمان بن الحكم من قبيل عبيد فانهزم ابن الجروى آخر النهار ، ومضى عبيد إلى تنيس ودمياط ، ولحق ابن الجروى بالعريش سنة (٢٠٩)

قال المعلى الطائى :[٤]

ألم تر خيله صبَحت عليا ... تُدِفُّ على مَناسجها النّساعا

(١،٢) الكندى ص ١٧٧ .
(٣) شرحه . والفسار : التاج ، فارسى معرب أفسر وفسار .
(٤) الكندى ص١٧٩ . تدف : تحرك . المناسج : جمع منسج كمنبر وهو أسفل الحارك . النساع : جمع نسع وهو السير من الجلد .

فولى عن عساكره وخَلَّى على الأَسَل المدائن والرِّباعا
ولكن فات فوق أقبَّ نَهْدٍ كرجع الطرف لا يَخشى اضطلاعا
فحسبك أن قومَك من جُذام وسعدٍ لا ترى لهم اجتماعا
دعتهم طاعةٌ لك فاستجابوا ومن عجب لمثلك أن يطاعا

وأقبل عبد الله بن طاهر إلى مصر سنة ٢١٠ وانضم إليه ابن الجروى ، وأبى عبيد الله بن السرى أن يسمع له ويطيع (١) ، فنزل ببلبيس ، ودعا عبيداً وخوفه ومناه ، فلم يستجب ، وأخذ يحفر خندقه ، ويحكم أموره ، ويشحن سفنه ، وسار ابن طاهر من بلبيس حتى نزل « زفيتا » وعقد بها جسرا ، وبعث عيسى بن يزيد الجلودى إلى شطنوف ، وأقبلت سفنه من الشام ، وجعل عليها ابن الجروى لمعرفته بالحرب فى البحر ، وجعل عبيد على مراكبه أبا السرور عسامة بن الوزير الشيبانى والتقى الجمعان فانهزم عبيد ، وأقبل ابن طاهر إلى خندق عبيد الذى احتفره فنزل عليه (محرم سنة ٢١١) فاستأمن أبو السرور فى جمع كبير إلى ابن طاهر .

---

(١) الكندى ص ١٨٠ ، وفى النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٨١ أن المأمون بعث بابن طاهر لحرب عبيد الله بن السرى ، وقال له : « إنى استخرت الله تعالى منذ شهر ، وقد رأيت أن الرجل يصف ابنه ليطريه وليرفعه ، وقد رأيتك فوق ما وصفك أبوك ، وقد مات السرى وولى ابنه عبد الله ، وليس بشىء ، وقد رأيت توليتك مصر ومحاربة الخوارج بها » فقال عبد الله : « السمع والطاعة ، وأرجو أن يجعل الله الخير لأمير المؤمنين » ولما ضيق ابن طاهر على عبيد الله طلب الأمان ، وشرط شروطا ، وبعث إليه بتقدمة من جملتها ألف وصيف ووصيفة ، مع كل وصيف ووصيفة ألف دينار فى كيس حرير ، وبعث بهم ليلا ، فرد عبد الله بن طاهر ذلك عليه ، وكتب إليه :

لو قبلت هديتك نهارا لقبلتها ليلا ، « بل أنتم بهديتكم تفرحون »

فلما بلغه ذلك طلب الأمان بلا شرط .

لَعَمْرِى لقد كانت بمصرَ وقيعةٌ أقامَتْ على قَصْدِ الهوى كلَّ مائِلِ
على الخندق الأقصى وما كان حوله وما قد يليهِ من فضاءٍ وساحلِ
رأى ابنُ السَّرِىِّ النصرَ أولَ يومه وأوْدَى بليثٍ من أبى السَّرْوِ باسِلِ
تَوَيْنَ جموعَ ابنِ السرى وخيلَه شماطيطَ تَتْرى كالنعامِ الجوافلِ (١)
فلما رأوا ألا مَحيصَ وأنه كفاحُ الردى فى كل حق وباطل
توخَّوْا أمانَ الأريحى ابن طاهر فمِن فارس يأتيه طوعاً وراجل

وقدم أبو صالح التميمى من بغداد بكتاب أمان لابن السرى ، وبتوقيع المأمون إلى ابن طاهر ، لما كتب إليه هذه الأبيات يفوض الأمر إليه ، ويجعل له السلطان المطلق فى أمر ابن السرى (٢) :

أخى أنت ومولاى الـذى أحفظُ نُعْماه
فما تهوَى من الأمر فإنى سوف أهواه
وما تسخطُ من شىء فإنى لست أرضاه
لك اللهُ على ذاكَ لك الله ، لك الله

ومن الشعر الذى قيل هجاء لعبيد الله ما قاله شاعر يسمى أحمد الحمراوى :

أترجو مهاةٌ دفعَ ضرغامِ غابةٍ لَشتَّان ما بين المها والهزابر
وإن أحق الناس أن يشهد الوغى ويقصف أصلاب الملوك الجبابر
لَمَن لم يكن فى الروع فى زى غادة ولم يحتجب صُبْحاً لِمَشْطِ الضفائر

فقد هجاه بمشابهته النساء ، وهو هجاء قل مثله فى الأدب العربى السابق ،

---

(١) شماطيط : متفرقة .

(٢) الكندى ص ١٨١ ، ورويت فى النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٩٢ مع اختلاف يسير ، ولمناسبة أخرى . هى أن المأمون كتب إلى ابن طاهر يأمره بالزيادة فى الجامع العتيق ، فزاد مثله ، وكتب يعلم المأمون بذلك ، وأرسل إليه هذه الأبيات

وفيه إشارة إلى إرسال الرجل شعره ، وجعله ضفائر يمشطها ويرجلها .

ثم وليها ابن طاهر من قبل المأمون (ربيع الأول سنة ٢١١) . وخرج عبيد بن السرى إلى بغداد (جمادى الأولى سنة ٢١١) . فقال حبيب بن أوس الطائى :

فأورده بغـــداد تهوِى برحله ذَمولٌ ترامى فى قلاص ذوامل

فأصبح قد زالت ظلالُ نعيمه وأىُّ نعـيم ليس يوماً بزائل !

وقد عاش عبيد بعد ذلك زمناً ثم مات بسر من رأى سنة ٢٥١ هـ

وعادت البلاد تابعة للخلافة ، ولـكن شعرها ظل كما هو — فيما يبدو لنا من هذه الأمثلة القليلة — مهتما بالسياسة ورجالها ، وبالحوادث وتسجيلها .

ثم خرج منها ابن طاهر ، واستخلف عيسى بن يزيد الجلودى (١٧ ذى القعدة سنة ٢١٣) وقدم الخبر بولاية أبى إسحاق بن هرون الرشيد (المعتصم) وعزل ابن طاهر ، فأقر الجلودى ، ولـكنه ظلم وزاد الخراج ؛ فانتقض أهل البـلاد ، وحاربهم ابن الجلودى فى بلبيس فهزموه (وذلك فى صفر سنة ٢١٤) .

ثم وليها عمير بن الوليد باستخلاف أبى إسحاق له (١٩ صفر سنة ٢١٤) . فاستعد لحرب أهل الحوف . وخرج عليه القيسية واليمانية ، وعلى الأولين قيس بن عبد الله بن حليس الهلالى ، وعلى اليمانية عبد السلام بن أبى المـاضى ، وهزمهم عمير أولا ولـكن كميناً خرج عليه عند اليهودية ، وقتله مبارك بن الأسود (يوم الثلاثاء ١٣ ربيع الآخر سـنة ٢١٤) ، فـكانت ولايته ستين يوماً . قال حبيب بن أوس الطائى :(١)

ألا رُزِئَت خراسانٌ فتاها غَداةَ ثَوَى عميرُ بن الوليد

(١) روى الـكندى هذه الأبيات ص ١٨٧ ، وهى فى الديوان ص ٣٥٩ من قصيدة طويلة .

فيا يوم الثلاثا كم كئيبٍ رماه الحزن فيك ، وكم عميدِ
فكم سَخَّنْت فينا من عيون وكم أغْبَرْت فينا من خدود
فما زُجِرَت طيورُك عن سَنيح ولا طلعت نجومك بالسعود

وقال أيضاً :

أنْعَى عميرَ بن الوليد لغارةٍ بِكر من الغارات أو لِعَوان(١)
أنْعَى فتى الفتيان غيرَ مكذَّب قولى ، وأنْعَى فارس الفرسان

وقال سعيد بن عفير :

ساقت عميرَ إلى مصر مَنِيَّتُهُ بإمرةٍ لم يكن فيها بَمْسعود
حتى أتته المنايا وهو ملتحف ثوبين من حبرات البأس والجود
فاذهب حميداً فلا تبعَد فكل فتى يوماً ، وإن كرُمت(٢) أفعاله ، يودى

ووليها عيسى بن يزيد الجلودى مرة ثانية لأبى إسحاق وحاربه أهل الحوف فهزموه إلى الفسطاط ، قال حبيب بن أوس يهجو الجلودى :

قل للجلودى الذى يده ذهبت بمال جنوده شعبا
الله أرهقك الهزيمة إذ جذبتك أحبال الردى جذبا
وأتتك خيل لو صبرت لها أنهَبْنَ روحك فى الوغى نهبا
من حى عدنان وإخوتهم قحطانَ ، لا مِيلاً ولا نُكُبا
أعصمتَ بالليل البهيم وقد ألقى عليك ظلامُه حجبا
وتركت جندَك للقنا جَزَراً والبيضُ تجذب هامهم جَذبا
فاشكر أيادىَ ليلة سنحت لك بالبقا فركبتها ركبا(٣)

(١) البيتان من قصيدة نونية فى الديوان ص ٣٨٩
(٢) وردت هذه الكلمة « كريت » ولا معنى لها .
(٣) البيت الأول من الديوان ص ٤٩٠ ، وبقية الأبيات مختارة من قصيدة فى تلك الصفحة

ثم قدم أبو إسحاق إلى مصر وحارب أهل الحوف وهزمهم ، ودعا رئيس قيس عبد الله بن حليس ، ورئيس اليمانية عبد السلام بن أبي ماضى ، وقيدهما وسجنهما ثم دخل بهما الفسطاط وقتلهما وصلبهما بالجيزة (الاثنين ١٨ ذى القعدة سنة ٢١٤) . قال معلى الطائى وخص بأكثر شعره عبد الله بن حليس(١) :

إن الحلَيْسىَّ غدا سابقا　　　في حلبة الجسرين قد قَصَّبا
على طِمِرّ ماله أرجل　　　من صنعة النجار قد شُذِّبا
وليس يدرى عند إلجامه　　　من أثْفَر الطِّرف ومن لبَّبا
مسمَّرُ الخلق أمونُ الشَّوى　　　يأنف أن يأكل أو يشربا
ولو سرى ليلته كلها　　　ما جاوز الجسر ولا قربا
لو كان من بعض نخيل القرى　　　كان أبو القاسم قد أرطبا
كسا أبو إسحاق أوداجه　　　أبيض لا يُعتِب من أغضبا
وقد سقى عبدَ السلام الردى　　　فكيف بالله إذا جرَّبا

وهو شعر ساخر يتهكم فيه بهذا البائس المصلوب . ويصف الصَّلب وحصانه ومكانه وصْفا دقيقا موجزا .

وخرج أبو إسحاق إلى الشام فى أتراكه ومعهم جمع من الأسارى ، وذلك فى أول المحرم سنه ٢١٥ .

ووليها إسحاق بن يحيى بن معاذ من قبل المنتصر بن المتوكل ، وولى عهده : فى ١١ ذى القعدة سنة ٢٣٥ . وقيل إنه عزم أن يثور بها ، فلم يلبث إلا يسيراً حتى عزل ومات بها بعد عزله سنة ٢٣٧ .

قال شاعر بصرى يرثيه ويسقى جدثه(٢) :

سقى الله ما بين المقطم والصفا　　　صفا النيل صوبَ المُزْن حين يصوب

(١) الكندى ص ١٨٨
(٢) النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٢٨٥

وما بىَ أن أســقى البلادَ وإنما أحاولُ أن يُسقىَ هناكَ حبيبُ
فإن تكُ يا إسحاقُ غبت فلم تَؤُبْ إلينا ، وسَفْر الموت ليس يئوب
فلا يُبعِدَنك اللهُ ساكنَ حُفْرة بمصرَ عليها جَنْدَلٌ وجَنوب

ثم وليها عنبسة بن إسحاق الضبى من قبل المنتصر سنة ٢٣٨ فأخذ العمال برد المظالم ، وأقامهم للناس وأنصف منهم ، وظهر بالخوف من العدل ما لم يسمع بمثله فى زمانه ، وكان يروح إلى المسجد ماشيا من العسكر، وكان ينادى فى شهر رمضان بالسحور ، وكان مشهوراً بمذهب الخوارج فلم يسلم من لسان الشعراء .

قال يحيى بن الفضل[1] :

من فتى يبلغ الإمام كتابا عربيــاً ويقتضيه الجوابا
بئس والله ما صنعت إلينا حين وليتنا أميراً مصابا
خارجياً يدين بالسيف فينا ويرى قتلنا جميعاً صــوابا
مَرَّ يمشى إلى الصلاة نهارا وينادى السحور : ضل وخابا

وفى ولايته نزلت الروم دمياط يوم عرفة سنة ٢٣٨ فملكوها وما فيها ، وقتلوا وسبوا ، فخرج إليهم عنبسة فلم يدركهم فقد ارتحلوا إلى تنيس ، فأقاموا بأشتومها فلم يتبعهم عنبسة . فقال يحيى بن الفضل للمتوكل يثيره على عنبسة ، الذى ضعف وتواكل عن تتبع الروم وتأديبهم[2] :

أترضى بأن تُوطأ حريمُك عَنْوة وأن يستباحَ المسلمون ويُحْرَبوا
حمارٌ أتى دمياطَ والرومُ وُثَّبُ بِتنِّيس منه رأىَ عين وأقرب
مقيمون بالأشْتُومِ يبغون مثل ما أصابوه من دمياطَ والحرب تَرْتُب

(١) الكندى ص ٢٠١
(٢) خطط المقريزى ج ١ ص ٢١٤

فما رام من دمياط شبراً ولا درى   من العجز ما يأتي وما يتجنب
فلا تنسنا إنا بدار مَضِيعَةٍ   بمصرَ ، وإن الدين قد كاد يذهب

ونرى فيما تقدم أن هذا الشعر قد مال ، قصداً أو بغير قصد ، إلى السياسة والإدارة والأمن :

فعنى بالولاة والوقائع والطاعة والعصيان والحرب والسلم وشبه ذلك . ومن الطبيعى أن يذكر الشاعر هؤلاء الولاة بخير أو بشر . وهنا يقترب من السياسة ولا يستطيع أن يتجنبها عند ما يؤيد واليا رضى عنه ، أو يعيب عاملا سخط عليه ، أو عندما يقدم نصيحة لأمير المؤمنين أن يعزله أو يقره ؛ فتختلط السياسة بالمدح والهجاء والنصح والوصف وسواها ، ولم تسكت عنه دوافع العصبية القبلية فى بعض الأحيان.

وليست هذه الأحداث وحدها هى التى أثارت الشعراء ، ولا أظن هذا القدر هو كل ما قيل . ولولا كتب التاريخ واهتمامها بأدب هذه الفترة لما بقى لنا منها شيء يذكر ، فلها فضلها فى بيان زمن النصوص على وجه الدقة أو التقريب ، وفى توضيح معناها ، وبيان إشاراتها والإفصاح عن الشخصيات والأماكن والحوادث التى وردت فيها .

ولكن كتب التاريخ تحفظ ما يعنيها ، وكتب الأدب تروى ما يعجبها ويرضيها . وقد يضيع بين هذين قدر كبير لم يجد من يهتم بروايته .

الفصل الثامن

شعر العصر العباسي

— ٢ —

الشعر القضائي أو شعر الخصومات

لعل من الغريب أن تجد شعراً مدرجاً تحت عنوان كهذا ؛ وقد تحسب أن المقصود به قضايا تصاغ شعراً ، وترفع إلى القضاة منظومة ؛ أو أن المراد به دفاع موزون عن حقوق ؛ أو محاورات مقفاة بين خصوم ؛ أو أن أصحاب هذه القضايا ، أو القائمين بهذا الدفاع ، يعتمدون على المنطق ، أو يحتكمون إلى مواد القانون ، ونصوص الفقه وأصول التشريع .

ولكنك تقرؤه فتراه بعيداً عن هذا كله ، فهو شعر كغيره من الشعر ، فيه مدح وهجاء ، وفيه خيال وحقائق ، وفيه عواطف وانفعالات ، وفيه حق وفيه تحامل . ولكن المناسبات التي قيل فيها ، والحوادث التي أوحت به ، كانت في مجالس القضاة ، أو بسبب فصل القضاء ، أو لدافع يمت إلى شيء من ذلك .

ومن الطبيعي أن يكثر الحديث في مثل هذا الشعر عن العدل والظلم ، والقضاء والحكم ، والخصوم والشهود ، والبينة واليمين ، والحق والباطل وشبه ذلك .

وإذا تعرض هذا الشعر للقضاة هجاهم بما يشينهم كأكل أموال اليتامى ، أو أخذ الرشا ، أو الميل في القضاء ؛ أو مدحهم بما يشرفهم ، كالمؤاساة بين الناس في وجههم ومجلسهم وعدلهم ، والبعد عن الشبهات في تصرفهم ، والتخلق

بكريم الأخلاق وجميل الصفات .

وترى فى أثناء ذلك الشعر صوراً متعددة من حياة المجتمع ومشكلاته ، ومن المنازعات العامة والخاصة التى تعرض على مسمع القاضى وتقدم إلى حضرته . وأكثر ما بقى من شعر هذه المنازعات متصل بالأمور العامة كما سترى .

وكان لهذا النوع من الشعر مقدمات فى عصر بنى أمية ، رأينا منها هجاء عمران بن عبد الرحمن الحسنى لخلفه فى القضاء عبد الواحد بن عبد الرحمن . . . بن معاوية بن حديج . إذ رماه بالتخنث والأنوثة ؛ وهجاءً لمن ولاه ، وهو عبد الله بن عبد الملك ، ودعا على الوالى وقاضيه(١) .

ورأينا منها شعر اليتيم الذى لم ينصفه القاضى يحيى بن ميمون الحضرمى ، فقال فيه أبياتاً ، هى أقرب إلى الشكوى منها إلى الهجاء . وبلغ أمره هشام بن عبد الملك ، فعزل يحيى عن القضاء(٢) .

وأول شعر نعرفه من هذا النوع فى عهد العباسيين ، قاله عبد الأعلى بن سعيد الجيشانى :

فقد كان أبو خُزَيمة الرعَيْنىّ والياً على القضاء من قبل يزيدَ بنِ حاتم سنة ١٤٤ هـ . فرفع إليه أن عبد الأعلى بن سعيد تزوج امرأة من بنى عبد كُلال ، فقام بعضُ أوليائها وأنكروه ، وترافعوا إلى أبى خزيمة ، فقال : ما أحل ما حرم الله ، ولا أحرم ما أحل الله ؛ إذا زوجها ولى فالنكاح ماض . فارتفعوا إلى يزيد ابن حاتم ، وهو الأمير يومئذ . فقال يزيد : ليس عبد الأعلى من أكفائها ، وأمر أبا خزيمة بفسخ نكاحها ، فامتنع ؛ ففرق بينهما يزيد . فقال عبد الأعلى يعرض بالأمير ، ويتهمه بالكفر ، ويطعن فى قضائه(٣) :

---

(١) ص ١٥٦ من هذا الكتاب .
(٢) ص ١٥٨ من هذا الكتاب .
(٣) الولاة والقضاة ص ٣٦٧ .

« و » أعلنت الفواحش فى البوادى ... وصار الناس أعوانَ المريبِ
إذا ما عِبْتُهم عابوا مقالى ... لما فى القوم من تلك العيوبِ
وودوا لو كفرنا فاستوينا ... وصار الناس كالشىء المشوب
وكنا نستَطِبُّ إذا مرضنا ... فصار هلاك كُنا بيد الطبيب

وقد يعيب البيت الأول من هذه الأبيات أن نقص حرفا ففقد جمال الموسيقى وحسن النغم ؛ وهذا شعر عام لم تذكر فيه القضية ، ولا إشارة إليها لولا رواية الكندى للقصة ؛ ولكن الأبيات برغم ذلك تعد من الشعر الجيد ، وليست دون غيرها من الشعر القوى فى الهجاء .

وعندنا قصيدة أخرى كانت الخصومة فيها شخصية بين القاضى والشاعر . أما القاضى فرجل عظيم يسمى المفضَّل بن فَضاله ، والى القضاء من سنة ١٦٨ — ١٦٩ هـ . وأما الشاعر فهو إسحاق بن معاذ بن مجاهد بن خير . وكان بينهما مودة حتى مدح الشاعرُ القاضىَ فقال(١) :

لَفَضْلُك أضحى، يا مُفَضَّلُ، ظاهراً ... لمن كان يُعْنَى بالأمور ويعقلُ
لقد سُسْتَ فصل الحكم فى الدهر حِقبةً ... فلا أنت ذو خُرْقٍ ولا أنت تجْهَلُ
ولا أنت ممن يَطَّبِيه(٢) مطامعٌ ... ويُعرض عن قصدِ السبيل ويَعدِلُ
فإن قيل أى الناس أهجر للهوى ... وأقضى بفصل الحكم ؟ قيل المفضلُ
فأنَّى نخاف الجور منك ، وإنما ... دليلك فى الحكم الكتاب المنزلُ

لكنه تغير عليه وهجاه بعد الرضا عنه ، وذهب إليه يوماً فى خصومة ، وأدخل يده فى كمه ليخرج قصته ، فأخرج الهجو فدفعه إليه وهو :

---

(١) الولاة والقضاة ص ٣٧٩ (٢) يفتنه ويستميله

خف الله واسمع من مقالى ، مفضلُ … فإنك عن فصل القضاء ستُسأل
وقد قال أقوام ، عجبت لقولهم … أقاضٍ له شعر طويل مُرَجَّل

فرمى المفضل الرقعة وقال . قم لاحياك الله !

وروى الكندى الأبيات الآتية لإسحق بن معاذ فى هجاء القاضى المفضل . ويفهم من رواية الكندى أنها من قصيدة أخرى ، ولكن النظرة السريعة تقضى بأن القصيدة واحدة تغير فيها بعض الألفاظ ، وزيدت أبيات . قال إسحق :

خف الله وارفق واتئد يا مفضل … فإنك عن فصل القضاء ستُسأل
وإنك موقوف به ومحاسَب … فدونك ، فانظر ، كيف فى الحكم تفعل
أفى العدل أن أُقصى وأخرج متعباً … وتدنى بفضل منك خصمى ، ويدخل
ويُفتح — إن يدنو — له الباب جهرةً … ويغلق دونى ، إن دنوت ، ويُقفَل
وتُقبل منه فى مغيبى شهوده … وبَيِّنَتِى ليست ، إذا غاب ، تقبل
فهأنذا أصبحت خصمك فى الذى … قضيت به ، والحق ما ليس يجهل
فأصغ إلى السمع منك ، وأنْبِئنى … بأى وجوه الفقه أصبحت تعمل ؟

وهذا شعر فى الهجاء كأنه عتاب عنيف قوى ، تخير التهم التى توجه إلى قاض فتقضى عليه ، كالمحاباة وعدم التسوية بين الخصوم فى المعاملة ، ومجاوزة ما يقضى به الفقه والعدل .

وولى المفضل القضاء مرة ثانية من سنة ١٧٤ — ١٧٧ ورسم أقواماً للشهادة فلم يرض عنه إسحق . ودعا عليه وذمه ؛ قال[١] :

سأدعو إلهىَ حتى الصباح … لكيما يعيدكَ كلباً هزيلا
سننْتَ لنا الجور فى حكمنا … وصيرتَ قوماً لصوصاً عدولا

---

(١) الولاة والقضاة ص ٣٨٦ .

وهناك قضية أخرى كان المفضل فيها حكما عدلا أو قاضياً رحيما ؛ وهى قضية أبى الكَرَوَّسِ تمام بن الكَرَوَّسِ الكلبى ، الذى تزوج امرأة من المعافر يقال لها أم شاكر ؛ فنافرته يوماً فطلقها ! وادعت عليه مهراً . فخاصمته إلى المفضل فقال أبو الكروس :

ألا طرقتنا سُحْرَةً أمُّ شاكر ... بكاراً ، وهل يؤذيكَ إلا المباكِرُ
تخاصمنا ذَحْلاً ؛ لِأن بان وصلها ... وذَلك أمرٌ ، أين منه المقادرُ
وقد أخذت مهراً ، لما كان عندها ... وهذى شهودى حِمْيَرٌ والمعافِرُ

فقال له المفضل : يا أبا الكروس . إن شهد لك بالبراءة حكمنا لك ، وإن شهد عليك فعلينا الوفاء عنك .

وترى فى هذا الشعر تقريرا للخصومة وعرضاً موجزا للقضية ، ودفعاً للاتهام ، ولكنه لا يعرض للقاضى ، وكان موقف المفضل من أبى الكروس فى حالتى البراءة والإدانة موقفا كريما .

قضايا القاضى العمرى :

وإذا كانت هذه القضايا التى سجلها الشعر عن المفضل قضايا فردية ، فهناك قضايا أخرى سجلها الشعر عن قاض آخر ولى قضاء مصر فى أواخر عهد الرشيد ، من سنة ١٨٥ — ١٩٤ وهو القاضى عبد الرحمن بن عبد الله العمرى ، الذى كان معروفاً بمحبته لعمارة الأحباس « الأوقاف » ، وكان يقف عليهـا بنفسه ، ويجلس مع البنائين أكثر نهاره .

وكان له كُتَّابٌ ، ومن أجلِّهم سعيد بن كثير بن عفير ، ويحي بن عبد الله ابن بُكَير ، واتخذ من أهل المدينة من موالى قريش والأنصار وغيرهم نحواً من مائة ، كانوا يشهدون ، ورئيسهم المطرفى . ولكن شاعراً من عرب مصر ، من خولان ،

كان موكلا به ، يتتبع زلاته ، ويهجوه بعيوبه ؛ وكان يطعن فى أصحابه . فيتهمهم بالغنى بعد الفقر ، وبأكل أموال اليتامى وقبول الرشوة : ذلك الشاعر هو يحيي الخولانى ، الذى يقول(١) :

كم فقــير كان قد موَّلَهُ ... بالمواريث التى كان مَنَحْ
زكريا وكَبِيشٌ منهـم ... والمدينيُّونَ أصحاب البَلَحْ
فأفادوا الدور فضــلا ، بعد ما ... كَلِبَ الفقرُ عليهم وألَحّْ
كم يتيم قد حــوَوْا أمواله ... وشهيــدٍ عادل كان جُرِح

وقال قصيدة أخرى يهجو فيها العمرى وأصحابه ومنها(٢) :

تُـصَـيَّر أمـــوالُ اليتامى جوائزا ... لأصحـابه حتى اسـتقلوا وأتربوا
كبيش وطَـلْق والقـريرى منهمُ ... وخالدُ والجعدىُّ ذو الفِـقْهِ أشْهَـبُ
وما ابن بُكَـيْرٍ دونهم وسُرَاقَةٌ ... وســابقُ لا تنساه ذاك المعذب
وفى حَكَـم والمُطْرَفِىِّ عجيبة ... وما إن أبو يعقوبَ عنها مُغَـيَّبُ
وفى زكريا آية ، فاعجبوا لهـا ... فقد صار بعد الذل ، للجور يُرْهَبُ
وبعد قِرَانِ العُـرْيِ أصبح فاكتسى ... وبعد الحفَا والمشى قد صار يَرْكب
وغـيرُ الأُلَى عدَّدْتُ ممن نسيته ... رجالٌ كثير منهمُ يتعجب

وضعف بعض الأبيات والتراكيب ، كالبيت الأخير ، لا يهمنا بقدر ما يهمنا تصويرها لحال ذلك القاضى ورجاله الذين عنى الشاعر بسرد أسمائهم ، مثل زكريا ابن يحيي ، وكبيش بن سلمة ، وسابق بن عيسى ، وأشهب بن عبد العزيز ، ويحيي ابن بكير . وكان لبعض هؤلاء عمل مع القــاضى ، فاتهمهم الناس بالرشوة ، كما

(١) ، (٢) الولاة والقضاة ص ٣٩٦ .

اتهمهم يحيي الخولانى فى هذه الأبيات السابقة .

قضية الحرس(١) :

وهى قضية مشهورة شغلت الناس زمناً ، وشغلت الشعر معهم أيضاً ، وأصل هذه القضية أن بعض العرب بمصر ؛ منهم أبو رَحْب الخولانى ، العلاء بن عاصم وهاشم بن حديج ، وأبو الدهمج رياح بن ذؤابة الكندى ، « كانوا يتحرشون أهل الحرس ويؤذونهم » ، وهم من القبط الذين أسلموا ، كما يفهم من بقية القصة ، وكان أولئك العرب يأبون عليهم أن ينسبوا إليهم ، وأن يكون لهم مثل مزاياهم . فمشى أهل الحرس إلى زكرياء بن يحيي كاتب العمرى ؛ وكان منهم ؛ فقالوا له : حتى متى نؤذى ويطعن فى أنسابنا ؟ فأشار عليهم زكريا بجمع مال يدفعونه إلى العمرى ، ليسجل لهم سجلا بإثبات أنسابهم ، فجمعوا له ستة آلاف دينار ، ووكل لهم فى الأمر سابق بن عيسى ؛ وكبيش بن سلمة ولوط بن عمر . فلما صار المال إلى العمرى لم يجسر على أن يسجل لهم ، وقال : ارفعوا إلى الرشيد فى ذلك . فخرج عبد الرحمن ابن زياد الحرسى وأبو كنانة إلى العراق ، وأنفقا مالا عظيما هناك ، وادعيا أن المفضل ابن فضالة قد كان حكم لهم بإثبات أنسابهم ، وأنهم بنو حَوْتَكَة بن أسلم بن الحاف بن قُضَاعَة .

أما نسبة الحكم بعربيتهم إلى المفضل بن فضالة أولا فكانت تزويرا ، كما يفهم من الكندى(٢) ، وأن الذى زورها وأقر بالتزوير رجل يسمى عبدَ الكريم القراطيسى ، وكان ماهراً فى تقليد الخط « وكان يضع على الخطوط نظيرها » . وقد أخذ فى وضعها ألف دينار ؛ وأخذ المتولى لديوان المفضل ألف دينار حتى أثبتهم فى الديوان .

---

(١) الولاة والقضاة ص ٣٩٧ وما بعدها . (٢) الولاة والقضاة ص ٣٩٨ .

ورجع عبد الرحمن بن زياد بكتاب من محمد الأمين إلى العمرى « بعد موت الرشيد » بالتسجيل لهم ، ودعاهم إلى إقامة البينة ، فقدموا جماعة من بادية الشام ، ومن أهل الحوف ، والشرقية ، فشهدوا أنهم عرب ، فسجل لهم العمرى نسبهم ، ولم يَرُدَّ من الشهود غير حُوَىّ بن حوي بن معاذ العذرى ، لمنازعة كانت بينه وبين أشهب بن عبد العزيز ؛ فقال يحيي الخولانى يذكر هذا الانتساب .

ومن أعجب الأشياء أن عصابةً ... من القِبْطِ فينا أصبحوا قد تَعرَّبوا
وقالوا أبونا حَوْتَكٌ ، وأبوهمُ ... من القبط عِلْجٌ حبله متذَبْذِبُ(١)
وجاءوا بأجلاف من الحوف فادَّعَوْا ... بأنهمُ منهم ، سِفَاهاً ، وأجلبوا
ألا لعنَ الرحمنُ من كان راضياً ... « بزَعمهمُ(٢) » مادامت الشمس تغرب

أما حُوَىٌّ بن حوى فلم يعفه من الهجاء أن رُدَّت شهادته ، إذ لم تكن له حيلة فى ردها ، وكان يرغب أن تقبل ، وكان راضياً بما كرهه يحيي الخولانى ، فقال فيه يحيي :

يا ليت أمَّ حُوَىٍّ لم تَلِدْ ذكرا ... أوليت أن حُوَيًّا كان ذا خَرَسِ
كسا قضاعةَ عاراً فى شهادته ... لله دَرُّ حوى شاهِدِ الحرسِ !
شهادةٌ رجعت ، لو أنها قُبِلت ... لألحق الزورُ منها العَيْرَ بالفرسِ

وود يحيي ، فى هذه الأبيات ، لو كانت أم حوى ولدته أنثى ، أو أنه خرس عن أداء الشهادة التى كست قضاعة عاراً ، ولو قبلت شهادته بالزور لألحقت الأدنى بالأعلى ، والوضيع بالشريف ، أو ألحقت الحمير بالخيل . ولكن شهادة الشهود قبلت ، وحكم القاضى للحرس بنسبتهم إلى حوتكة ، وكان

(١) العلج = الكافر من العجم .
(٢) فى الأصل « بهم رغماً » والبيت مكسور فجعلتها « بزعمهم » ليستقيم المعنى والوزن .

أهل الحرس يطيفون بالعمرى مع زكرياء بن يحيى كاتبه ، وصاروا أقرب إليه .

وعرف عن العمرى أنه يحب الغناء ، ويستمع إليه ، ويعرف فنونه ، ويرد ما يسمعه إلى كبار المغنين بالمدينة فيقول : هذا غـنَّى به ابن سُريج ، وهذا به الدلال ، وهذا من جيد غناء الغريض(١) ؛ ولم تكن بمصر مُسْمِعَةٌ إلا ركب إليها يسمع غناءها ، وربما قوَّم ما انكسر من غنائها ، ويرى ذلك من الدين . فقال فيه يحيى الخولانى :

مَرَّ بنا راكب على فرس ... يا من رأى هِرْبِذاً على فرسِ(٢)

يقدمهُ خالد ويتبعه ... لوط ، قِرانَ الكلبين فى مَرَسِ

فقلت من ذا اللعين ؟ قيل أبو النـ ... ـدى ، غدا مسرعا إلى عُرُسِ

كيما يرى قينةً ذكِرَتْ ... تشدو بصوت يُخالُ كالجَرَسِ

أصبح فى المخزيات منغمساً ... وليس فى غيرها بمنغمسِ

وكان العمرى فى نظره لاهياً لاعباً صاحب خمر وطرب ، ضعيف العصبية للعرب ، حتى ألحق بهم من لا يساويهم . واستبكى الخولانى سامعه لذلك ، واتهم القاضى بالجور فى أحكامه ، والسهر فى أماكن الريبة ، وشرب الخمر وسماع الغناء ، وتلك كلها مطاعن تسقط من عدالة القاضى ، وتثلم شرفه . فأتحفه بقصيدة أخرى فى هجائه . قال :

ألا قُمْ فاندبِ العَرَبا ... وبكِّ الدينَ والحسبا

ولا تنفكُّ تنعى العدْ ... لَ لمَّا بانَ فاغتربا

لقد أحدث قاضى السـ ... ـوء فى فُسْطاطِنا عجبا

---

(١) ابن سريج والدلال والغريض من مشاهر المغنين بالحجاز في عهد بنى أميه .

(٢) الهربذ : خادم النار عند المجوس ، وخادم بيت النار عند الهنود .

يظل نهاره يقضى بغير العدل منتصبا
ويسهر ليله لسما عِ القينات والطربا
ويشربها معتقة عقاراً تشبه الذهبا
ويعجبه سماع العو دِ والمزمار ، يا عجبا !
فيا للناس من قاض يحب اللهو واللعبا !

وأبى المعلى الطائى إلا أن يشارك فى الحملة على القاضى العمرى ، وأن يحرجه وأن يجعل مصيره إلى النار ، وذلك كله فى شعر سهل يشبه الحديث فى تدفقه وسهولته ، ولكنه قوى بما فيه من التهكم القاسى ، والإحراج المفحم ، إذ يقول للقاضى :

كم ، كم تطول فى قراتك والجور يضحك من صلاتك (١)
تقضى نهارك بالهوى وتبيت بين مغنياتك
فاشرب على صرف الزما ن بما ارتشيت من الحواتك
إن كنت قد ألحقتهم عربا فزوجهم بناتك
ولتكشفن بما أتيـ ـت صدور قوم من مساتك (٢)
وكأننى بمنية تسعى إليـ ـك بكف فاتك
لا تعجلن أبا النـدى حتى تصير إلى وفاتك
إن المقامع تطلقـ ـن من الجحيم إلى مماتك
بل لو ملكت لسان أ كـ ـثم ما وصلت إلى صفاتك

وقد ناله من الهجاء فى هذه القضية ما كشف عن سيئاته ، فشبهه الشعراء

(١) قراتك : قراءتك .

(٢) مساتك : مساءتك .

بأبي الندى الذى كان قاطع طريق فى أيامه ، وأعلنوا ما عرفوه عنه من لهو وحب للغناء والشراب . وشكاه أهل مصر إلى الرشيد كى يعزله فأبى وقال : ليس عندى من ولد عمر بن الخطاب غيره . ولولا ذلك لعزله .

قضية السباق : أو « الزعفران وجناح »[1]

وتلك قضية أخرى كان العمرى قاضياً فيها ، ولم يوفق فى حكمه ، وأثار عليه ثائرة الشاعر الخولانى . أما أصل هذه القضية فهو سباق بين فرسين ، أحدهما لمراد ويسمى الزعفران ، والثانى ليَحْصُب ويسمى الجناح . وقد اتفقت مراد ويحصب على أن يتسابق الفرسان ، ومن سبق فرسه أخذ الاثنين . وجعلا للسباق غاية فخرجوا ، وخرج عامة مصر معهم ، فسبق فرس مراد ، حتى كاد يدخل الغاية ، فخرجت يحُصب فضربت وجه الزعفران حتى تحير ، وسَعِدَ الجناحُ ، فرسُ يحصب ، فدخل الغاية . فاقتتلوا ، وانضم مع كل فريق منهم طائفة من الناس ، وركب الأمير ليث بن الفضل يحجز بينهم ، ورد الأمر إلى العمرى لينظر فيه ، فأتته يحصب بأموال عظيمة ، فحكم لهم بالفرس ، ودفع إليهم الزعفران ، وقضى لهم به . ولم يفت يحيى الخولانى أن يسجل ذلك فى شعره فقال :

فكم يد لبنى زَوْف وإخوتهم ... فى آل فِهْرٍ تغُصُّ الشيخ بالريق
إن حاكم عُمَرِىٌّ جار فى فرس ... فسوف يُرْجعه عدلُ ابن صديق

والبيت الأخير يرجح أن هذه الأبيات قيلت بعد عزل العمرى ، أو عند إشاعة عزله . وأن القصة نفسها كانت فى آخر أيامه ، وما أشبهها بقصة داحس والغبراء وكأنها صورة منها ؛ لولا انتهاء الخصومة هنا برد الفرس إلى أصحابه لما تولى القاضى البكرى .

(١) الكندى ص ٤٠٢ .

وكان ليحيى الخولانى خصم فى هذه المرة يدفع عن القاضى العمرى ، وهو شاعر يسمى عبد الله التجيبى ، من نسل معاوية بن حديج . قال ليحيى يدافع عن يحصب ، ويتوعد مراد :

طلبت فلم تأل حسنَ الطلبْ ورُمْتَ عظيما ولما تُصبْ
وعولت موتاً على رميهم بقوس الضلال ونَبْل الكذب
فإن كان فى فَرَس عَتْبكم فعندى لكم فرس من قصب
وإلا فمُهرٌ كريمُ النجارِ قليلُ العظام كثير العَصَبْ

فرد عليه يحيى بشعر فيه معنى الدفاع القضائى أو المحاورة بين الشاعرين :

قال يحيى لخصمه ، يدافع عن مراد :

ألا أيها الشاعرُ المنتدَبْ يحامى عن العُمَرىّ العطبْ
ورامى مرادٍ وخَوْلانها بنبل من الجهل غيرِ الصُّيُب
«فما» أنقص العمَرِى بامرِئٍ من الناس إلا كريمَ الحسب (١)
مَلا الأرض جوراً بأحكامه وأظهر فيها جميع الرِّيَب

وترى فى هذه القصيدة والتى قبلها روح العصبية الجاهلية ، والدفاع عن القبيلة .

وأشار الفضل بن الربيع وزير الأمين بعزله سنة ١٩٤ هـ فعزله الأمين ، بعد أن ولى هذا المنصب تسع سنين . وقال رجل من أهل مصر :

بحمد الله ورأى الفضلِ نُحىَ عن الحكم عَدُوٌّ العدل
هذا سِوارٌ لرسولِ العَزْل

---

(١) رويت كلمة « لعمرك » فى أول البيت وبها ينكسر الوزن . الصيب : جمع صيوب وهو الذى لا يخطيء الهدف .

القاضى البكرى :

ووليها بعده رجل من ذرية أبى بكر الصديق يسمى « هاشم بن أبى بكر البكرى » فى جمادى الآخرة سنة ١٩٤ ، وكان من أهل الكوفة يذهب بمذهب أبى حنيفة .

ونقض ما فعله العمرى فى أهل الحرس ، وما قضى به فى قضية الفرس ، وحبسه ومعه جماعة من أعوانه ، وطالبه بما صار إليه من الأموال . ولكن العمرى هرب من السجن ، وشيعه يحيى الخولانى بالبيتين الآتيين :

هربَ الخائن ليلا فجَنَحَ   وأتى أمراً قبيحا فافتَضَحْ
هاربٌ تحمله ناجيـــة   يصل الإدلاج عَدواً بالرَّوَحْ

وكأن هذين البيتين أول القصيدة التى تقدمت منها أبيات فى أول الحديث عن القاضى العمرى ، فالقائل واحد ، وكذلك البحر والقافية ، والغرض الذى قيل فيه الشعر وهذا بدء بلا تمهيد ، تحدث فيه فى الموضوع ، من غير أن يقدم لذلك بمقدمة من المقدمات التقليدية .

وهرب العمرى من السجن ليلا ، وذهب إلى مدين حيث أمواله ، فأخذها وسار حتى بلغ « فَـيْدَ » فلقيه قوم من أسد وطيء فأوقعوا به ، وأخذوا جميع ما معه ، فما تخلص منهم إلا بحشاشة نفسه ، قال يحيى :

إن يكن أفلتَ منا سَالِماً   يوم ولى مسرعا حين هرب
فلقـد وافى بِفَـيْدٍ عصبةً   يسعرون الحرب حتى تلتهب

وقال طاهر القيسى لأبى رَحْب[1] ، وهو الذى أشار على البكرى بحبس القاضى العمرى :

---

(١) الولاة والقضاة ص ١٤٢ .

ولقد كسوت أبا النـدى بفعاله حـَربا يلوح قنـاعُـه المتقشـِّب
وزحمته لما تخـمـَّط ، زحمةً ضاقت عليه بها العراق ويثربُ (١)
ونجا ، لخوفك ، هاربا بخزَاية وأخو الخزَاية والشرارة يغْـلَبُ (٢)

وأوفد أبو رحب وهاشم بن حديج ، وفداً من أهل مصر إلى الأمين فأثاروا قضية الحرس ، فكتب الأمين إلى البكرى يأمره بردهم إلى ما كانوا عليه من أنسابهم .

القضية عند البكرى :

ودعا البكرى أهل الحرس أن يجيئوا بقضية العُمرى لهم ، فأتوه بها ، وتوهموا أنه يزيدهم شهوداً ، فأخرج البكرى كتاباً من تحت مصِلاة نقض به قضية العمرى فقال معلى الطائي (٣) :

يا بنى البظراء موتوا كمدا واسخنوا عينا بتخريق السِّجِـلّ
لو أراد الله أن يجعلكم من بنى العباس طراً لفَـعَلْ
لكن الرحمنُ قد صيَّركم قبط مصرٍ ، ومن القبط سَفَـل

وقيل إن البكرى أثار قضيتهم من جديد . وحضر من أهل مصر عبد الله ابن وهب ، وسعد بن أبي مريم ، وسعيد بن عفير ، وناس كثير من أهل القناعة والعدالة ، فشهدوا عند البكرى أن أهل الحرس من القبط ، وأن العمرى قضى فيهم بجور ، فنقض البكرى قضية العمرى فيهم وأشهد على قضائه بردهم إلى أصلهم من القبط .

قال يحيى الخولانى (٤) :

اشكروا الله على إحسانه فله الحمـــد جميعاً والرُّغب (٥)

---

(١) تخمط : تكبر . (٢) الشرارة : الشر .
(٣) الكندى ص ٤١٤ (٤) الكندى ص ٤١٥
(٥) الرغب : جمع رغبة ، وهى الضراعة .

رجع القبط إلى أصلهم بعد خزى طُوِّقوهُ وتعبْ
ودنانير رشوْها قاضيـاً جائراً قد كان فينا يغتصِب
أخذ الأموال منهم خُدْعةً وتولى عنهمُ ثم هرب

أبلغ البكرى عنى أنه عادل فى الحكم فرَّاج الكُرَبْ
قد أمات الجور فينا والرُّشا وأشاع العدل فينا فرَتَبْ

إنه قد كان يقضى بالهوى ويبيع الحكم جوراً ويَهَبْ
وإذا يخلو حَساها مُزَّةً مثل عين الديك من ماء العنب
فأتت كالشمس إلا أنها كسِيَتْ فى دَنِّها لونَ ذهب
ما كفته رَشْوةٌ ظاهرة وقضايا جورُكم(١) فيها عجب
أن أتى أعظم ما يأتى به أحد أن صَيَّر القبطَ عرب

وقال طاهر القيسى لأبى رحب الذى كان زعيما فى الثورة على انتساب أهل الحرس إلى العرب(٢) :

ولقد قَمَعتَ بنى الخبائث عندما راموا العلا وتحَوْتَكُوا وتعربوا
فرددتهم قِبْطـا إلى آبائهم ونسيبِ أصلهم الذى قد غيبوا
وتركتهم مثلا لكل مُلَصَّق نسباً ، إذا التقت المحافل يُضْرَبُ

وتنتهى هذه القضية بعد أن تركت للقاضى العمرى ذكرى فى الشعر العربى لا ترضيه .

وفرض ابن لهيعة فروضاً للمطوعين الذين كانوا يعمرون المواحيز . وصارت سنة

---

(١) لعلها « جوره » . (٢) الكندى ص ٤١٥ .

بعده ، وسماها الناس فروض لهيعة ، فقال فراس المرادى [١] :

لعمرى لقد سارت فروضُ لِهَـيعَـةٍ إلى بلد قد كاد يهـلِكُ صاحـبُهْ
إلى بلد تُـقْرى به البـومُ والصدى تعـاوِرهُ الرومُ الطغامُ تحارِبهْ
رشـيدٌ وإخنا والبرلس كلها ودمياط والأشـتوم تقوى يغالبه
لهيع ، لقد حزت المكارم والثنـا ومن عند ربى فضـله ومواهبه
فقد عُمِـرَت تلك الثغـور بسُـنَّة تُـعَدُّ إذا عُـدَّت هنـاك مناقبه

وقدم المطلب الخزاعى فعزل لهيعة عن القضاء فى شهر ربيع الأول سنة ١٩٨ ثم ولاه ثانية فى المحرم سنة ١٩٩ فاستكتب سعيد بن تليد المصرى [٢] .

وقال أبو شبيب أنيس بن دارم مولى تجيب فى صحابة لهيعة :

قبَّـح اللهُ زمـانا رَاسَ فيـه ابن تليد
بعـد مِقراضٍ وخيط وأُبَيْراتِ حـديد
وأبو الزِّنبـاع خنـ ـاقُ غراميـل العبيـد
بعد سـيف خشـبى وسهام من حـديد
وأبو الروس المريسـ ـىُّ ابن دباغ الجـلودِ

واللقيط ابن بُكَير نطفـة الفَـدْم الطـريدِ
وابن سهم حارس الجـ ـيزة حلوان البريدِ
عصبة من طينة النيـ ـل مَنـاسِىٌّ الجدودِ
لبسـوا بعد التبابيـ ـن نفيسـاتِ البرودِ [٣]

(١) ص ٤١٩ والمواحيز يقصد بها الثغور .
(٢) ص ٤٢٣ .
(٣) التبابين = السراويل القصيرة جدا ، والبرود = الثياب الموشاة .

لازموا المسجد ضُلّا لا من الأمر الرشيدِ
لحوانيتَ بَنَوْها بفِنا كل عمودِ
وتسمَّوْا وتكنَّوْا بعد جرجه وشنودِ
وألاحوا بجباهٍ من نطاح الحصْر سُودِ
تحت أميال طوال كبراطيل اليهود(١)
نصبوها كالمقاعيـ ـد على رُوس القرودِ
وتراهم للوصايا وعدالات الشهودِ
فى مِرَاءٍ وجدَالٍ وقيامٍ وقعودِ
وخشوع وابتهال وركوعٍ وسجودِ
وعلى القسمة أضْزَى من تماسيح الصعيدِ
وأشاروا للهدايا بأبى عبد الحميدِ

وانظر إلى ما فى هذه القصيدة من قوة فى التصوير والتهكم ، وما كان يراه العرب من فرق بينهم وبين غيرهم ، ورأى هؤلاء فى اللحاق بالعرب لتكون لهم مثل منزلتهم .

وولى قضاء مصر تسعة رجال من حضرموت آخرهم لهيعة ، وكان هناك ولاة آخرون فى الأندلس وفلسطين وبرقة الخ ، فقال الشاعر فى هؤلاء الحضارمة(٢) :

ما من بلاد من البلدان نعلمه إلا وفيه من الأشياخ والحدَثِ
قضاة عدلٍ لهم فضل ومعرفة مبرءون من الآفات والرَّفَثِ

---

(١) الأميال = أنواع من العمائم ، والبراطيل = القلانس ، والمقصود أن أغطية الرأس عالية كبيرة .
(٢) الكندى ٤٢٥ .

وقال آخر :

لقـد وَلِىَ القضاء بكل أرض ... من الـغر الحضارمة الـكرام
رجالٌ ليس مثلهـمُ رجال ... من الصيـد الجَحاجِحة الضخام

وقال يزيد بن مِقْسَم الصدفى :

يا حضرموت هنيئاً ما خُصِصْت به ... من الحـكومة بين العُـجم والعرب
فى الجاهلية والإسـلام يعرفه ... أهل الرواية والتفتيش والطلب

وكان بعض القضاة يروى رقيق الشعر ، وكان فيهم شعراء . وهذا قاض منهم واضح الصبابة ، أو جيد التقليد ، وهو هرون بن عبد الله ، الذى ولى القضاء من قبل المأمون سنة ٢١٧ ، وكان من خير القضاة وأحسنهم إشرافا ، وأدقهم مباشرة لما يليه ، ويروى عنه أنه أنشد عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون(١) .

ولمـا رأيت البينَ منها فجـاءة ... وأهونُ للمكروه أن يُتـَوَقـَّـعا
ولم يبق إلا أن تودع ظاعن ... مقيما ، ويَذْرِى عبرةً أن تُوَدِّعا
نظرت إليهـا نظرة فرأيتهـا ... وقد أبرزت من جانب الخدر إصبعا

وأخبره أن قائلها رجل قرشى . فقال ابن الماجشون أحسن والله . فقـال هرون : أنا والله قلتها فى طريق سرتها إليك . قال : قد والله عرفت الضعف فيها حين أنشدتنى !

ويذكرنا هذا بما رواه القاضى الجرجانى(٢) من أن إسحاق الموصلى أنشـد الأصمعى شـعراً نسبه إلى الجاهلية فأبدى إعجابه به ، فقال له الموصلى : إنهما لليلتهما . فقال الأصمعى : لاعجب ؛ والله إن أثر التكلف فيهماظاهر . وذلك تعصب منه للقديم مصدره الهوى لا الذوق ولا العقل .

---

(١) الـكندى ص ٤٤٨ .
(٢) الوساطة ص ٢٣ .

الشعر فى خلق القرآن والخلافات المذهبية :

وولى القضاء محمد بن أبى الليث من قبل المعتصم سنة ٢٢٣ . وكان مقيما بها من سنة ٢٠٥ ، وفقيهـا بمذهب الكوفيين — كان حنفيا — وفى أيام الواثق أمر بامتحان الناس بخلق القرآن ، واشتد فى ذلك ، وأمر أن يكتب على باب المساجد : لا إله إلا الله رب القرآن المخلوق . ومنع الفقهاء من أصحاب مالك والشافعى من الجلوس فى المسجد وأمرهم ألا يقربوه . وممن امتحن بذلك هرون بن عبد الله .

قال الحسين بن عبد السلام الجمل[1] لمحمد بن أبى الليث : وكأنه يستعرض أعمـاله أو يسجل حوادثه وأخباره فى ميدان الصراع المذهبى والفقهى ويمدحه بالبشاشة والسماحة ، والعلم النافع . وكان ابن أبى الليث حنفيا متعصبا لمذهبه ، فحبذ الحسين بن عبد السلام عمله فى محاربة مخالفيه ، والتشهير بمن قال بغير رأيه أو مذهبه :

وُلِّيتَ حكم المسلمين فلم تكن ... بَرِمَ اللقـاء ولا بِفَظٍّ أزْوَرِ
ولقد بجست العـلم فى طـلابه ... وفجـرت منه منابعاً لم تُفْجر
فحميت قول أبى حنيفة بالهـدى ... ومحمد واليوسـفى الأذكر
وفُتَى أبى ليـلى وقولَ قريعهم ... زفر القياس أخى الحجاج الأنظر

وحطمت قول الشـافعى وصحبه ... ومقالةُ ابن عُلَيَّةٍ لم تُنْصَحر
ألزقت قولَهم الحصـير فلم يجز ... عرضَ الحصير فإن بَدَا لك فاشبر
والمـالـكية بعد ذكر شـائع ... أخملتهـا فـكأنها لم تذكر

---

(١) الـكندى من ص ٤٥٢ — ٤٥٦ .

أين ابن هرمز أو ربيعة لا يَرَى ... ماذا تقَوَّل بالمقال الأجْوَر
كَسَّرته ، فهوى ، برأيك كَسْرَةً ... لبثت على قِدَم المدى لم تجبر
أعطتك ألسنةٌ أتتك ضميرَها ... وأتتك ألسنة بما لم تضمر
فأطفت بالأيْلى ينعق صائحاً ... فى كل مجمعِ مشهدٍ أو محضر
ومحمدُ الحكمى أنت أطفته ... وأخاه ينعق بالصياح الأجهر (١)
كل ينادى بالقُران وخلقه ... فشهرتهم بمقالة لم تشهر
لم ترض أن نطقت بها أفواههم ... حتى المساجدُ خلقَه لم تُنكِر
لما أريتهم الردى متصوراً ... زعموا بأن الله غيرُ مُصَوِّر

واشتدت المحنة ، فهرب بعض الناس ، واختفى بعضهم ، مثل يوسف بن أبى طيبة ، وأحمد بن صالح ، ومحمد بن سالم القطان ، وأبو يحيى الوقار ، وهرب ذو النون بن إبراهيم الإخميمى ، ورأى أن يرجع فوقع فى يده ؛ قال الجمل :

أحْجَرْتَ يوسفَ فى خزانة بيته ... فطوته عنك وطالما لم يُجْحَر
أخليت من عمرِ الزِّناء مُقامَه ... وعمرت منه مداخلا لم تعمر
وكَفَرْنك الأرضون حين سألتها ... خبر ابن صالح الخبيث الأكفر
جحدتك أقطار البلاد فما على ... حركاته وسكونه من مظهر
وثوى ابن سالِم خُفْيَةً فى بيته ... ثم امتطى غَلَس الظلام الأستر
فأُتِى به كفُرَيج أو كأبى الندى ... والناس بين مهلل ومكبر

---

(١) أخرج الأيلى من المسجد وعمامته فى رقبته ، ومطر غلام ابن أبى الليث يسوقه ، وهو ينادى بخلق القرآن ، وفعل مثل ذلك بمحمد بن عبد الله بن الحكم . ولما هم مطر بتناول قلنسوته بادر فأخذها فجعلها فى كمه . الكندى ص ٤٥٢ — ٤٥٣ .

وكذاك داود بن حَمَّادٍ اختفى	بعد الإجابة بالخبيث الأغدر
أسَفِي على شُمْطانِه إذ أفلتت	من سائق يشتالها أو مُجْرِرِ
ألاَّ أرى مطرا يطوف بنصفها	والنصفُ عند محلق ومقصر

وطالب ابن أبى الليث يونس بن عبد الأعلى بأموال كانت عنده ، وقال الجمل يحمد له ذلك ويذكر حرصه على الأموال العامة .

ودعوتَ أصحاب الوصايا بالذى	قعدوا عليه من التراث الأوْفَر
فأتاكَ من خشىَ العقابَ بماله	وطوَى الوصيةَ كل عود مُجسر
فجعلت أطباقَ السجون بيوتهم	لا يأنسون بمقبل أو مدبر
وثنيت وحدتهم بيونُس مؤنسا	وفتى أبى عون الخئون الأكبر
طرحوا لها الأموال خلف ظهورهم	ولقوا السجون بعقدة وتبصر
أرضى لهم ضَنْكَ السجون وضيقها	ولجاجَ رأيك فى الألد الأنخر
لم يُشْبِع الثلثانِ جوعَ بطونهم	حتى غَشُوا ثلث الضعيف الأفقر
فكأننى بك قد حشوتَ ببعضهم	وعر السجون وكل حبسٍ أقذر

ابن القطاس وابن أبى الليث :

وكان سعيد بن زياد الملقب بابن القطاس ، يتنقص ابن أبى الليث ويتكلم فى المسجد بالطعن فيه ، والدعاء عليه ، فاستدعاه فأنكر ، وأتى إلى ابن أبى الليث رجل فأخبره أن ابن القطاس مملوك لم يجر عليه عتق ، وشهد الشهود بذلك ، وادعى رقبته رجل من الأزد ، يقال له ابن الأبرش ، فحبسه القاضى خمسة أيام ، ثم حكم بشهادة الشهود ، وأمر به فنودى عليه ، فبلغ ديناراً ، فاشتراه محمد بن أبى الليث ثم أعتقه ، فقال الجمل :

وبطشت بالقَـطُّوس بطشةَ قائم — بالحق غيرِ مُقصّر ومبـذر
ما زلت تفحص عن أمور شهوده — فى السر والعلن المبين الأظهر
فربطته فى رِقّهِ ومنعتـــــه — يطأُ الحرائر وهو غير مُحرَّر

ابن الليث والعمائم العالية :

وكان زى أهل مصر ؛ وجمال شيوخهم وأهل الفقه والعدالة منهم ، لباس[1] القلانس الطوال ، وكانوا يبالغون فيها . وأشار ابن دارم إلى ذلك فى قوله :

تحت أميـــال طوال — كبراطيـــل اليهـود

فأمرهم ابن أبى الليث بتركها ومنعهم لباسها ونهاهم أن يتشبهوا بلباس القاضى وزيه ، فـلم ينتهوا ، فجلس ابن أبي الليث فى مجلس حكمه فى المسجد ، واجتمع أولئك الشيوخ عليهم القلانس ، فأقبل عبد الغنى ومطر : فضربا رءوس الشيوخ حتى ألقوا قلانسهم . ولعب بها الصبيان والرعاع ، وكانوا بعد ذلك لا يدخلون إلى ابن أبى الليث ولا يحضرون مجلسه فى قلنسوة :

وأنشد اسماعيل بن اسحاق بن ابراهيم بن تميم ، من شعر الجمل فى هذا :

وأخفت أيامَ الطوال وأهلَها — فرَمَوْا بكل طويلةٍ لم تَقْصُرِ
ما زلت تأخذُهم بطرح طِوَالهم — والمشيِ نحوك بالرءوس الحُسَّرِ
حتى تركتهم يُرَوْن لبـاسَهـا — بعـد الجمـال خطيئـةً لم تغفر
يتفزعون بكل قطعة خرقة — يجدونها من أعيُنٍ ومُخَـبِّر
فإذا خلا بهم المكان مشوا بهـا — وتأبطوها فى المكان الأعمر

(١) وهى التى أمر بلبسها يحي بن داود الخرسى والى مصر سنة ١٦٥ . (الكندى ص ١٢٣) وقد أخذ الفقهاء والأشراف بلبس القلانس الطوال فى الدخول بها على السلطان يوم الاثنين والخميس .

فلئن ذُعِرَتْ طوالهم فلطالما ... ذُعِرت ، ومَنْ بِرُوَائِها لم يُذعَر
كانوا إذا دلفوا بهن لِمَفْصَلٍ ... أمضى عليه من الوشيج الأسمر

كم موسر أفقرته ومُفَقَّرٍ ... أغنيته من بعد جَهْدٍ مُفْقِرِ
ما إن عليك لقيت منهم واحداً ... وَافى العجاج مدجَّجا فى مِغْفَر
لبسوا الطوال لكل يوم شهادة ... ولقوا القضاة بمشية وتبختر
مالى أراهم مطرقين كأنما ... دُمِغتْ رءوسهم بحُمَّى خيبر

وتوقف النيل فاستسقى أهل مصر ، وحضر ابن أبى الليث معهم ، فوثب المصريون ، وأخذوا قلنسوته فلعبوا بها ، بعد ما آذى قلانسهم [١] .

ولما عزل ترك الكثير منهم لبس القلانس وكأنهم قد تعودوا هذا .

وقد تجد فى هذه القصيدة ميلا إلى تكلف الاستعارات ، وضعف التأليف ، واجتلاب الكلمات التى تتم بها القافية ، ولكن طبيعة الموضوع ترغم الشاعر على هذا ، فالتسجيل والسرد من عمل المؤرخ لا الشاعر ، والجمل قد جعل من نفسه مؤرخاً ومحامياً ، ولكنه استطاع أن يجيد فى كثير من الأبيات :

وكان رجل يسمى يحيى بن زكريا ، مولى كندة ، يجلس فى المسجد فيخبر بعزل محمد بن أبى الليث ويشنع عليه فأرسل إليه ابن أبى الليث فلم يكف ، فضربه وحبسه حيناً ، قال الجمل :

كم يعزلونك من يوم ويكذبهم ... حمل القمطر فما انحاشوا وما وكلوا
سيعلمون من المعزول عندهم ... أأنتَ أم هم ، إذا فاتهم الأُكل
هيهاتَ ! منَّتهم الآمال باطلها ... وأى مستضعف لم يخدع الأملُ
أما قضايا كُم فيهم مُعمَّلةً ... ما إن لإرجافهم من فسخها عملُ

(١) الكندى ص ٤٠٦

يا أوجها لهمُ ، ما كان أصفقها | من أوجه! كيف لا يثنيهم الخجلُ!
قالوا عُزلت ، وما يدرون أنهمُ | عن الشهادات والزورِ الذى عُزلوا

وترى أن هذا الشعر كله لم يخل من إشارات ودلالات اجتماعية تبين بعض أخلاق الناس أو عاداتهم كقصيدة أنيس بن دارم التى تشير إلى قوة العنصرية فى مصر بين طبقتين من المسلمين ، إحداهما عربية ، والثانية مصرية .

ففى قصيدته(١) الدالية ذم لأصحاب القاضى ابن لهيعة من المصريين ، وعلى رأسهم ابن تليد . وفيها أن الأسماء والكنى يجب أن تكون وقفاً على العرب لأنها للرفعة .

ونفهم من شعر يحيى الخولانى أن اللهو كان معروفا ، وكان فى الحاضرة شراب وغناء ، وأن بعض القضاة كان يسمع الغناء ، ويركب إلى الملاهى علناً فى جماعة من أصحابه ، وأن الرشوة كانت شائعة فى أتباع القاضى وكتابه ، وأن العرب أبوا أن يشاركهم مسلمو مصر فى الانتساب لأنهم أقل منهم قدراً .

فلما وصل القبط إلى ذلك سخط العرب وثارت ثائرتهم على القاضى العمرى ، ولم يسكتوا حتى رفض القاضى البكرى ما فعله القاضى العمرى ، وأخرجهم من نسبهم العربى .

وفى قصيدة الحسين بن عبد السلام الجمل(٢) ، وأنيس بن دارم دلالة على أن ملابس الرأس كانت عمائم عالية ، ثم حاربها القاضى ابن أبى الليث حتى قضى عليها سنة ٢٢٠ . وفى قصيدة الحسين أيضا صورة عنيفة من الخلافات المذهبية والدينية .

وفى شعر إسحاق بن معاذ أن المفضل بن فضاله كان قاضياً « له شعر طويل مرجل » .

ولو جاءنا كثير من هذا الشعر لكانت دلالته أقوى وفائدة التاريخ منه أعظم .

---

(١) الكندى ص ٤٢٣ . (٢) الكندى ص ٤٦١ .

الفصل التاسع

الشعراء فى عهد العباسيين

(ا) شعراء مصر :

أما شعراء مصر فى هذه الفترة فلم يكن عددهم كثيراً ، ولا كان الشعر عملهم إذا استثنينا المُـعَـلَّى والحسين بن عبد السلام الجمل . لـكن الشعر الباقى لنا يدل على استعداد قيم ، وعلى مواهب لو قيض لها من يشجعها أو انصرف أصحابها إلى ترقيتها لأبدعوا وأجادوا ، كإسحاق بن معـاذ بن مجاهد بن خير ، ويحيى الخولانى . وأشهر هؤلاء الشعراء سعيد بن عفير ، والمعلى الطائى ، والحسين بن عبد السلام الجمل .

١ — سعيد بن كثير بن عفير : (١٤٦ — ٢٢٦ هـ)

أول شـعراء هذا العصر ، وهو رجل متعدد النواحى إذ كان فقيهاً ومحدثاً وكاتب قضاء ، كما كان شاعراً راوية للأدب ، عالمـا بالأنساب والأخبار ، وأيام العرب ومآثرها ووقائعها ، والمناقب والمثالب ، وكان فى ذلك كله شيئاً عجيباً(١) .

أما شعره فيمتاز بالصدق والصراحة ، والبعد عن الزلفى . وفيه النقد الحر للوالى . وقد تقدم أكثر شـعره الذى جاء به الـكندى . وأول ما روى له من الشعر متصل بسنة ١٦٨ هـ ، وآخر ما روى له كان فى سنة ٢٠٩ . وقد يبدو فى

---

(١) تهذيب التهذيب ج ٤ ص ٧٥ .

شعره أثر العصبية والميل إلى قحطان وإلى قضاعة ، وشعره فى جملته جيد الأسلوب صادق المعنى .

٢ — المعلىّ الطائى :

عاش المعلى وسعيد بن عفير زمنا . والأشعار التى رواها الـكندى له تمتد من سنة ١٩٤ — ٢١٤ هـ . وقد شغلا شعرهما بالأخبار والحوادث ، أو برجال الدولة وأعمالهم ، أو بالسياسة وتطورها ، ولـكن اختلفت طباعهما وثقافتهما وصلتهما بالولاة ، ويظهر أن المعلى كان أقربهما إلى الشعر ، وأكثرهما تجويداً له وعناية به ، كما كان أصغرهما سنا .

وللمعلى الطائى شعر فى غير الـكندى . فقد روى له الأغانى بيتين[١] فى الدعوة إلى الصبّـوح صبيحة النيروز ، وفى تبسم الربيع عن نواره . وروى له قصيدة فى مدح عبد الله بن طاهر والاعتذار إليه بعد تغلبه على ابن السرى[٢] .

وقصة هذا المدح أنه لمـا فتح ابن طاهر مصر « سوغه المأمون خراجها ، فصعد المنبر ، فلم يزل حتى أجاز بها كلها ثلاثة آلاف دينار أو نحوها ؛ فأتاه معلى الطائى ، وقد أعلموه ما صنع عبد الله بن طاهر بالناس فى الجوائز ، وكان عليه واجدا ، فوقف بين يديه تحت المنبر فقال : أصلح الله الأمير . أنا مُعلىّ الطائى ، وقد بلغ منى ما كان منك من جفاء وغلظ ، فلا يغلُـظنّ علىّ قلبك ، ولا يستخفنك الذى بلغك . أنا الذى أقول :

يا أعظم الناس عفوا عند مقدرةِ ... وأظلم الناس ، عند الجود ، للمالِ
لو أصبح النيلُ يجرى ماؤه ذهبا ... لما أشرْتَ إلى خَزْنٍ بمثقال
تُغْلى بما فيه رِقّ الحمد تملكـُهُ ... وليس شىء أعاضَ الحمدَ بالغالى

---

(١) جـ ١٧ ص ١٢٧ (٢) جـ ١١ ص ١٢ .

تَـكُفك باليسرِ كفَّ العسر من زمنٍ   إذا استطال على قوم بإقـلال
لم تخْـلُ كفك من جُودٍ لمختَـبطٍ   ومرهَـفٍ قاتلٍ فى رأس قتـال
وما بَثَـثْتَ رَعيلَ الخيـل فى بلد   إلا عصفن بأرزاق وآجـال
إن كنتُ منك على بالٍ منتَ به   فإن شـكرك من قلبى على بال
ما زلتُ مقتضِـباً لولا مجـاهرةٌ   من ألسُـنٍ خُضْنَ فى صدرى بأقوال

قال : فضحك عبد الله ، وسُرَّ بما كان منه ، وقال : يا أبا السمراء . أقرضنى عشرة آلاف دينار ؛ فما أمسيت أملـكها . فأقرضه ، فدفعها إلى » .

وهذا من جيد المدح لحسن السبك ولطف المعانى .

واستدل بعض المؤرخين بهذا المدح على أن المعلى كان متنقلا فى ولائه ، وأنه كان متكسباً بشعره . ولـكن ذلك كان شائعاً فى أكثر الشعراء . فـكيف يؤخذ المعلى وحده بذنبه ؟ أما ابن طاهر فـكان سخيا ، سريع العفو عنه ؛ لما كان يعرفه عن الشعراء من ولاء متنقل ، وإخلاص لمنصب الوالى وعطائه ، ولما فيه من ذوق رقيق وحس مرهف يتأثر بهذا البيان القوى ، والشعر السائر .

وروى ابن عبد ربه خبر رثاء المعلى لجاريته ، فقال(١) :

« كان لمعلى الطائى جارية يقال لها « وصف » وكانت أديبة شاعرة . فأخبرنى محمد بن وضاح قال : أدركت معلى الطائى بمصر وأُعْـطِىَ بجاريته « وصف » أربعة آلاف دينار فباعها ، فلما دخل عليها قالت له : بعتنى يا معلى ؟ قال نعم . قالت : والله لو ملـكت منك مثل ما تملك منى ما بعتك بالدنيا وما فيها ! فرد الدنانير

(١) العقد الفريد ص ١٨٩

واستقال صاحبه . فأصيب بها بعد ثمانية أيام . فقال يرثيها :

يا موت كيف سلبتني « وَصْفا » قَدَّمْتَها وتركتني خَلْفاً
هلا ذهبت بنا معاً ، فلقد ظَفِرت يداك ، فَسُمْتني خَسْفا
وأخذت شِق النفس من بدني فقبرته ، وتركت لى النصفا
فعليك بالباقى بلا أجلٍ فالموت بعد وفاتها أعْفَى
يا موت ما بقَّيْتَ لى أحداً لما رفعت إلى البلى « وَصْفا »
هلا رحمتَ شباب غانيةٍ ريّا العظام وشَعْرَها الوَحْفا(١)
ورحمت عينَى ظبيةٍ جَعَلتْ بين الرياض تناظر الخِشفا(٢)
تُغْضِى إذا انتصفت مرابضه وتظل ترعاه إذا أغْفَى
فإذا مشى اختلفَتْ قوائمه وقت الرضاع فينطوى ضعفا
متحيراً فى المشى مرتعشاً يخطو فيضرب ظِلْفُه الظلفا
فكأنها « وصفُ » إذا جعلت نحوى تُحيرُ محاجرا وُطْفا(٣)
يا موت أنت كذا لكل أخى إلفٍ يصون ببره الإلْفا
خليتَنِى فردا وَبِنْتَ بها ما كنتُ قبلك حاملا وَكْفاً(٤)
فتركتها بالرغم فى جَدث للريح تنسفُ تُربَه نسفا
دون المقطم لا يُلَبِّسها فى زينةٍ قُلْبا ولا شَنْفا(٥)

---

(١) الوحف : الكثير الأسود .
(٢) الخشف : بفتح الخاء وكسرها : ولد الظبي أول ما يولد ، أو أول مشيه .
(٣) شعر أجفانها كثير : جمع وطفاء .
(٤) الوكف : الضعف ، والثقل ، والشدة .
(٥) القلب سوار المرأة . الشنف : ما يعلق فى أعلى الأذن كالقرط .

أسكنتها فى قعر مظلمةٍ   بيتاً يصافح تربُه السقفا
بيتاً إذا مازاره أحد   عصفت به أيدى البلى عصفا
لا نلتقى أبداً معايَنَةً   حتى نقومَ لربنا صَفَّا

لبست ثياب الحتفِ جاريةٌ   قد كنت ألبَسُ دونها الحتفا
فكأنها والنفس زاهقةٌ   غصن من الريحان قد جَفَّا
يا قبر أبْقِ على محاسنها   فلقد حويتَ البِرَّ والظَّرْفَا

والمقدمة التى جاء بها ابن عبد ربه تثير العطف والإشفاق على تلك الجارية الضعيفة الحيلة ، مع سيدها الذى آثر الدنانير عليها . وقد استطاعت أن تهز مشاعره ، وتعطف قلبه ؛ فاستردها مشفقاً عليها ، واستبقاها متأثراً بعتابها الباكى الحزين . لكن الموت عدا عليها بعد أيام . ولا ندرى إن كان ذلك من خشية الفراق ، أم من مرض قاتل .

وقد رثاها المعلى ، فجعل رثاءه حديثاً إلى الموت ، مملوءاً بالحسرة الشديدة على حسنها الفانى ، وشبابها المختضر . وعتاباً لهذا الموت الذى لم يرق للجمال الغض ، بل عصف به ، فأسكنه جدثاً موحشاً ، وأسلمه إلى أيدى البلى تعبث به ما شاءت ، حتى تحيله ترابا . ويختم الرثاء بضراعة لا تجدى ، ونداء لا يفيد . إذ يقول :

يا قبر أبق على محاسنها   فلقد حويت البر والظرفا

وقد اختارها ابن عبد ربه مثلا فى رثاء الجوارى فأحسن الاختيار ؛ لما فيها من سهولة فى التعبير ، وقدرة على إثارة الأشجان ، وحسن اختيار للمعانى التى دار حولها الرثاء .

وللمعلى الطائى شعر يصف فيه محبة الآباء لأولادهم فيقول :

لَوْلا بُنَيَّاتٌ كزُغْبِ القَطَا   جُمِعْنَ من بعضٍ إلى بعضِ
لكان لى مُضْطَرَبٌ واسعٌ   فى الأرضِ ذاتِ الطولِ والعرْضِ

وإنمـــا أولادُنا بَيْنَنا أكبادُنا تمشى على الأرض
إنْ هَبَّتِ الريحُ على بعضهم أشفقَتِ العَيْنُ من الغَمْضِ (١)

وهو شعر سائر ، يتردد صداه فى الأجيال والأقطار ، وذلك لاتصاله بكل قلب ، وتعلقه بكل نفس ، وإحساس الناس جميعاً بمعناه إحساساً عميقاً ، وفيه من السهولة والقوة ما ضمن له الخلود والذيوع .

٣ — الجمل الشاعر : (١٧٠ — ٢٥٨ هـ)

وهو أبو عبد الله الحسين بن عبد السلام ، الشاعر المصرى المشهور ، المعروف بالجمل .

تقدمت لهذا الشاعر أبيات فى مدح القاضى محمد بن أبى الليث (٢) وذم أعدائه سنة ٢٢٧ هـ . وقال عنه ياقوت إنه كان « شاعراً مفلقاً ، مدح الخلفاء والأمراء » . وإنه « قدم دمشق وافداً على أحمد بن المدبر ؛ وكان أحمد مقصد الشعراء ؛ فمن مدحه بشعر جيد أجزل صلته ، ومن مدحه بشعر ردىء وجه به مع خادم له إلى الجامع ، فلا يفارقه حتى يصلى مائة ركعة ثم يصرفه ، فدخل عليه الجمـــل وأنشده (٣) :

أردْنَا فى أبى حسن مديحاً كما بالمدح تُنْتَجَعُ الوُلاةُ
فقـالوا أكرمُ الثَّقلَيْنِ طرًّا وَمِنْ جَدْوَاهُ دَجلةُ والفراتُ
وقالوا يقبل الشُّعَرَاءَ ، لكن أجلُّ صِلاتِ مادِحِه الصلاةُ

(١) نسبها ابن سعيد فى المغرب ص ١٠١ إلى المعلى الطائى ، وجاء ابن عبد ربه بالأبيات الثلاثة الأولى ونسبها إليه ، مع تغيير كلمة « جمعن » إلى « خططن » ج ١ ص ٣٦٤ ، ولكن أبا تمام فى الحماسة ج ١ ص ١٠٨ ينسبها إلى حطان بن المعلى مع ثلاثة أبيات قبلها فى الشكوى من الدهر .

(٢) ص ٢٠١ من هذا الكتاب .

(٣) معجم الأدباء ج ١٠ ص ١٢١ .

فقلت لهم : وما يغنى عيالى صَلاَتى ؟ إنما الشأنُ الزكاةُ
فيأمُرُ لى بكسر الصَّادِ منها فتصبحُ لى الصَّلاةُ هى الصِّلاتُ

وقد تجد فى هذا الشعر تكلفاً وصنعة ثقيلة فى تكرار الصلات والصلاة ، وكسر الصاد لينال ما يبتغيه ، والتعبير عن ذلك بالزكاة . ولكنه فى جملته شعر خفيف الروح لطرافة الموضوع ، وغرابة العقاب .

ويظهر من تاريخ الحسين بن عبد السلام أنه كان متكسبا بشعره مادحا ، مرتحلا أو مقيما . فقد مدح المأمون لما قدم إلى مصر ، ومدح الأمراء مثل عبد الله بن طاهر . فإذا حيل بينه وبين ممدوحه عتب أو هجا ، كعادة كثير من الشعراء .

روى ابن عبد ربه فى العقد[1] « أن حسين بن الجمل بكر إلى باب سليمان بن وهب ، فحجبه الحاجب وأدخل ابن شَعْوَة وحمدويه ، فقال الجمل :

ولعمرى لئن حُجِبْنَا عن الشيـ ـخ فلا عن وجهٍ هناك وَجِيهِ
لا ، ولا عن طعامه التافه النزْ رِ الذى حوله لِطامُ بنيه
بل حُجِبْنَا عن الخسف والمسـ ـخ ، وذاك التبريق والتَّمويهِ
فجزى الله حاجباً لك فَظًّا كل خيرٍ عنَّا ، إذا يَجْزِيهِ
فلقد سرنى دخولُ أخى شَعْـ ـوَة دونى ، وبَعْدَه حمدَويهِ

وترى فى هذا الهجاء لسانا حديداً ، وطعناً فى تلك الوجوه القبيحة ، واتهاما بالبخل والشح وقلة الطعام . وترى فيه مغالطة الشعر عندما دعا للحاجب الفظ ، لأنه أحسن إليه فمنعه من لقاء تلك الوجوه .

---

(١) ج ١ ص ٤١ وقد اختصرنا اسمه كما ترى

ولعله قد لقى من الرفض والحرمان يوما ما أثار نفسه ، فدعا إلى القناعة وقال :

إذا أظمأتك أكف اللئام كفتك القناعةُ شَبْعاً وريَّا
فكن رَجُلا رِجْلُه فى الثرى وهامَةُ هِمَّتِه فى الثريا
أبِيًّا لنائل ذى ثَرْوةٍ تراه بما فى يديه أبيا
فإنّ إراقَةَ ماءِ الحَيَا ةِ دون إراقَةِ ماءِ المحيا

وربما كان شعره هذا أثراً من آثار ضيق النفس بذل السؤال ، ورجوعها إلى رشدها وتذكرها للمثل العليا ، والأخلاق الكريمة . وهو شعر غريب ممن كان على مثل صفاته ؛ إذ يقول عنه ابن يونس فى تاريخ مصر[1] إنه كان « شرها فى الطعام ، دنىء النفس ، وسخ الثوب » وتلمح آثار الشره فى قصيدته السابقة لما حجب عن طعام سليمان بن وهب .

وفى شعر الجمل هذا ما فى شعر زمانه من عناية بالبديع ومحسناته ، وفى بعضها تكلف وثقل كما فى شعره لابن المدبر ، وانظر إلى الأبيات الثلاثة الأخيرة تجدها ممتلئة بالجناس والمقابلة والاستعارة .

(ب) الشعراء الزائرون :

لم تخل مصر من شعراء قدموا إليها مادحين ، يرجون خيراً من ولاتها ، وشيئاً من ثمراتها ، « فإن أُعْطُوا منها رَضُوا وإن لم يُعْطَوْا منها إذا هم يَسْخَطون » ولكن هذه الوفادة لم تصل إلى ما كان فى عهد عبد العزيز بن مروان.

١ — من مدحوا يزيد بن حاتم

من الولاة الذين وفد عليهم الشعراء بمصر الوالى يزيد بن حاتم المهلبى (من سنة ١٤٤ — ١٥١) .

وكان ربيعة الرَّقّىّ (الشاعر العراقى) قد قدم مصر فأتى يزيد بن حاتم السلمى

(١) نقلا عن معجم الأدباء جـ ١٠ ص ١٢٢

فلم يعطه شيئا، ثم عطف على يزيد بن حاتم الأَزْدِيَّ فشغل عنه ببعض الأمر، فخرج وهو يقول[١]:

أَرَانِي، ولا كُفْرَانِ لِلَّهِ، راجعا بِخُفَّىْ حُنَيْنٍ من نَوَالِ ابنِ حَاتِم

فسأل عنه: فأخبر أنه قد خرج وقال كذا — وأُنْشِدَ البيت — فأرسل فى طلبه، فأتى به، فقال: كيف قلت؟ فأنشده البيت. فقال: شغلنا عنك! ثم أمر بخفيه فخلعتا من رجليه وملئتا مالا. وقال: ارجع بهما بدلا من خفى حنين.

ولما عزل عن مصر، ووليها يزيد بن حاتم السلمى قال ربيعة:

بكى أهل مصرٍ بالدموع السَّوَاجِمِ غَدَاةَ غدا منها الأَغَرُّ ابنُ حاتم

وفيها يقول:

لَشَتَّانَ مابينَ اليزيدَيْنِ فى النَّدَى يَزِيدِ سليم والأَغَرِّ بنِ حاتِمِ
فَهَمُّ الفتى الأَزْدِيِّ إتلافُ مَالِهِ وَهَمُّ الفتى القَيْسِىِّ جَمْعُ الدَّرَاهِمِ
فلا يَحْسَبِ التمتامُ أنى هجوته ولكنَّنِى فَضَّلْتُ أهلَ المكارِمِ

وخرج إليه رجل من الشعراء يمدحه. فلما بلغ مصر وجده قد مات، فقال فيه:

لئن مصرُ فاتَتْنِى بما كنتُ أرتجى وأخلفَنِى منها الذى كنتُ آمُلُ
فما كلُّ ما يَخْشَى الفتى بمُصِيبَةٍ ولا كل ما يرجو الفتى هُوَ نائِلُ
وما كان بينى لو لقيتُكَ سالما وبينَ الغِنَى إلاَّ ليالٍ قلائِلُ

وقصده محمد بن عبد الله بن مسلم — ابن المولى — ومدحه بقصيدة جميلة أولها:

وإذا تباع كريمة أو تشترى فسواك بائعها وأنت المشترى[٢]

---

(١) العقد الفريد جـ ١ ص ١٥٦.
(٢) النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٢.

ويزيد بن حاتم معدود من أجواد العرب الذين سارت بجودهم الركبان، ويفهم من مقدمة هذه الأبيات الأخيرة أنه أقام بمصر بعد عزله وظل بها حتى مات.

٢ — أبو نواس بمصر :

ويحدثنا التاريخ الأدبى أن والياً بمصر اسمه الخصيب بن عبد الحميد(١) كان مقصد شاعر من كبار شعراء بغداد، هو الحسن بن هانىء الملقب بأبى نواس. وقد سكت التاريخ السياسى فلم يتحدث عن الخصيب هذا، لكن تاريخ الأدب خلد اسمه فى قصائد أبى نواس التى قالها مدحا وهجاء فى وفادته عليه.

روى أنه لما قدم أبو نواس على الخصيب بمصر، صادف فى مجلسه جماعة من الشعراء ينشدونه مدائح لهم. فلما فرغوا استنشده الخصيب فقال: ألا تنشدنا يا أبا على. فقال أبو نواس: أنشدك أيها الأمير قصيدة هى بمنزلة عصا موسى تلقَفُ ما يأفِكُون، فأنشده قصيدته الرائية التى أولها:

أجارةَ بيتَينا أبُوكِ غَيُورُ وَمَيْسُورُ ما يُرْجَى لديكِ عسير

حتى أتى على آخرها، فانفض الشعراء من حوله، واهتز لها الأمير، وأمر له بجائزة سنية.

ويقال إنه كان قد خرج إلى مصر فى زى الشطار وتقطيعهم، بطُرَّةٍ قد صففها، وكُمَّين واسعين، وذيلٍ مجرور، ونعل مطبق. وكان خروجه مع سليمان بن أبى سهل، فلما دخل على الخصيب بهذه الصورة ازدراه واستخف به، وكان تورَد عليه كتب الجِلَّةِ ممن بباب السلطان، ووردت كتب أبى نواس فيها، فقرأها ولم يستنشده، فانصرف مهموماً، وجاءه أهل الأدب، فاستمعوا

---

(١) الخصيب بن عبد الحميد أمير مصر على الخراج حوالى سنة ١٩٠ وإليه تنسب منية الخصيب.

شعره ، وكتبوه وأنشدوه للخصيب ، فاستحضره فأنشده[١] :

أجارة بيتينا أبوك غيورُ — وميسور ما يرجى لديك عسير
فإن كنت لا خلما[١] ولا أنت زوجة — فلا برحَتْ دونى عليكِ ستور[٢]
وجاورتِ قوما لا تزاورَ بينهم — ولا وصلَ إلا أن يكون نشور
فما أنا بالمشغوف ضربة لازب — ولا كلُّ سلطانٍ علىَّ قديرُ
وإنى لطرف العين بالعين زاجر — فقد كِدْتُ لا يخفَى علىَّ ضميرُ
كما نظرت ، والريح ساكنة ، لها — عقاب بأرساغ اليدين نُدُورُ[٣]
طوت ليلتين القوتَ عن ذى ضرورةٍ — أزَيْغبَ لم ينبت عليه شكير[٤]
فأوفت على علياء حين بدا لها — من الشمس قرنٌ والضَّريب يمور[٥]
تُقلِّبُ طرْفاً فى حجاجَيْ مَغارة — من الرأس لم يدخل عليه ذَرُورُ[٦]

ولما قال أبو نواس :

تقول التى من بيتها خف مركبى — عزيز علينا أن نراك تسيرُ
أما دُونَ مصر للغِنَى مُتَطَلَّبٌ — بلى إن أسباب الغنى لكثير
فقلت لها واستعجلتها بوادر — جرت فجرى فى جريهن عبير
ذرينى أُكَثِّرْ حاسديك برحلةٍ — إلى بلد فيه الخصيب أمير

قال له الخصيب : إذاً يكثر حسادها ، وتبلغ أملها ، وأمر له بألف دينار .

ويقول فيها :

إذا لم تزر أرض الخصيب ركابُنا — فأىَّ فتًى بعد الخصيبِ تَزُورُ

---

(١) عصر المأمون ج ٣ ص ٢٣٤ .
(٢) الخلم : الصديق .
(٣) ندور : نتوء العظم من موضعه .
(٤) شكير : الريش أول ما ينبت .
(٥) الضريب : الثلج أو الجليد .
(٦) الحجاج : العظم ينبت عليه شعر الحاجب . ذرور : ما يذر فى العين من الدواء .

فما جازه جودٌ ولا حلَّ دونَهُ ... ولكن يَصيرُ الجودُ حيثُ يصيرُ
فتى يشترى حسنَ الثناء بمالِهِ ... ويعلمُ أن الدائراتِ تدورُ
ولم ترَ عينى سُودَداً مثلَ سُودَدٍ ... يحل أبو نَصْرٍ بِهِ ويَسيرُ
وأطرقَ حياتُ البلادِ لِحَيَّةٍ ... خصيبيَّةِ التصميم حين تَسُورُ (١)
سموتَ لأهل الجَوْرِ فى حال أمْنِهِم ... فأضْحَوا وكلٌّ فى الوَثَاقِ أسيرُ
إذا قام غَنَّتْهُ على الساقِ حِلْيَةٌ ... لهَا خَطْوُه عند القيام قَصِيرُ
فمن يك أمسى جاهلا بمقالتى ... فإن أميرَ المؤمنين خبير
فما زِلْتَ توليه النَّصيحَةَ يافعا ... إلى أن بدافى العارضين قتير (٢)
إذا غاله أمر فإمَّا كَفيتَهُ ... وإما عليه بالكِفاءِ تشير

ويصف منازله بالطريق حتى يصل إلى الفسطاط ، ثم يقول :

زها بالخصيب السيف والرمح فى الوَغى ... وفى السلم يزهو منبر وسرير
جوادٌ إذا الأيدى كففن عن الندى ... ومن دون عوراتِ النساء غيور
له سَلَفٌ فى الأعجمين كأنهم ... إذا استؤذنوا يوم السلامِ بدور
وإنى جدير إذ بلغتك بالمنى ... وأنت بما أملت منك جدير
فإن تولنى منك الجميل فأهله ... وإلا فإنى عاذر وشكور

وقلدها كثير من الشعراء ، وسارت بذكرها الأحاديث فى الأدب العربى ، وعدت من عيونه إلى الآن .

ولا تخلو وفادة أبى نواس على الخصيب من أخبار ؛ بعضها بعيد عن التصديق كالمقدمة التى سبقت هذه القصيدة ، وهناك رواية (٣) عن لقاء أبى نواس للخصيب فى الشام بعد عزله ، وأن أبا نواس لم يعرف صاحبه ، فعرفه بنفسه ، فنزل عن دابته

---

(١) تسور : تثب . (٢) قتير : شيب .
(٣) معاهد التنصيص ج ٢ ص ٢٢٢ .

وقبل يده ورجله ، وسأله عن تغير حاله ، ودفع إليه ما كان معه من ثياب وراحلة ونفقة ، فأقسم الخصيب ألا يأخذ شيئا .

وكان أبو نواس يعتز بشعره ، ويعرف مبلغ سحره . فقد روى أنه كان مع الخصيب يوماً فى مجلس شراب ، وماج الناس بسبب الأسعار ، وتظاهروا ، فقال أبو نواس : دعنى أيها الأمير أسكنهم . فقال : ذلك إليك . فخرج أبو نواس حتى وافى المسجد الجامع ، فصعد المنبر وعليه ثياب مُشَهَّرات ، فقال[1] :

منحتكمُ يا أهلَ مصرَ نصيحتى ألا فَخُذُوا من ناصحٍ بنَصيبِ
ولا تَثِبُوا وثب السِّفَاهِ فتَرْكَبُوا على حدِّ حامى الظهر غيرَ رُكُوبِ
فإن يك باقٍ إفكُ فرعونَ فيكمُ فإن عصا موسى بكفِّ خَصيبِ
« رماكمْ أمير المؤمنين بحيَّةٍ أكولٍ لحيات البلاد شَرُوب »

قال : فتفرق الناس ولم يجتمعوا بعده ، وصدق ظن أبى نواس فى شعره .

وحكى عن إسماعيل بن أسباط[2] قال : لما قال أبو نواس :

« منحتكم يا أهل مصر نصيحتى »

رأى الخصيب فى المنام قائلا يقول : يا خصيب ، ما فوق هذا المدح مدح . قال : فما جزاؤه ؟ فأخبره أنه يستحق ألفا . فلما أصبح الخصيب صبح أبا نواس بألف دينار . فقال أبو نواس قصيدة أخرى فى مدحه بدأها بمقدمة تقليدية فيها حديث عن السكر ، وعن الناقة التى حملته إليه[3] ، ثم قال[4] :

أنت الخصيبُ وهذِه مصرُ فتدفقَا فكلاكما بَحْرُ

---

(١) الديوان ص ٧٨ .

(٢ ، ٣) معاهد التنصيص ج ٢ ص ٢٢٣ . (٤) الديوان ص ١٦٩ .

لا تصعدا بى عن مَدَى أملٍ شيئاً ، فما لكما به عُذْرُ
ويحق لى إذ صِرْتُ بينكما ألا يحل بساحتِى فَقْرُ
النيل يُنْعِشُ ماؤه مصراً ونداك يُنْعِشُ أهلَه الغَمرُ

ومدحه بقصيدة أخرى نونية تذكر فيها الكرخ وهو بمصر ، وذكر ما فيها من حانات وقصور كان يفد عليها للخمر ، أو للنائل الغمر ، ثم يخاطب ابنته فيقول :

يا ابْنَتى أبشرى بِمِيرةِ مِصْرٍ وتَمَنَّىْ وأسْرِفِى فى الأَمانى
أنا فى ذِمَّةِ الخصيبِ مُقيمٌ حيث لا تعتدِى صروفُ الزمانِ
قد عَلِقْنَا من الخصيب حِبالاً آمَنَتْنَا طوارِقَ الحدَثَانِ[1]

وغير ذلك من الأبيات .

وهجا الخصيب حين سخط عليه ، هجاء يكذبه مدحه فيه ؛ يقول :

خُبزُ الخصيبِ معلق بالكوكبِ يُحْمَى بكل مُثَقَّفٍ وَمُشَطَّبِ[2]

وقال فيه أيضا :

نَفسُ الخصيبِ جميعُه كِذْبُ وحديثه لجليسه كَرْبُ
تبكى الثياب عليه مُعْولةً أنَ قد يجر ذيولَها كَلْبُ[3]

أما هجاؤه لهاشم بن حديج فقد تجاوزه إلى أجداده وبعض مواقفهم التاريخية ، ومنها ما فعله جده بمحمد بن أبى بكر إذ يقول له[4] :

---

(١) الديوان ص ٢٩٣ .
(٢ ، ٣) الديوان ص ٨٢ ، والمثقف : الرمح . والمشطب : السيف .
(٤) الديوان ص ١٣٤ .

يا هاشم بن حُدَيْجٍ ليس فخركُمُ بقتل صِهْرِ رسول الله بالسَّدَدِ
أدْرَجتمُ فى إهاب العَيْر جُثَّتَهُ فبئس ما قدمَتْ أيديكُمُ لِغَدِ
إن تقتلوا ابنَ أبى بكر فقد قَتَلَتْ حُجْراً بدارةِ مَلْحُوب بَنُو أسدِ

وحُجْر المشار إليه هو والد امرئ القيس ، الذى قصر فى الأخذ بثأره تقصيراً معيباً عند أبى نواس فقال فيه :

أَلْهى امرأ القَيْسِ تَشْبيبٌ بغانيةٍ
عن ثأرِهِ ، وصِفاتُ النُّؤْيِ والوَتِدِ

وهجا أهل مصر جميعاً أو عاتبهم عتاباً قاسياً ، ولم يرض إلا عن أحمد بن حوى العذرى الذى كان والياً على الشرطة سنة ١٨٩ هـ . فقال(١) :

دَمُ المكارم بالفُسْطَاطِ مَسْفُوحُ والجُودُ قد ضاع فيها وهو مَطْرُوحُ
يا أهلَ مصرَ لقد غبتم بأجمعكم لما حوى قَصَبَ السبق المَسَامِيحُ
أموالكم جَمَّةٌ والبُخل عَارَضَها والنيلُ ، مَعْ جُودِهِ ، فيه التماسيحُ
لولا ندى ابْنِ حُوَىٍّ أحمدٍ نَطَقَتْ منى المفاصِلُ فِيكُمْ والجَوَارِيحُ

وتجد فى شعر أبى نواس بمصر كثيراً من خصائصه ، وشيئاً من أثر البلاد والرحلة والممدوح فى شعره .

فأثر البلاد ظاهر فى إشارات أبى نواس إلى تاريخها ، وبخاصة فرعون وموسى والعصا والحية والنيل والتماسيح . وما سمعنا بمثل هذا فى غير شعره المصرى . كما كان للتاريخ الإسلامى أثر فى شعره عندما هجا آل حديج بقتلهم لصهر رسول الله . وقد تردد اسم الخصيب وهاشم بن حديج ومصر فى شعره كثيرا .

---

(١) الديوان ص ١١٤ .

٣ – أبو تمام :

وهو الشاعر الذى اختلف فيه ؛ ونسب إلى مصر . والمشهور أنه ولد فى قرية « جاسم[١] » بالشام (سنة ١٩٠هـ) وأنه عربى طائى ، ولكن قل أن سلم شىء من ذلك ولم يختلف فيه ، حتى دين أبيه . وهو خلاف لا يؤثر كثيراً فى شاعرية أبى تمام ، والذين نسبوه إلى مصر لا يستطيعون أن يجدوا فى شعره من آثر البلاد وتاريخها مثل ما وجدوا لأبى نواس .

قيل إنه جاء إلى مصر صغيراً وتربى بها ، وتعلم الأدب وحفظ الأخبار وروى الأشعار ، وأنشد شعره بجامع عمرو ، ومدح وهجا . ثم خرج من مصر ساخطا ومدح وهجا قوما آخرين فى بغداد وغيرها .

وفى ديوانه من أشعاره بمصر شىء كثير ، بعضها فى مدح عَيَّاشِ بن لَهِيعه يقول فيها[٢] :

رأيتُ لعَيَّاشٍ خلائقَ لم تكن لتَكْمُلَ إلا فى اللُّبابِ المهذَّبِ
له كرمٌ لو كانَ فى الماء لم يَغِضْ وفى البَرْقِ ماشامَ امرؤٌ بَرْقَ خُلَّبِ

إلى أن يقول :

وأنت بمصرٍ غايتى وقرابتى بها ، وبَنُو أبيك فيها بنو أبى
ولاغروَ إن وَطَّأْتَ أكنافَ مرتَبِي لمهمَلِ إخفاضى ، ورفَّهْتَ مشربى
فقومت لى ما اعوَجَّ من قصد همتى وبَيَّضْتَ لى ما اسْوَدَّ من وَجْهِ مَطْلَبِى

كما مدح المعتصم — أو المأمون — بقوله[٣] :

(١) على بعد ثمانية فراسخ من دمشق . (٢) الديوان ص ٢٤ .
(٣) ص ١١٢ .

فانْتاشَ مصر من اللتيَّا والتى بتجاوُزٍ وتعطُّفٍ وتَغَمُّدِ

وقد أشار إلى تنقله فى البلاد ومنها مصر فقال(١) :

بالشامِ أهلى وبغداد الهوى وأنا بالرقمتين وبالفسطاط إخوانى

وما أظن النوى ترضى بما صنعت حتى تُشافِهَ بى أقصى خُراسانِ

خلفت بالأُفُق الغربى لى سكناً قد كان عيشى به حُلْواً بحُلْوانِ

وسبق له أبيات فى انتصار عبد الله بن طاهر على ابن السرى(٢) . وفى رثاء عمير بن الوليد والى مصر سنة ٢١٤(٣) .

وعاتب عياشَ بن لهيعة(٤) لأنه لم يكافئه على مدائحه ، ولم يحسن إليه بما أحسن فيه من أشعار .

وضاق رزقه بمصر ، فدعا لدمشق أن يجودها الحيا لجود أهلها ، وفدى بنفسه أرض الشام ، التى عدته عنها غربة النوى مكرها خمسة أعوام ، فقال(٥) :

أخمسةُ أعوام مَضَتْ لمغيبه ؟

وشهرانِ ، بل يومان ، ثُكْلٌ من الثُّكْلِ

توانىَ وَشيكُ النجح عنه ، وَوُكِّلَتْ به عزماتٌ أوقفته على رِجْلِ

لقد طلعتْ فى وجه مصر بوجهه — بلا طالع سعدٍ ولا طائر سهلِ —

وساوسُ آمالٍ ومَذْهبُ همةٍ مخيمةٍ بين المطية والرَّحْلِ

(١) الديوان ص ٣٢٣ .

(٢) الكندى ص ١٨٠ ، ١٨٣ .

(٣) الديوان ص ٣٨٩

(٤) الديوان ص ٤٠٠ ، ٤٠١

(٥) الديوان ص ٤٢١

نأيتُ ، فلا مالاً حويتُ ، ولم أُقِم   فامْتَع ، إذ فُجِعْتُ بالمال والأهلِ

وفى أبيات أبى تمام هذه من الثورة النفسية والألم المرير ما ليس فى حاجة إلى التعليق . وكان ينتظر من عياش بن لهيعة شيئاً كثيراً فلم يحقق أمله ، فهجاه فى كثير من القصائد حياً وميتاً . ومن هجائه فيه ميتاً قوله(١) :

أيا من أعْرَضَ اللهُ   عن العالم من بُغْضِهْ
ويا من بعضه يشهـ   ـد بالبغض على بعضِهْ
ويا أثقلَ خلق اللـ   ـه من مَاشٍ على أرضِهْ
ومن عاف مليكُ المو   تِ واستقْذَرَ من قَبْضِهْ

وترى لهذا البيت الأخير صدى فى قصيدة أبى الطيب المتنبى ، التى قالها فى هجاء كافور وقومه وهو هارب من مصر ، إذ يقول :

ما يقبضُ الموتُ نفساً من نُفوسِهِمُ   إلا وفى يَدِه ، من نَتْنِهَا ، عود

وهجا أبو تمام شاعراً من شعراء مصر اسمه يوسف السَّرَّاج . واستكثر عليه أن يكون أديباً وهو سراج ، فقال له(٢) :

أيوسُفُ جئتَ بالعَجَبِ العجيبَ   تركتَ الناسَ فى أمرٍ مُريبِ
سمعتُ بكل داهية نَآدٍ   ولم أسمَعْ بسَرَّاجٍ أديبِ
أمَا لَوْ أنَّ جهْلَكَ كان عِلماً   إذاً لنَفَذْتَ فى علم الغُيُوبِ
فما لَكَ بالغريب يَدٌ ، ولكن   تعاطيك الغريبَ من الغريبِ
فلو نُبِشَ المقابرُ عن زُهَيْرٍ   لصرَّحَ بالعويلِ وبالنحيبِ
متى كانت قوافيه عيالا   على تفسير بقْراطَ الطبيبِ

---

(١) الديوان ص ٤٩٨

(٢) الديوان ص ٤٩٨ .

فكيف ولم يزل للشعر ماءٌ   يرِفُّ عليه ريحانُ القلوبِ
أرى ظُلمِيكَ إنصافاً وعَدْلاً   وذنبي فيك تكفيرَ الذنوبِ

وقد كان هذا النقد، الذى وجهه أبو تمام إلى يوسف السراج فى شعره، سهما صوبه عبد العزيز الجرجانى فى الوساطة إلى أبى تمام نفسه؛ فإنه أورد الأبيات الثلاثة التى قبل الأخير، وعلق عليها بأن أبا تمام نفسه لم يتبع ذلك فى شعره؛ فاحتاج إلى تفسير بقراط وتأويل أرسطوليس(١).

وهجا عيسى بن يزيد الجلودى لما انهزم فى موقعة « النويرة » أمام أهل الحوف سنة ٢١٤. وقد تقدم بعض هذا الهجاء، وهجا المطلب الخزاعى وكان مدحه(٢).

وكذلك كانت حياته فى مصر مدحا وهجاء كما كانت حياة أبى نواس.

وكنت أود أن أنسب أبا تمام لمصر معتمداً على ما قيل من نشأته بها، لولا أن هذه النشأة لم تترك أثراً كبيراً فى شعر أبى تمام، فيما عدا الموضوعات والأشخاص الذين هجاهم ومدحهم. والأثر الذى تركته فيه هذه الحياة بمصر أقل مما تركته فى أبى نواس، الذى جاء فى زيارة قصيرة ثم رحل.

٣ — دعبل بن على الخزاعى :

وهناك شاعر آخر له بمصر مدح وهجاء، وهو دعبل بن على الخزاعى المتوفى سنة ٢٤٦ هـ. وكان دعبل هجاء خبيث اللسان؛ جاء إلى مصر طامعاً فى نوال رجل من أقربائه، وهو المطلب بن عبد الله الذى ولى مصر مرتين إحداهما سنة ١٩٨ والثانية سنة ١٩٩ هـ.

---

(١) الوساطة ص ٢٣   (٢) الديوان ص ٤٩١

أما وفادة دعبل عليه فقد انتهت روايتها فى الأغانى (١) إلى دعبل نفسه . فقد روى أنه رجع من الحج ، إلى مصر ، فلقى بالطريق رجلا يقال له أحمد السراج ، وكان مع دعبل أخوه رزين ، وبدا لهما من حسن أدب السراج ما عطف قلبهما عليه ، فتبرعا له بقصيدة من شعرهما ينشدها ، ويأخذ عليها جائزة من المطلب الخزاعى . فلما وصلوا مصر ودخلوا على المطلب خيب السراج ظنهما — وكان أسبق دخولا عليه — فأنشده من شعره مدحا قال فيه :

إنى استَجَرْتُ بأستارَيْنِ مستَلِماً — ركنين ، مُطَّلِباً والبيتَ ذَا الحُجُبِ
فذاك للآجلِ المأمول ألمِسُه — وأنتَ للعاجل المرجوِّ والطَّلَبِ
هذا ثنائى ، وهذى مصر سانحةً — وأنتَ أنتَ ، وقد ناديتُ من كَثَبِ

فصاح مطلب : لبيك لبيك . ثم قام إليه فأخذ بيده وأجلسه معه . وقال : يا غلمان ، البِدَر . فأُحْضِرَتْ . ثم قال : الخِلَع . فنشِرت . ثم قال : الدواب . فأُمِرَ له من ذلك بما ملأ عينيه وأعيننا وصدورنا ، وحسدناه عليه . وكان حسدُنا له بِما اتفق له من القبول وجودة الشعر ؛ وغيظُنا بكتمه إيانا نفسه ، واحتياله علينا أكثر وأعظم . فخرج بما أُمِرَ له به وخرجنا صفرا . وغاظ ذلك دعبلا ؛ فهجا المطلب . .

وقيل إن سبب غضب دعبل عليه من أول يوم أنه كان جاء إلى مصر أيام ثورة رجل من العلويين ، وكان المطلب قد وكل بالأبواب من يمنع الغرباء دخولها ، فَمُنِع دعبل ، فأغلظ لمن منعه ، فقَنَّعه بالسوط وحبسه . فمضى أخوه رزين فأخبر المطلب ، فأمر بإطلاقه ؛ ودعا به فخلع عليه . فقال له : لا أرضى أو تقتل الموكل بالباب . فقال له : هذا لا يمكن لأنه قائد من قواد السلطان فغضب وهجا .

---

(١) جـ ١٨ ص ٤٧ ، ٤٨ .

ثم ولاه المطلب أسوان ، ولما بلغه هجاؤه عزله . ومن هذا الهجاء قوله :

تُلْصِقُ مصرُ بك المخزياتِ وتبصُقُ فى وجهك المَوْصِلُ
وعادَيْتَ قوماً فما ضرَّهم وشرَّفت قوماً فلم يَنْبُلوا
شعارُك عند الحروب النجا وصاحبُك الأخورُ الأفشلُ
فأنت إذا ما التَقَوْا آخرٌ وأنت إذا انْهَزَمُوا أولُ

وقال يجرد قبيلته من شهرتها القديمة فى الكرم ، بسبب لؤمهم الحديث الذى أكسبهم مطلب إياه وكأنه يقول : تعارضا فتساقطا . وذلك إذ يقول :

اضرب ندى طلحةِ الطَّلَحَات مُتَّئِداً
بلؤم مطلب فينا وكن حَكَماً
تخرجْ خُزَاعَةُ من لؤم ومن كرم فلا تَعُدُّ لها لؤما ولا كَرَماً

ولما عزله عن أسوان بسبب هذا الهجاء ، أنفذ إليه كتاب العزل مع مولى له وقال : انتظره حتى يصعد المنبر يوم الجمعة ، فإذا علاه فأوصل الكتاب إليه ، وامنعه من الخطبة ، وأنزله عن المنبر واصعد مكانه .

فلما أن علا المنبر وتنحنح ليخطب ، ناوله الكتاب ، فقال له دعبل : دعنى أخطب فإذا نزلت قرأته . قال : لا ، قد أمرنى أن أمنعك الخطبة حتى تقرأه . فقرأه . ونزله عن المنبر معزولا .

أما مدحه فى المطلب فقد روى الأغانى منه بيتين لفظهما قليل ، ومعناها كثير إذ مدحه بالجود ، ولام من يقصدون غيره ، وعجب منهم ، وقدم أسرته عند الفخر بالكثرة ، وقدمه يوم التفاخر بالواحد ، وذلك إذ يقول :

أبَعْدَ مصرٍ وبعد مُطَّلِبٍ ترجو الغنى ؟ إن ذا من العَجَبِ !

إن كاثرونا جئنا بأسرته   وإن وَاحَدُونا ، جئنا بمطلب

ولا ننسى أبيات دعبل التى شيع بها المطلب ساخرا متهكما[1] ، عند ارتحاله من مصر إلى الحجاز .

هذا هو الشعر العربى فى مصر زمن العباسيين ، وهؤلاء هم رجاله . والمصرى منه شعر حفظته بعض كتب التاريخ والقضاء ، وندر وجود شىء منه فى كتب الأدب كما سبق . وأكثره مقطعات ومختارات تساق استشهادا فيحذف منها كثير ، ويستغنى عن أوائلها وأواخرها غالباً ، وقد لا تكون مرتبة كترتيبها فى الأصل . وتحس من قراءة ما اختاره الكندى أن الشاعر ينتقل انتقالا مفاجئا ، وأن المعانى غير مسلسلة . ودليلنا على أن هذا الاختيار لا يتفق مع الأصل دائماً تلك الأبيات التى جاء بها لأبى تمام فى هجاء الجلودى ، فقد روى منها ستة أبيات بدأت من العاشر ووراءه البيت العشرون . وتلك القصيدة الدالية فى رثاء عمير بن الوليد فإنها أربعون بيتاً فى الديوان لم يذكر منها إلا أربعة أبيات غير متتابعة .

وليس من العدل أن نطالب مؤرخاً برواية القصائد كاملة ، فليس ذلك من عمله ، ولكن الاقتصار على كتب التاريخ وحدها ، مع فوائدها التى لا توجد فى غيرها ، لا يصور الأدب فى نواحيه المتعددة .

ولا بد أن يكون التعليق عليه محدوداً . فمطالع قصائده غير معروفة ، والحكم عليها لا يعتمد على أساس من الشواهد ، والانتقال من هذه المطالع إلى الأغراض الأصلية غير معروف . وإن غلب على الظن أنه كان مع التمهيد وحسن الربط ، لا مفاجئاً كما كان فى العصر الجاهلى مثلا . وروعى فيه حسن التخلص من المقدمة إلى الغرض .

وارتباط الأبيات ، وحسن تأليف العبارات ، وحسن المعانى ولطفها ،

---

(١) ص ١٦٩ من هذا الكتاب ، الكندى ص ١٦١ .

ويختلف الحال عن ذلك كثيراً فى الشعر العباسى . فإنه كان دواوين كاملة ، فسنحت الفرص لدراسته دراسة وافية ، وعرفنا منه صلته بالشعر القديم ، ومدى بعده عنه واقترابه منه ، وخصائصه وبواعثه ومميزاته ، والعوامل التى وجهته إلى الحضارة ووصفها ، أو المدح والمبالغة فيه ، أو الفلسفة والعناية بها ألفاظا ومعانى ، أو السياسة واشتراكه فيها ، أو البديع وغلبته عليه ، وغير ذلك .

وكان شعر الوافدين على مصر شعر مدح وهجاء . يمتاز بحسن البيان ، والبعد عن التكلف ، والبراعة فى أداء المعانى المتشابهة بعبارات قوية جميلة . أما هذه المعانى فكان أكثرها مما شاع فى المدح والهجاء . وقليل منها كان من وحى البلاد ، كهجاء أبى نواس لأهل مصر ؛ أو من وحى المهجو نفسه ، كقصيدة أبى تمام فى يوسف السراج .

الفصل العاشر

شعر الطولونيين

كان للأدب العربى رعاة من الملوك والأمراء ، يعطفون على شعرائه وكتابه فى زمن الأمويين والعباسيين ، وكان هؤلاء جميعاً أدباء ، يتذوقون الأدب الرفيع ، ويعجبون بالأخبار الطريفة ، والروايات المستملحة ؛ إعجاباً بالأدب لذاته ، أو لماله من آثار سياسية أو خلقية أو حماسية .

وكان من هؤلاء فى مصر عبد العزيز بن مروان ؛ الذى ازدهر الشعر فى أيامه ازدهارا عظيما ؛ إذ مكنه طول عهده فى البلاد أن يرعى الأدب ويكون مقصد الأدباء .. وقد حدث هذا بمصر نادراً ، لا لقلة الولاة الأدباء الذين كانوا يعطفون على الأدب ورجاله . ولكن لقصر عهودهم ، وعدم استقرار البلاد . وظل كذلك حتى استقرت الأمور لبنى طولون ، ثم للاخشيديين فتأثر الشعر بذلك كثيرا .

١ — فى عهد دولتهم (٢٥٤ — ٢٩٢)

وكان من المنظور أن يرقى ابن طولون بالشعر ، وأن يعرف قدره الأدبى والسياسى ؛ كما عرف فضل الكتابة فى خدمة دولته . وكنا نظن خيراً بالشعر فى عهده وهو الأديب الذى يقدر الفصاحة قدرها ، ويستخدم كتاباً مجيدين فى دولته . ولكن الظاهر من تاريخه أنه لم يكن يرعى الشعر ولا يهتم به .. ويؤكد هذا ما روى عنه من إهمال للبحترى ، حتى هجاه بعد مدحه .

وكان خمارويه يود أن تنافس القطائع حاضرته ، بغداد حاضرة الخلافة ؛ وكان

زواج ابنته قطر الندى ، عاملا يثير الشعر والخيال ،وكاد ما بلغه هذا الزواج من أبهة وإسراف فى مظاهر الترف يفوق المروى فى ألف ليلة ولـكن أين الشعر الذي قيل فيه ؟

ثم تنازع أمراء بنى طولون بعده حتى ذهبت ريحهم سنة ٢٩٢ ﻫ .

والشعر الباقى من هذه الدولة كلها قليل محدود الأغراض لا يتجاوز المدح والهجاء ، وقليلا من الأبيات فى بعض الحوادث ؛ لأن النزاع بين الطولونيين والعباسيين خلق عداوة بين القطرين ، فلم يكن من السهل أن يفد على الطولونيين شعراء الحاضرة وهم يومئذ أشهر الشعراء ، وما كانت الدولة هادئة مطمئنة تستطيع أن ترعى الأدب ، وتجتذب الشعراء وذلك للخلافات الداخلية بين الطولونيين بعد خمارويه .

ولـكنه لم يعدم شعراء يمدحون أو يهجون أو يصفون ، بل إن المقريزى (١) نقل عن القاضى أبى عمرو عثمان النابلسى فى كتاب « حسن السيرة ، فى اتخاذ الحصن بالجزيرة » أنه قال : رأيت كتاباً قدر اثنتى عشرة كراسة مضمونه فهرست شعراء الميدان الذى لأحمد بن طولون ، وقال : فإذا كانت أسماء الشعراء فى اثنتى عشرة كراسة ، كم يكون شعرهم ؟ مع أنه لم يوجد من ذلك الآن ديوان واحد !

وفى هذا الخبر ما فيه من المبالغة فإن الباقى من شـعر الميدان قليل وكله فى رثائه . أو وصفه أو الاعتبار به وبمن أنشئوه .

وبقى عندنا شعرٌ متصل بالسياسة والحوادث الجارية ظهر فى مناسبات أكثرها متصل بالتاريخ . ومن غريب الصدف أن يكون أقدم ما بقى منه هجاء ، فقد أمر أحمد بن طولون ببنيان المسجد على جبل يشـكر فى صفر سنة ٢٥٩ ، وأمر أيضا ببنيان المارستان للمرضى .

فقال محمد بن داوود يهجوه ويستثير الناس عليه (٢) :

ألا أيُّهـا الأغفال إيهـاً تأملوا   وهل يوقظ الأذهانَ غيرُ التأملِ

---

(١) الخطط جـ ١ ص ٣٢٧   (٢) الـكندى ص ٢١٦

ألم تعلموا أن ابن طولونَ نقمةٌ ... تُسَيَّرُ من سُفْلٍ إليكم ومن عَلِ
ولولا جنايات الذنوب لما علت ... عليكم يد العِلْج السخيف المُجَهَّلِ

فيا ليت مارستانه نيط بِاسْتِه ... وما فيه من عِلْجٍ عُتُلٍّ مُقَلَّلِ
فكم ضجةٍ للناس من خلف ستره ... تضج إلى قلبٍ عن الله مُغْفَلِ

فترى فى شعره توجيهاً للناس إلى الوالى ، ودعوة لهم إلى الثورة عليه ، وذلك إذ جعله نقمة شاملة ، وجعل هذه النقمة بما كسبت أيديهم ، واتخذ من إصلاحه ومنشآته النافعة سخرية وموضع هجاء ، فذمه وذم القائمين على مستشفاه ، وأسَفَّ فى هجائه .

وكان أبو أحمد الموفق يكره ابن طولون ، فتقدم إلى موسى بن بغا فى صرفه عن مصر ، فسار حتى نزل الرقة . وبلغ ابن طولون أنه سائر إليه ، وأنه مجد فى محاربته ، فابتدأ ببناء حصن الجزيرة سنة ٢٦٣ معقلا لماله وحرمه . وبنى كثيراً من المراكب الحربية وأطافها بالجزيرة ، ولكن موسى أقام بالرقة عشرة شهور ثم اضطرب أمر أصحابه ، وتوفى فى صفر سنة ٢٦٤ .

وقال محمد بن داوود(١) :

لما ثوى ابن بُغَا بالرقتين مَلاَ ... ساقيه زَرْقاً إلى الكعبين والعَقِبِ
بنى الجزيرة حصناً يستجِنُّ به ... بالعسف والضرب، والصناعُ فى تعب
له مراكب فوق النيل راكدةٌ ... فما سوى القار، للنُّظَّار، والخشبِ
يُرَى عليها لباس الذل مذ بنيت ... بالشط ممنوعةً من عزَّةِ الطلب

---

(١) الكندى ص ٢١٨

فما بناها لغزو الروم محتسبا ... لكن بناها غداة الرَّوْعِ للهرب

وهذه فرصة عرضت له لم يهملها ؛ فهجا ابن طولون ، وذم حصنه ومراكبه ، ورماه بأنه بناها للهرب لا للدفاع والغزو . وكان لا يتورع عن اللفظ القذر كالبيت الأول من هذه الأبيات .

وخرج العباس بن أحمد على سلطان أبيه سنة ٢٦٦ هـ ، واضطر أن يذهب إلى إفريقية للحرب ، وكانت خاضعة لسلطان إبراهيم بن الأغلب ، فبعث إليه ابن الأغلب بجيش ، فباشر العباس الحرب بنفسه وحسن بلاؤه . وقال العباس يومئذ(١) :

لله دَرِّىَ إذ أغدو على فرسى ... إلى الهياج ونارُ الحرب تستعِرُ
وفى يدى صارمٌ أفرِى الرءوسَ به ... فى حدِّه الموتُ لا يُبقِى ولا يَذَرُ
إن كنتِ سائلةً عنى وعن خَبَرى ... فها أنا الليثُ والصَّمصامةُ الذَّكَرُ
من آل طُولُونَ أصلى إن سألت فما ... فوقى لمفتخر بالجود مفتخَرُ
ورثت مجد أبى عنه ، وورثنى ... مجداً أناف به آباؤه الغُرَرُ
لو كنت شاهدة كَرِّى « بِلِبْدَةَ » إذ ... بالسيفِ أضرِبُ والهاماتُ تبتَدِرُ(٢)
يدعون لا أين ، والعباس يقدمهم ... كأنهم حُمُر والليث مقتسر
إذاً لعايَنْتِ مِنِّى ما تسيرُ به ... عَنِّى الأحاديثُ والأنباءُ والخبرُ

وهو فخر شاعر فارس بشجاعته وبآبائه الأجواد .

ولكنه أصيب هو وأصحابه إصابة بليغة ، ورجع هارباً إلى برقة .

ورأى بعض الشعراء فى أعمال ابن طولون ما هو جدير بالمدح فمدحه :

فإنه لما هرب المعتمد من بغداد سنة ٢٦٩ ، أرسل إليه أخوه الموفق ، صاعد

---

(١) ص ٢٥٤ سيرة ابن طولون للبلوى ... (٢) لبدة : مكان المعركة .

ابن مخلد وإسحاق بن كنداج ، فظفرا به ، ورداه إلى سر من رأى . فعقد الموفق لإسحاق على مصر . وعلم ابن طولون بهذا وهو بدمشق ، فكتب إلى أهل مصر من هناك يخبرهم بما حدث للمعتمد ويطلب منهم خلع الموفق وجهاده .

وقال قعدان بن عمرو يمدحه بالدين والشجاعة وحسن القيادة ، ويمدح الخليفة معه ، ويحث الناس على الخروج لنصرة الخليفة(١) :

طَالَ الهدى بابن طولونَ الإمامِ كما ... يزهو به الدين ، عن دينٍ وإسلامِ
قادَ الجيوش من الفُسْطاط يقدمها ... منه على الهول ماضٍ غيرُ محجامِ
فى جحفل ، للمنايا فى مَقَانِبِه ... مكامِنٌ بين رايات وأعلامِ
يسمُو به من بنى سَام غَطَارِفةٌ ... بِيضٌ ، وسُودٌ أُسودٌ من بنى حامِ
لو أن رُوحَ بنى كُنْدَاجَ مُعلَّقَةٌ ... بالمشترى لم يَفُتْه ، أو بِبَهْرَامِ
حاط الخلافة والدنيا خليفَتَنا ... بصارمٍ من سيوف الله صَمْصَامِ
يا أيها الناس هُبُّوا ناصرينَ له ... مع الأمير يِدُهْمِ الخيل فى اللاَّمِ

وهذا مدح سياسى فى غايته ، فالثناء على الوالى وأفعاله ، والدعوة إلى نصرة الخليفة ومن يدافع عنه يحمل فى طياته تأييداً لسياسته ، وتبشيراً بحسن سيرته .

وقال قعدان بن عمرو مرة ثانية ، يستنهض الناس لنصرة الخليفة ، ويدعوهم أن ينضموا إلى ابن طولون فى دفاعه عنه :

من مبلغٌ مُضَرَ الشآمِ وما حوت ... مصرٌ ومن هو مُتْهِمٌ أو مُنْجِدُ
ما بالكمْ هِضْتُمْ جَنَاح سنانكم ... بتَوَاكُلٍ من فعلكم لا يُحمَدُ

(١) الكندى ص ٢٢٧ .

أنّى، وكيف يطيبُ من أحوالكم(١)، خفض المعيشةِ والإمامُ مقيدُ !
حزان أُفْرِدَ من بَنِيهِ وأهله بأبى وأمى المستضام المفردُ !

وقال منصف(٢) بن خليفة الهذلى يمدح أفعاله ، ويشير إلى سعة ملكه ، وإخلاص أهل مملكته له ، ودفاعه عن الخليفة دفاعاً مجيداً(٣) :

يا غُرَّةَ الدنيا الذى أفعالُهُ غُرَرٌ بها كل الورى تتعلّقُ
أنت الأميرُ على الشآم وثغْرِها والرَّقّتَيْنِ وما حواه المشرقُ
وإليك مصرُ وبَرْقَةٌ وحجَازُها كلٌّ إليك فؤادُه متشوِّقُ
هتك الخلافة صاعدٌ وخليله إسحاقُ لِعْباً، والحسُودُ الأخْرَقُ
أسيافُنَا بيضُ المَنُونِ فليتها بنَجِيع من خذَل الإمام تُخَلَّقُ(٤)
تُمسى وتُصْبح ضارباً من دونه بمُهَنَّدٍ منهُ الحتوفُ تَفَرَّقُ

وهو شعر سياسى كسابقه يرمى الشاعر من ورائه إلى بيان فضل ابن طولون على الخليفة ، وتبرير حربه مع الموفق ، ورضا الناس عن سلطانه فى البلاد التى يحكمها .

وقال الوليد بن عبيد البحترى ، قصيدة طويلة فى مدح أحمد بن طولون ومنها(٥) :

فأصبحتُ فى بغدادَ لا الظل واسع ولا العيش طل فى غضارَته رَطْبُ

---

(١) فى الكندى (يطيب . . . لكم) فأكملتها بما يمكن أن يتم به المعنى .
(٢) فى سيرة ابن طولون للبلوى ص ٣٠٠ أنه من شعراء الشام . وله قصيدة نونية هناك فى معنى هذه القصيدة :
(٣) الكندى ص ٢٢٨ .
(٤) النجيع = الدم . تخلق = تعطر .
(٥) ديوان البحترى ج ٣ ص ٧٧ . والمشهور أنه « الوليد بن عبادة »

أأمدح عمال الطَّساسيج راغبا
إليهم ، ولى بالشام مُستَمْتَعٌ رُغْبُ(١)

وعند أبى العباس لو كان دانياً
نواحى الفِناء السهلِ والكنفُ الرحْبُ

وكانت بلاءً نيتى عنه ؛ والغنى ، غنى الدّهرِ ، أدنى ما يُنوِّلُ أو يحبو

ثم يصف الخارجين عليه ويذمهم فيقول :

وكانوا ثمودَ الحِجْرِ حَقَّ عليهمُ وقوع العذاب،وأُلخصى لهم سَقْبُ(٢)

وما شك قوم أوقدوا نارَ فتنةٍ وسرَتْ لهم ، فى أنَّ نارَهُم تَخْبُو
كأن لم يروا « سيما الطويلَ » وجمعه وما فعلت فيه وفى جمعه الحرب(٣)
ولو لم يحاجز لُؤْلُؤٌ بِفراره لكان لصدر الرمح فى لُؤْلُؤٍ ثقب(٤)

ويقول عن هؤلاء الخارجين على ابن طولون :

مخاذيل لم يَسْتُرْ فضائحَ فعلِهِمْ وفاءٌ ، ولم ينهض بغدرهم شَغْبُ
أخاف كأنى حاملٌ وِزْرَ بعضهم من الذنب أو أنى لبعضهم إلْبُ
وما كان لى ذنب فأخشَى جزاءَه وعفوك مَرْجُوٌّ وإن كانَ لى ذنبُ

---

(١) الطساسيج = النواحى : رغب = متسع .

(٢) السقب ولد الناقة وهو الذى أنذر ثمود بالهلاك . فكأن خصامهم كانت نذير هلاك كما كان السقب لثمود .

(٣) سيما الطويل : كان حاكما على أنطاكية قتل سنة ٢٦٥ فى معركة بينه وبين ابن طولون . سيرة البلوى ص ٩٦ .

(٤) كان لؤلؤ مولى لابن طولون ثم غدر ، وانضم إلى الموفق

وتاريخ هذه القصيدة سنة ٢٦٩ هـ لما خرج ابن طولون إلى الشام . وكان الشاعر يطمع فى عطائه على هذا المدح . ويظهر أن ابن طولون لم يعطه شيئاً فهجاه ولامه على تعرضه لهذا الهجاء ، ورماه بالجهل فقال من قصيدة طويلة :

ولولا غُلُوُّ الجهل ما عُدَّ هَيِّناً … تَكَبُّدُ سُخْطى واصْطِلاءُ حريقى

ثم يقول فيه هاجياً :

وعاهرة أدَّت إلى عَيْرِ عاهر … مَشابِهَ كلبٍ فى الكلاب عريق

لِيَلْبُخَ أو طولون يُعْزَى ، فقد حوت … على اثنين : زوجٍ منهما وعشيقِ (١)

وهكذا الشعراء يسرفون فى المدح والهجاء .

وارتحل ابن طولون من أذَنَة إلى المصيصة ، فأقام بها أياما ، وعرضت له علته التى كان منها حتفه ، فأغَذَّ فى السير إلى مصر ، والعلة تزيد عليه حتى بلغ الفرما ، فركب فى الليل إلى الفسطاط ، فدخلها يوم الخميس ٢٠ جمادى الآخرة سنة ٢٧٠ ، وظلت العلة تأتى عليه شيئا فشيئا حتى مات فى ١٠ من ذى القعدة سنة ٢٧٠ ، فحزن عليه المعتمد واشتد وجده ، وقال يرثيه(٢) :

إلى الله أشكو أسى … عَرانى كوقع الأسَلْ

على رجلٍ أروعٍ … يُرَى فيه فضلُ الرَّجُلْ

شهابٌ خبا وَقْدُه … وعارضُ غيثٍ أفَلْ

شكت دولتى فقدَه … وقد كان زينَ الدوَلْ

إذا أمَّه القاصدُونَ … حباهُمْ جميعَ الأمَلْ

وهذا رثاء عام يدور حول فضل ابن طولون وكرمه ومنزلته فى الدولة ، وهو

---

(١) يلبخ = كان زوجاً لأم أحمد بن طولون بعد موت أبيه .

(٢) سيرة ابن طولون للبلوى ص ٣٥٨

أشبه بالحديث ، وكان أولى بالخليفة أن يذكر فضله عليه فى تثبيت ملكه ، ولكن منعه عن الخلافة من أن يشير إلى شىء من ذلك .

وقال ابن داود يهجوه بعد موته ويفحش (١) :

عَرِّجْ على اليَحْمُومِ فانزل به فاسْلَحْ على قَبْرِ ابْنِ طُولُونَا (٢)

ويخاطب هذا القبر فيقول :

يا حفرةَ النار التى أضرمت وظل فيها الرِّجْسُ مدفونا
لا تجعلى لبسةَ جُثْمَانه إلا الأفاعِى والثعابينا

ويرى أن الذين فقدوه وأصيبوا به هم إبليس والشياطين ، وهم الذين يعزون فيه لأنه كان ولياً لهم ، ويفسد فى الأرض مثلهم فيقول :

فعزِّ إبليسَ بها أولا وعزِّ من بعدُ الشياطينا
وقل لهم : قد كان يكفيكم ويهتك المعروف والدينا
ثم مضى غير فقيدٍ ، ولا كان حميداً عُمْرَه فينا

وقال أيضا :

مضى غير مفقود وما كان عمرَه سوى نَقْمة للخلق شنعاء صَيْلَمِ
لقد زيد فى اليحموم بالرجس لعنةً ولم يُسْقَ بالمرجوس تربُ المقطمِ
ولم تبكه الأرضون ، لكن تبسمت سروراً ، ولولا موته لم تبَسَّمِ
يبشره إبليس عند قدومه عليه بأحمَى بُقْعَةٍ فى جهنَّمِ
لقد طُهِّر الأرضون من سوء فعله ومن وجهه ذاك ، الكريهِ المورَّمِ
فلا سُقِيَتْ أجداثه صوبَ مُزْنَةٍ وأنى وفيها شر أولاد آدمِ !

---

(١) الكندى ص ٢٣١ (٢) اليحموم إسم الجبل الشرقى الذى كان فيه قبره

ولعـل ابن داود كان موتورا أو ساخطا أو محروما أو مأجورا ، فحمل هذه الحملات العنيفة على ابن طولون فى حياته وبعد مماته ، وهى بعيدة عن تصويره على حقيقته ، ولـكنه الشعر والشعراء .

ومن شعر هذا العصر قصائد للـكاتب جعفر بن جدار بعيدة عن التاريخ والسياسة فتخف وترق .

ومن ذلك أبيات فى صديق له يمدحه ويعاتبه ويطمع فى خيراته (١) :

يا ابن المقفع فى البيـا ن ويا إياساً فى الذكاءِ
يا ناظراً فى المشـكلا ت المعضِـلات ، ويا ضيائى
إيها ، جعلت فداك ! فـبـيم طويتنى طى الرداءِ ؟
ورغبت عمـــا كنت تر غب فيه من لطف الإخاء
من بعـد أنى كنت عنـــدك وابن أمك بالسواء
فوحق كفك ، إنهـــا كفٌّ كأخـلافِ السماء
لأخلينـك والهـــوى ولأصبرن عن اللقـــاء
ولأشكونك ما استطعـــت إلى حفاظك والوفاء
ولأصبرن على رقيـــك فى ذرى درج العلاء
فهناك أجنى ما غرســت إليك من ثمر الرجاء

وقال فى مغنية جميلة (٢) :

جاءت بوجـه كأنه قمرٌ على قوام كأنه غُصُن

---

(١) اسمه « حذار » أحيانا . قتله ابن طولون سنة ٢٦٧ لأنه عده مسئولا عن ثورة العباس على أبيه : معجم الأدباء جـ ٧ ص ١٨٤ .

(٢) معجم الأدباء جـ ٧ ص ١٨٥ . وله قصيدة فى الغزل أرهقها بالبديع فثقلت به (العقد الفريد جـ ٣ ص ٤٢٦) .

ترنو بعين إذا تعاينها حسبت أن فى جفونها وَسَنُ
حتى إذا ما استوت بمجلسها وصار فيه من حسنها وَثَنُ
غنت فلم يبق فىَّ جارحة إلا تمنيتُ أنها أُذُنُ

وفى هذه الأبيات حسن تعبير عن إعجابه بهذه المغنية ، ومدح لجمال صوتها ، ودليل على فتنة الشاعر واستغراقه ، ولهذا تمنى أن تكون كل جارحة فيه أذنا ليكون لها حظ التمتع والسرور ، وينال من ذلك النغم الجميل أكبر قسط ينعم به الجسد والروح .

ومن شعره فى ثقلاء زاروه فأكلوا ، واستولوا على الباقى وهم خارجون(١) :

زارنى زَوْرٌ ثكلتهم وأصيبوا حيثما سلكوا
أكلوا حتى إذا شبعوا حملوا الفضل الذى تركوا .

وفى سنة ٢٧٢ هـ خرج أبو الجيش خمارويه إلى دمشق وهزم إسحاقَ بن كُنداج ، وتبعه حتى سر من رأى ، فقال القاسم بن يحيى المريمى (٢) يمدحه ، ويصف كثافة جيشه وهزيمة عدوه :

أتانا أبو الجيش الأميرُ بيُمْنه فَشُرِّدَ عنا الجور وافتَقَر العُسْرُ
فإن تك أرض الرقتين به اكتست ضياء وإشراقا ، لقد أظلمت مصرُ
فسائل به اسحاقَ إذ سار نحوه بجيشٍ كعرض النيل يقدمُهُ النصرُ
تباعدت الأقطار منه كثافةً ففى مشرق قطر وفى مشرق قطرُ
فأبْلَسَ إذ قيل الأمير ببَالِسٍ وأضحى ضعيف العَقْدِ إذ عُقِدَ الجِسْرُ(٣)

---

(١) معجم الأدباء جـ ٧ ص ١٨٦ .
(٢) المريمى من شعراء مصر المشهورين ، كان مختصا بخدمة خمارويه (المغرب ص ١٠٢)
(٣) أبلس : يئس وتحير . بالس : بلد بشط الفرات .

ولما رأى الجيشَ ابنُ كُنداجَ مقبلا ... أرته المنايا الُحمرَ أعلامه الُحمْرُ
فولى شريداً ذا ارتياع كأنه ... بكل بلاد طائرٌ ماله وكرُ
لئن سَرَّ إسحاقَ النجاة بنفسه ... لقد ساءه فى جمعه القتلُ والأَسْرُ
فلا يُغْبَطَنْ بالعيش من بعد هذه ... فقد كَسَرته كسرةً مالها جَبْرُ

وافتقار العسر فى البيت الأول غريب . وفى الشعر كثير من البديع ، وزينته بلا تكلف ولا ثقل .

وبلغ خمارويه أن محمد بن ديوداد المعروف بابن أبى الساج خارج إليه فلقيه خمارويه فهزمه بثنية العقاب من أرض دمشق سنة ٢٧٤ ، فقال القاسم بن يحيي المريمى(١) :

فتوح الأمير نجومٌ تلوحُ ... فليس تقاس إليها فتوحُ
تسير لها فى جميع البلادِ ... ركائب تغدو بها وتروحُ
إذا حاد عن أمره حائد ... أتاح له الحتفَ منه مُتيحُ
نصحنا لشر بنى دِيوُدَدْ ... بتحذيره لو أطيع النصيحُ
ولم يكن الغدر مستقبحا ... وفى الغدر شين وعار قبيحُ
تعاطى نطاحَ كباش الحروب ... فغودر وهو صريع بَطيحُ
لئن كان ولى سليما صحيحا ... فما القلب منه سليم صحيحُ
أباح حماه فتًى لم يزل ... يحوط حمًى وحمى يستبيح
إذا هو لم يسترح من عَدُوٍّ ... فليسَ إلى لذة يستريح
وإن همَّ بالسير لم يثنه ... سنيحٌ يَعنُّ له أو بريح

(١) الكندى ٢٣٨ .

وفى البيت الأول معنى لطيف وتشبيه غير مألوف ، وهو تشبيه الفتوح بالنجوم . وقال الوليد بن عبيد البحترى :

وقد رأيت جيوش النصر مُنْزَلَةً — على جيوش أبى الجيش بن طولونا
يوم الثنية إذ ثنى بكرَّته — فى النقع خمسين ألفاً أو يزيدونا
مظفر لم يزل يلقى بطلعته — كواكب السعد والطيرَ الميامينا
يمشى قريباً من الأعداء ، لو وقفوا — بالصين من بعدها ، ما استبعد الصينا

ومات الموفق سنة ٢٧٨ .

ثم توفى المعتمد سنة ٢٧٩ ، وبويع للمعتضد بن الموفق بالخلافة فبعث خمارويه إليه بالهدايا ، وكتب إلى خمارويه فى ربيع الأول سنة ٢٨٠ بولايته هو وولده ثلاثين سنة من الفرات إلى برقه ... على أن يحمل إليه فى كل عام مبلغاً .

وبعث إليه برسوله ومعه الخلع ، وسيف وتاج ووشاح ، وعقد المعتضد على قطر الندى بنت خمارويه سنة ٢٨١ ، ثم خرج خمارويه إلى دمشق وقتل بها سنة ٢٨٢ ﻫ ، وحمل إلى الفسطاط فدفن بها فكانت ولايته اثنتى عشرة سنة .

ثم وليها أبو العساكر جيش بن خمارويه فى ٩ ذى القعدة سنة ٢٨٢ .

ووليها بعده هارون ، وثار عليه عمه ربيعة والى الاسكندرية ، ثم قدم بجيش إلى منبوبه (إمبابه) وعدى النيل ، ثم هزم وأسر وضرب ألف سوط ثم مات بعد أيام .

وثار دميانة والى الاسكندرية وبعث المكتفى محمد بن سليمان الكاتب ، إلى مصر ، فخالفه دميانه ، وأطاعه الحسين بن أحمد الماذرائى ، والتقى جيش هارون بجيش دميانه فى تنيس ، وذهب هرون إلى المعركة ، ولكنه كان يلهو ويعبث . فانتهز عمّاه شيبان وعدى إحدى سكراته فقتلاه فى صفر سنة ٢٩٢ .

وولى البلاد بعده عمه شيبان ، وكان على يديه ذهاب ملك بنى طولون ، ودخل البلاد محمد بن سليمان من قبل المكتفى بالله سنة ٢٩٢ .

وأمر محمد بن سليمان بإحراق القطائع ، ونهبت الفسطاط ، وأخرج من مصر بنى طولون ومواليهم ومن يمت إليهم « فلم يبق بمصر منهم أحد يذكر ، نخلت منهم الديار ، وعفت منهم الآثار ، وتعطلت منهم المنازل ، وحل بهم الذل بعد العز ، والتطريد والتشريد بعد اجتماع الشمل ونضرة الملك ومساعدة الأيام »[١] .

٣ — الشعر فى أعقاب الطولونيين :

ووقف الشعر من الطولونيين بعد زوال ملكهم موقفين :

أحدهما شامت فيهم فرح بما أصابهم ، مرحب بمن أتى بعدهم ، ممجد لفتوحهم وما كسبوا من نصر مبين .

والثانى شعر حزين باك يرثى دولتهم ويتفجع لما حل بهم ويثير الأشجان لنكبتهم .

وهو فى الحالتين شعر موعظة واعتبار ، يذكر بصروف الأيام ، ويدعو إلى التفكر فى أحداث الأزمان .

ومن الشعر الأول ما قاله أحمد بن محمد الحبيشى يتشفى ويمدح القائد الفاتح[٢] :

الحمـــد لله إقراراً بما وهبا ... قد لم بالأمن شعب الحق فانشعبا[٣]
الله أصدقَ هذا الفتح لا كذبٌ ... فسوءُ عاقبة المثوى لمن كذبا
فتح به فتح الدنيا محمدها ... وفتَّح الظلم والإظلام والكربا
لا ريب ، رب هياج يقتضى دعة ... وفى القصاص حياة تذهب الريبا

(١ ، ٢) والكندى ص ٢٤٨ .
(٣) انشعب : التأم واجتمع .

رمى الإمام به عـــذراء غادره ... فافتض عذرتها بالسيف واقتضبا
محمـد بن سـليمان أعزهم ... نفسا ، وأكرمهم فى الذاهبين أبا
سرى بأسد الشرى ، لو لم يُرَوْا بشرا ... أضحى عرينهم الخطىَّ لا القضبا

إيها عـلوت على الأيام مرتبة ... أبا على ترى من دونهـا الرتبا
هارت بهارون من ذكراك بقعته ... وشيَّـبَ الرعب شيبانا وقد رغبا
فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم ... كأنها من زمان غابر ذهبا
وكم ترى تركوا من جنة أُنُـف ... ومن نعيم جنى من غَدْرهم غضبا

وكأن هذه القصيدة من وحى أبى تمام فى فتح عمورية . وأظهر ما تجد ذلك الوحى فى القافية البائية ، والبحر « البسيط » .

أما الاقتباس من القرآن الـكريم والعنـاية بمحسنات البديع ، فمن الصفات التى كانت تغلب على الشعر فى هذا العصر ، ثم أرهقته فى العصور التالية .

وقال الحبيشى لأبى على الحسين بن أحمد الماذرائى :

هنيئـاً لمصرٍ قد فتحت رتاجها ... وقُـلِّدْتَ ما قـلِّدْتَه بتحـكم
وما الفتح إلا فتح رأيك لا الذى ... تجمع يوم الجمع من كل مُعْـلَم
وكنت وشـيبانٌ غداة لقيته ... كموسى وفرعون غـداةَ المعظم
كـفَيتَ الإمام المـكتـفِى ما ينوبه ... ولم يك يرجوه بكل مُرَجَّـم
وما زلت ترمى آل طولون قبلها ... وقد خالفوا السلطان ، منك بصيلم

وقال ابن أبى يعقوب شامتا هاجيا :

الدار بعد تفـــرق الأظعان ... مسرورة بتفـــرق السكان
لم تبد من حُزْن على أربابهـا ... إذ فى الترحل راحـــة الجيران

رحلوا فلا نزلوا بروض مزهر ... وعداهم سَبَلُ الغمام الدانى
حرموا صبيب المزن أنى يمموا ... وتقسمتهم سطوة الرحمن
ما كان أثقلهم على كتف العلا ... وأكَفَّ أيديهم عن الإحسان
ما كان أرذلَ دولة سعدوا بها ... وأحقها بتهدم الأركان
ما عاشروا نعم الإله بشكرها ... فأثابهم بعقوبة الكفران
ماذا أريحت مصر منه وما إلى ... أرض العراق ، مضى من البهتان !

ويتسم هذا الشعر بالبعد عن المقدمات والدخول فى الموضوع ، أو براعة الاستهلال وهى التى تلحظ فى الإشارة إلى الموضوع من أول بيت .

ثم يصرح بالعبرة ، ولا يخفى الشماتة بهم والرضا عما أصابهم فيقول :

إن كنت تسأل عن جلالة ملكهم ... فارتع وعُجْ بمراتع الميدان
وانظر إلى تلك القصور وما حوت ... واسرح بزهرة ذلك البستان
وإن اعتبرت ففيه أيضاً عبرة ... تنبيك كيف تصرف العصران
يا قتل هرون اجتثثت أصولهم ... وأشبت رأس أميرهم شيبان
لم يغن عنهم بأس قيس إذ غدا ... فى جحفل لجب ، ولا غسان
وعُدَيَّةُ البطل الكمى وخزرج ... لم ينصرا بأخيهما عدنان
ذُفَّتْ إلى آل النبوة والهدى ... وتمزقت عن شيعة الشيطان

عظمة ملكهم وعمارتهم :

وكان عز بنى طولون عزيزا ، ومجدهم عظيما ، ورخاؤهم عميما ، ونعيمهم موفورا وملكهم كبيرا ، وكانت قصورهم مشيدة ، وصروحهم ممردة ، وجناتهم ناضرة ، ورياضهم عاطرة .

واقرأ بعض ما كتبه صاحب النجوم فى وصف ديارهم وعزهم قال[١] :

ولما ملك خمارويه الديار المصرية ، بعد موت أبيه أحمد بن طولون ، أقبل على عمارة قصر أبيه ، وزاد فيه محاسن كثيرة ، وأخذ الميدان الذى كان لأبيه ، المجاور للجامع ، فجعله كله بستانا ، وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر ، وحمل إليه كل صنف من الشجر المطعم ، وأنواع الورد . وزرع فيه الزعفران ، وكسا أجسام النخل نحاساً مذهباً حسن الصنعة ، وجعل بين النحاس وأجسام النخل مزاريب الرصاص ؛ وأجرى فيها الماء المدَبَّر ، فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء ، فينحدر إلى فساقى معمولة ، ويفيض الماء منها إلى مجار تسق سائر البستان . وغرس فى أرض البستان من الريحان المزروع فى زى نقوش معمولة ، وكتابات مكتوبة ، يتعاهدها البستانى بالمقاريض حتى لا تزيد ورقة على ورقة ، لئلا يشكل ذلك على القارىء ، وحمل إلى هذا البستان النخل من خراسان وغيرها ... وسرح فى البستان من الطير العجيب كالطواويس ودجاج الحبش ونحو ذلك شيئا كثيرا .

وعمل فى هذا البستان مجلساً له سماه « دار الذهب » ، طلى حيطانه كلها بالذهب واللازورد فى أحسن نقش ، وجعل فى حيطانه مقدار قامة ونصف صُوَراً بارزة من خشب ، معمول على صورته وصور حظاياه ، والمغنيات اللاتى تغنيه فى أحسن تصوير وأبهج تزويق ، وجعل على رءوسهن الأكاليل من الذهب والجواهر المرصعة ، وفى آذانها الأخراص الثقال ، ولونت أجسامها بأصناف تشبه الثياب من الأصباغ العجيبة ، فكان هذا القصر من أعجب ما بنى فى الدنيا .

وجعل بين يدى هذا القصر فسقية ملأها زئبقا . وسبب ذلك أنه اشتكى إلى

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٥٣ .

طبيبه كثرة السهر وعدم النوم ، فأشار عليه بالتكبيس ، فأنف من ذلك وقال : لا أقدر على وضع يد أحد على ، فقال له الطبيب : تأمر بعمل بركة من زئبق ، فعمل البركة المذكورة ، وطولها خمسون ذراعاً فى خمسين ذراعاً عرضاً ؛ وملأها من الزئبق ، فأنفق فى ذلك أموالا عظيمة ، وجعل فى أركان البركة سككا من فضة ، وجعل فى السكك زنانير من حرير محكمة الصنعة فى حلق من فضة ، وعمل فرشا من أدم يحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكَم حينئذ شدُّه ، ويلقى على تلك البركة الزئبق ، ويشد بالزنانير الحرير التى فى حلق الفضة المقدم ذكرها ، وينزل خمارويه فينام على هذا الفرش ، فلا يزال الفرش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق ما دام عليه . وكانت هذه البركة من أعظم الهمم الملوكية العالية ، وكان يُرى لها فى الليالى المقمرة منظر عجيب إذا تآلف نور القمر بنور الزئبق .

قال القضاعى : ولقد أقام الناس مدة طويلة بعد خراب هذا القصر يحفرون لأخذ الزئبق من شقوق البركة .

ثم بنى خمارويه فى القصر أيضاً قبة تضاهى قبة الهواء سماها « الدكة » وجعل لها الستر الذى يقى الحر والبرد فيسدل حيث شاء ، ويرفع متى أحب ، وكان كثيراً ما يجلس فى هذه القبة ليشرف منها على جميع ما فى داره من البستان والصحراء والنيل والجبل وجميع المدينة .

ثم بنى ميداناً آخر أكبر من ميدان أبيه . وبنى أيضاً فى داره المذكورة دارا للسباع ، وعمل فيها بيوتا ، كل بيت لسبع ... وكان من جملة هذه السباع سبع أزرق العينين يقال له « زُرَيْق » قد أنس بخمارويه ، وصار مطلقاً فى الدار لا يؤذى أحداً . وراتبه على عادة السباع ، فلا يلتفت إلى غذائه بل ينتظر سماط خمارويه ، فإذا نصبت المائدة أقبل « زريق » معها وربض بين يدى خمارويه ، فيبقى خمارويه يرمى إليه بيده الدجاجة بعد الدجاجة ، والقطعة الكبيرة من اللحم

ونحو ذلك ، مما على المائدة ... وكان إذا نام خمارويه جاء « زريق » وقعد ليحرسه ، فإن كان قد نام على سريره ربض بين يدى السرير ، وجعل يراعيه ما دام نائما ، وإن نام خمارويه قعد قريبا منه وتفطن لمن يدخل أو يقصد خمارويه ، لا يغفل عن ذلك لحظة واحدة ، وكان فى عنق زريق طوق من ذهب ، فلا يقدر أحد أن يدنو من خمارويه ما دام نائما ، لمراعاة زريق له وحراسته إياه ؛ حتى أراد الله إنفاذ قضائه فى خمارويه ، كان بدمشق وزريق بمصر ، ولو كان زريق حاضراً لما كان يصل إلى خمارويه أحد . فما شاء الله كان .

فلا عجب أن بكى الشعراء ، واعتبروا ، ووعظوا ، وامتلأ شعرهم بالزفرات والحسرات على ما فعلته الأيام بآل طولون وما شادوا من قصور وما كان لهم من ملك كبير .

ومن هذه القصائد قول إسماعيل بن أبى هاشم[١] :

قف وقفةً بفناء باب السَّاجِ ... والقصر ذى الشرفات والأبْرَاجِ
وربوعِ قومٍ ازعجُوا عن دارهم ... بعد الإقامة أيمَا إزعاجِ
كانوا مصابيحاً إذا ظَلِم الدجى ... يسرى بها السارون فى الإدْلاَجِ
وكأنْ وُجوهُهمُ إذا أبصرتها ... من فضةٍ مصبوغة أو عاجِ
كانوا الثريا لا يُرَامُ حِمَاهُمُ ... فى كل مَلْحَمةٍ وكل هياجِ
فانظر إلى آثارهم تلْقَى لهم ... عَلَماً بكل ثَنِيَّةٍ وفِجَاجِ
وعليهمُ ما عشتُ لا أدَعُ البكا ... مَعْ كل ذى نظرٍ وطرف ساجِ

وقال سعيد القاص[٢] يبكى أيام ابن طولون ، ويرثى له ، وللبلاد والدين والدنيا التى أصيبت جميعا بفقده ، وجعل هذا البكاء مقدمة للحديث عن عظيم الآثار التى شيدها ، وعن دولته التى أسسها وانظر إليه يقول :

جرى دمعه ما بين سَحْرٍ إلى نَحْرِ ... ولم يجر حتى أسلَمَتْه يَدُ الصبرِ

(١) الخطط ج ١ ص ٣٢٣ والكندى ٢٥٢ .
(٢) الكندى ص ٢٥٣ . خطط المقريزى ج ١ ص ٣٢٣ .

وباتَ وقيداً للذى خامر الحشَا ... يـئِنُّ كما أنَّ الأسيرُ من الأسرِ (١)
وهل يستطيع الصبر من كان ذا أسىً ... يبيت على جَمْرٍ ويُضحى على جمرِ
تتابُعُ أحداثٍ تحيَّفنَ صبرَه ... وغدرٌ من الأيام، والدهرُ ذو غدْرِ
أصاب على رغم الأنوف وجدعها ... ذوى الدين والدنيا بقاصمة الظهرِ
طوَى زينةَ الدنيا ومصباحَ أهلها ... بفَقْد بَنى طولون، والأنجُمِ الزُّهْرِ
فبادوا وأضحَوْا بعد عزٍ ومَنْعَةٍ ... أحاديثَ لا تخفى على كل ذى حِجْرِ

ثم يبدأ الحديث الخاص، ويتجه إلى مدح ابن طولون خَلْقاً وخُلُقا بما يليق بأمير عظيم الأفعال، عالى الهمة فيقول:

وكان أبو العباس أحمدُ ماجدا ... جميلَ المُحَيَّا لا يبيتُ على وِتْر
كأن ليالى الدهر كانت، لحسنها، ... وإشراقها فى عصره، ليلةَ القدر
يدل على فضل ابن طولونَ همةٌ ... مُحَلِّقةٌ بين السماكين والغَفْر (٢)

ويستشهد بالآثار، وهى شاهد عدل، ناطق فى صمته بلسان مبين، ومنها ذلك المسجد الذى بناه ابن طولون سنة ٢٥٩ عند المكان المسمى تنور فرعون:

فإن كنت تبغى شاهداً ذا عدالة ... يخبر عنه بالجَلِىِّ من الأمرِ
فبالجبل الغربى خِطّةِ يَشْكُرٍ ... له مسجدٌ يغنى عن المنطق الهذْرِ
يدل ذوى الألباب أن بناءَه ... وبانِيَه لا بالضَّنين ولا الغَمْرِ (٣)
بناه بآجُرٍّ وآس وعَرْعَرٍ ... وبالمرمَرِ المسنون والجصِّ والصخرِ (٤)
بعيدُ مدى الأقطار، سامٍ بناؤه ... وثيقُ المبانى من عقود ومن جُذْرِ

---

(١) الوقيد والوقود: الحطب وشبهه. (٢) الغفر = ثلاثة أنجم صغار.
(٣) الضنين = الشحيح. الغمر = الخامل الذى لم يجرب الأمور.
(٤) آس = نوع من الشجر. العرعر = شجر السرو. المسنون = المصقول.

فسيحُ الرحاب يَحْسِرُ الطرفُ دونَه رقيقُ النسيم طيب العَرْفِ والنَّشْرِ
وتَنُّورُ فرعونَ الذى فوق قُلَّة على شاهِقٍ عال ، على جبل وعر
بنى مسجداً فيه ، يفوق بناؤه ويهدى به فى الليل ، إن ضل ، من يسرى
تخال سَنَا قنديله وضياءَه سُهيلا إذا ما لاح فى الليل للسَّفْرِ

وعينٌ معينُ الشرب ، عينٌ زكية وغير أُجاج للرُّواة وللطُّهْر
كأن وفود النيل فى جنباتها تروحُ وتغدو بين مَدٍّ إلى جزر
فأرفأها مستنبطاً لمعينها من الأرض من بطن عميق إلى ظهر
يمر على أرض المعافر كلها وشعبان والأحمور والحى من بشر
قبائل لا نوء السحاب يمدها ولا النيل يرويها ولا جَدْولٌ يجرى

ولا تنس مارستانه واتساعه وَتَوْسِعَةَ الأرزاق للحَوْل والشهر
وما فيه من قُوَّامِهِ وكُفَاتِه ورِفقُهمُ بالمعتَفِين ذوى الفقر
فللميت المقبورِ حسنُ جَهازِه وللحىِّ رفقٌ فى علاج وفى جَبْر

وإن جئت رأس الجسر فانظر تَأَمُّلاً إلى الحِصْن أو فاعْبُر إليه على الجِسْر
ترى أثراً لم يبق من يستطيعه من الناس فى بدوِ البلاد ولا حَضْر
مآثرُ لا تبلى وإن بَادَ رَبُّها ومجدٌ يُؤَدِّى وارثيه إلى الفخر
لقد ضُمِّنَ القبر المقدَّر ذرعه أجل ، إذا ما قيس ، من قبتى حجْر

ثم انتقل إلى أبنائه وما أصابهم به الدهر حتى وهى عقدهم فتناثرت جواهره . قال :

وقام أبو الجيش ابنُه بعد موته كما قام ليثُ الغاب فى الأَشْبُل السُّمْر

أتته المنايا وهو فى أمن داره ... فأصبح مسلوباً من النهى والأمر
كذاك الليالى من أعارته بهجة ! ... فيالك من بَاب حديدٍ ومن صُفْر !

وورّثَ هرونَ ابنه تاج ماجد ... كذاك أبو الأشبال ذو الناب والظفر
وقد كان « جيشُ » قبله في محله ... ولكن جيشاً كان مستنقَصَ العُمْر
فقام بأمر الملك هرون مدة ... على نكدٍ من ضيقِ باع ومن حَصْر
وما زال حتى زال والدهر كاشح ... عقاربه من كل ناحية تسرى
يُذَكِّرُهُمْ لما مَضَوْا فتتابعوا ... كما ارفض سِلكُ من جُمانٍ ومن شذر

فمن يبك شيئاً ضاع من بعد أهله ... لفقدهُم فليَبكِ حُزناً على مصرِ
لِيبكِ بنى طولونَ إذ بَانَ عصرهم ... فبورِكَ من دَهرٍ وبُوركَ من عَصْر

وورد كتاب المكتفى بولاية الحسين بن أحمد الماذرائى على الخراج وجعل إليه النظر فى أمر بنى طولون وضياعهم .

ثورة ابن الخليج :

ولما خرج محمد بن سليمان أخرج معه جماعة كثيرة من بقاياهم ، ومنهم محمد ابن على الخليج وجماعة ، فثاروا وعادوا إلى مصر وأثاروا فتنة بها ، فأرسل المكتفى إليهم رجلا يقال له أبو الأغر سنة ٢٩٣ فهزمه جيش ابن الخليج .

فقال إسماعيل بن أبى هاشم (١) :

أميرَنا يابن البهاليل الغرر ... شفيت من عدونا أبى الأغرّ
صدورَنا . وُقّيتَ من كل حذَرْ ... إذ جاء فى الشوك إلينا والشجر

(١) الكندى ص ٢٥٩.

فى جَحْفَلٍ كموج بحْرٍ قد زَخَرْ   يتبعه أهل البوادى والحَضَرْ
صبرت إذ لاقيته وما صبرْ   فَمَرَّ فى أسرع من لمح البَصرْ
يقطر منه بوله قطر المطرْ   أحدث فوق سرجه وما شَعَرْ
شفيتنا من تُركهمْ مع الخزَرْ   ثم عفا أميرُنا لما قَدَرْ

وهو رجز سهل بعيد عن التكلف مع قوة عبارته . وتماسك أجزائه . ووضوح صورته .

وقال أحمد بن محمد الحبيشى (١) فى أبى الأغر وابن الخليج .

غضبتَ لمصر وما نالها   وشرَّدْتَ بالخوف من غالها
تلافيتها بعد إدبارها   وأقبلَتْ تطلبُ إقبالها
وكادت تؤوِّهُ شوقاً إليك   وتظهرُ بالشوق بلبالها
وما شوقُها كان من طبعها   ولكن ربَّك أوحى لها
لقد فرَّج الله كربَ النفوسِ   وبلَّغها فيكَ آمالها
ولما رأيناك فى مصرنا   منحنا الإمارة إجلالها
وما زلتَ تطلبها هِمةً   وتركب بالسيف أهوالها
وتعلمُ نفسُك أن الأمو   رَ إمّا عليها وإمّا لها
تمنَّوا لِقاكَ فلما رأوكَ   رأوا للمنيةِ إظلالَها
وَمرّوا يطيعون فى كل شىء   رأوه المنايا وإنزالها
وكان أبوك خليج العُفاةِ   وبحر الثغور التى عالها
به كانت الروم فى أمنها   تفزّعُ للذَّنبِ أطفالها

(١) الكندى ص ٢٦١ .

وقد خلت هذه القصيدة من المقدمات التقليدية ، وابتدأت بالحديث فى الموضوع ولعل هذا الموضوع ذاته هو الذى نفر من تلك المقدمات . ثم بلغ ابن الخليج مسير أبي شجاع فاتك المعتضدى إليه ، ومسير دميانة فى المراكب ، ونزل أبو شجاع ومعه بدر الحمامى بالنويرة ، وعسكر ابن الخليج بباب المدينة ، وسار فى ثلاثة آلاف من أصحابه ليـلا ليبيت بهم فاتكا فضلوا الطريق ، وأسفر الصبح قبل أن يبلغوا غايتهم ، والتقى الجمعان فهزم أصحاب ابن الخليج وذلك يوم الخميس ٣ رجب سنة ٢٩٣ واستتر ابن الخليج فى منزل رجل يقال له (تريك) .

قال سعيد القاص لبدر الحمامى[1] :

حالت معارفهم إلى إنـكارِ ... وغدا الخميس لهم بيومٍ بوار

وتقاطعـوا وتدابروا وتنافروا ... وتلاعنوا فيها كأهـل النار[2]

وأتوكَ بين مُعذِّرٍ فى عذْرِهِ ... خجلٍ وبين مصرِّح الإقرار

وتزعزعت تلك الرماح فصورت ... ركن المقطم فى حفيرٍ هارِ

طلعت نجومٌ فى الرّماح بروجها ... فسقطن إذ طلعت نجوم قُدار

لـما انجلى ذاك الغبـار رأيتهم ... صرعى وقد لبسوا بريم غبارِ

فاسعد بنصر الله والفتح الذى ... عظمت به النعمى على الأبرار

ودخل دميانة فى مراكبه إلى الفسطاط ، وأقبل النوشرى والحسين بن أحمد المـاذرائى ومن كان معهم إلى الفسطاط فدخلوها فى ٥ رجب سنة ٢٩٣ ، ودلهم « تريك » على ابن الخليج فأخذ وقيد ، بعد أن أقام متنزياً ٧ أشهر و ٢٠ يوماً .

ودخل فاتك الفسطاط فى عسكره يوم الخميس ١٠ رجب سنة ٢٩٣ ، وأمر

---

(١) شرحه ص ٢٦١

(٢) إشارة إلى سورة الأعراف « كلما دخلت أمة لعنت أختها » أو « ص » « إن ذلك لحق ، تخاصم أهل النار » . وليس فى الشعر ضعف .

دميانة بالخروج ، وأخرج معه ابن الخليج فى ٦ شعبان سنة ٢٩٣ . ثم طيف بابن الخليج وأصحابه ببغداد ، واجتمع الناس لهم هناك ، وكان يوماً مذكوراً .

ثم أمر الحسين بهدم الميدان فابتدىء فى هدمه فى شهر رمضان سنة ٢٩٣ وبيعت أنقاضه ودثر كأنه لم يكن .

وحمل الوفاء بعض الشعراء على البكاء ، وظهر فى الشعر العربى لأول مرة قصائد متعددة فى آثار دولة زائلة ، وهذا شعر جديد فى معانيه ، محزن فى نغماته ، متنوع فى أناته وزفراته .

قال محمد بن طشويه :(١)

من لم يَرَ الهدم للميدان لم يَرَهُ ... تبارك الله ما أعلاه وأقدرَهُ(٢)

لو أن عين الذى أنشاه تبصره ... والحادثات تعاديه ، لأكبَرَهُ

كانت عيون الورى تغشى لهيبته ... إذا أضاف إليه الملك عسكره

أين المُلوك التى كانت تحل به ... وأين من كان بالإتقان دَبَّرَهُ

وأين من كان يحميه ويحرسه ... من كل ليثٍ يهابُ الليثُ منظره

صاح الزمان بمن فيه ففرقهم ... وحط ريب البلى فيه فدَعْثَرَهُ

وأخلق الدهر منه حسن جدته ... مثل الكتاب محا العصرانِ أسطرَهُ

دُكَّتْ مناظره واجتث جوسقه ... كأنما الخسفُ فاجاه فدَمَّرَهُ

أو هَبَّ إعصارُ نارٍ فى جوانبه ... فعاد معروفُه للعينِ منكره

كم كان يؤوى إليه فى مقاصره ... أحوى أغن غضيض الطرف أحورَهُ

كم كان فيه لهم من مَشرب غَدَقٍ ... فعب طِرفَ الرَّدى فيه فكدَّرَهُ

(١) الكندى ص ٢٦٣

(٢) صوابه « ما أعلى وأقدره » ليستقيم الوزن

أين ابن طولون بانيه وساكنه   أماته المَلْكُ الأعلى فـأقبره
ما أوضح الأمر لو صحت لنا فكر   طُوبي َلمن خصَّه رُشد فذكره!

وقال أحمد بن إسحاق الحكر(١) :

وإذا ما أردت أعجوبة الدهـ   ـر تراها فانظر إلى الميدان
تَنظر البثَّ والهموم وأنوا   عاً توالت به من الأشجان
يعلم العالِم المبصر أن الدهـ   ـرَ فيما نراه ذو ألوان
أين ما فيه من نعيم ومن عيـ   ـش رخى ونضرة وجنان
أين ذاك المسك الذى ذيفَ بالعنـ   ـبر بحتاً وعُلَّ بالزعفران
أين ذاك الخز المضاعف والـ   وشى وما استجلبوا من الـكتان
أين تلك القيان تشدو على الـ   ـفُرش بما استحسنوا من الألحان
دوَّر الدهر آل طولون فى هـ   ـوَّة قفر مَسكونُها غير دان
وأعاض الميدان من بعد أهليـ   ـه ذئاباً تعوى بتلك المغانى

وقال سميد القاص(٢) :

وكأن الميدان ثـكلى أصـيبتْ   بحبيبٍ صباح ليلة عرس
تتغشى الرياح منه محـلا   كان للصون فى ستور الدمقس
ولفرشِ الإضريح والبُسطِ الديـ   ـباج فى نعمة وفى لين مَسّ
ووجوه من الوجوه حسان   وخدود مثل اللآلئ مُلس
كل كحلاء كالغزال ونجلا   ء رداح من بين حور ولُعْس

(١) روى هذا الشعر فى الخطط ج ١ ص ٣٢٥ منسوبا إلى أحمد بن إسحاق الجفر . وهو شاعر نحوى مصرى ترجم له ياقوت باختصار فى معجم الأدباء ج٢ ص ٢٢٦ ومات سنة ٣٠١
(٢) الـكندى ص ٢٦٦

آل طولون كنتم زينة الأر ... ض فأضحى الجديد أهدام لُبس

وكأنه يقتفى آثار البحترى فى إيوان كسرى بحراً وقافية وعبارات : ولا شك أن سينية البحترى هى التى أوحت إليه بهذه الأبيات .

وقال ابن أبى هاشم [1] :

يا منزلا لبنى طولون قد دثرا ... سقاك صوب الغوادى القطر والمطرا

يا منزلا صرت أجفوه وأهجره ... وكان يعدل عندى السمع والبصرا

بالله عندك علم من أحبتنا ... أم هل سمعت لهم من بعدنا خبرا

ولكن المنزل لم يجبه ، ولم يبق إلا بعض آثارهم تشهد بما كان لهم من عز وسلطان .

حرب مع الغرب :

وكانت المغرب ثائرة على الخلافة ، وأراد المقتدر بالله أن يخضعها ، وجعل ذلك إلى والى مصر ، أبى منصور تكين ، فأرسل من قبله أحد عماله فسار إلى برقة ومنها إلى «سرت» ولكن رجلا من البربر من كتامه اسمه « حباسة » قاد المغاربة إلى اسكندرية فدخلها في سنة ٣٠٢ (السبت ٨ رمضان) ، فقدم القاسم بن سيما إلى مصر مددا لتكين ، ثم قدم أبو على الحسين بن أحمد الماذرائى ، وأبو بكر محمد ابن على بن أحمد الماذرائى إلى مصر على تدبيرها ، وقدم معهما أحمد بن كيغلغ .

وسار حباسة إلى مشتول ، والتقى بالمصريين فى يوم خميس وسبت من جمادى الآخرة سنة ٣٠٢ .

قال نافع بن محمد بن عمرو [2] :

ألا أُشقَّ جيب الصبر إن كنت موجعا ... ولا يُلف لاحٍ فيك للعذْل مطمعا

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ٢٣٥

(٢) الكندى ص ٢٧١

لما دهم الإسلام من فجع حادث ... تهم له أركانه أن تضعضعا
لمصرع إخوان على الدين صُرِّعوا ... لنصرة دين الله ، يالك مَصرعا !
فماتوا كراما ما استضيموا ، أعزَّةً ... يلاقون فى الله الأسنة شُرَّعا
ألم ترهم يوم الخميس وقد غدا ... عدوُّهمُ فيمن أعدَّ وجمعا
وقد صاح فيهم بالنفير أميرهم ... فجاءوا سراعا حاسرين ودُرَّعا
فصادمهم فى الناكثين فأبدءوا ... وكان حُماةَ الدين أعلى وأمنعا
فولى بخزى طوقته كتامةٌ ... وقد سُقيت كأساً من الموت مُترعا
ألوف أباد القتلُ جمَّ عديدِهم ... فأمسوا طعاماً للكلاب ومرتعا
ترى القوم صرعى فى الحلافى جواثما ... كأعجاز نخل بالبقيع تقلعا
وطيف بهام الفاسقين على القنا ... وبضِّع من لحماتهم ما تبضعا
وكانت لحزب الكفر إذ ذاك عطفة ... فقتل من أشياعنا من تسرعا
فصلى على تلك النفوس مليكها ... وعوضها أبقى ثواب وأنفعا

وليس من شك فى أن هذا الشعر قيل بعد الموقعة بقليل ، كما يدل على ذلك تعيين يوم الخميس ، وندرك أنه شعر يختلف عما سبقه من شعر الحوادث ، فهو شعر دينى حماسى . شعر يخشى أن يتصدع الإسلام لمصرع من ماتوا فى الدفاع عنه ، ويصف أعداءهم بالفسق والخروج على الدين وأنهم حزب الكفر ، وانظر إلى ما فيه من إنصاف اقتضى أن يصف ما فعله أعداؤه بأشياعه ، وترحم على من قتل من رجاله ، وسأل الله لهم حسن الثواب .

الفصل الحادي عشر

الشعر فى عهد الإخشيديين

حاول محمد بن طغج الإخشيد أن يستقل بمصر وما يتبعها من بلاد الشام ، وأراد أن يكون له فيها ملك متوارث ، كما كان للطولونيين ، وقد نجح فى ذلك[(١)] وساعده على الاستقلال ضعف الخلافة ، واستبداد القواد والوزراء الأتراك بأمورها ، وكثرة الفتن والثورات فى حاضرتها وولاياتها .

وكان هذا الاستقلال سبباً فى استمرار النهضة بالنواحى الأدبية التى بدأت تتأقلم من عهد الطولونيين . وكان من آثارها ظهور كتاب وشعراء مصريين ، وزيادة العناية بالنقد والرواية ، ووفادة العلماء والأدباء على هذه البلاد للتعلم أو التعليم ، وطلب الغنى والجاه فيها ، والاستقرار بها إذا طاب لهم المقام . وكان لتشجيع الأمراء ورجال الدولة أثر كبير فى هذه النهضة ، فكان الإخشيد ممدحاً لفضله وأعماله ، وكان كافور أديباً أريباً محباً للعلم ، وألف الكندى له كتاب فضائل مصر[(٢)] وكان محباً للأدب حريصاً على المدح والإثابة عليه ، وكان الوزير جعفر بن الفرات المعروف بابن حنزابة فاضلا محباً للأدب حريصاً على المدح ، معنياً بالعلم وبالحديث خاصة .

---

(١) تولى محمد بن طغج أمر مصر سنة ٣٢٣ ، ومنحه الخليفة لقب الإخشيد سنة ٣٢٧ ومات سنة ٣٣٤ ، وهى السنة التى صار الأمر فيها للبويهيين ببغداد ، وأخذ البيعة قبل موته لابنه أبى القاسم أونوجور ، فبايعه القواد وكان أونوجور صغيراً فاختير أبو المسك كافور قيما عليه ، فاستبد بالأمر وظل صاحب السلطان فى البلاد حتى مات أونوجور سنة ٣٤٩ ، وولى بعده أخوه أبو الحسن على بن الإخشيد ، وكان صغيراً أيضاً ، فبقى السلطان لكافور ، ثم مات أبو الحسن سنة ٣٥٥ فاستأثر كافور بالأمر حتى مات سنة ٣٥٧ ، فخلفه صبى من الإخشيديين اسمه أبو الفوارس أحمد بن على ، ثم استولى عليها الفاطميون سنة ٣٥٨ هـ .

(٢) المغرب ص ٤٨

وكان فى البلاد شعراء فى زمن الإخشيديين ، نعد منهم صالح بن مؤنس ، ومحمد بن الحسن بن زكريا ، ومهلهل بن يموت ، وعبد الله بن أبى الجوع ، وسعيد ابن فاخر المعروف بقاضى البقر ، والحسن بن على الأسدى ، وصالح بن رشدين ، والعباس البصرى ، وأبا هريرة عبد الله بن أبى العصام . كما وفد عليها شعراء من الأقطار المجاورة ، كأبى الفتح كشاجم ، وأبى الطيب المتنبى .

وظهر فى البلاد شعر متنوع الأغراض والأساليب ، ولكنه كان فى جملته مطبوعاً بطابع الروح المصرية ، ومتصلا بالبيئة التى نشأ فيها ، ومتأثراً بالحياة التى عاشها شعراؤه . وترى فيه المدح ، لرغبة أولئك الرؤساء فيه ، وحرصهم عليه ، ومجازاتهم للشعراء إذا مدحوا . كما ترى فيه الهجاء إذا سخط الشاعر على هؤلاء الرؤساء والسادة ، أو ضاق ذرعه بغير هؤلاء من الأصدقاء أو الأعداء . وترى فيه الوصف الجميل لمناظر البلاد ومتنزهاتها التى كانت مشهورة عندئذ ، وللأديرة وما يحيط بها من جنات ، وما يتصل بها من لهو ومرح وشراب وصيد ، وما يكون بها من متع وراحة نفس .

ولا يخلو مثل هذا الشعر المرح من عبث أحياناً ، ومن مبالغة قد تخرج صاحبها على حدود الأدب أو الدين ، ولكن بعض الشعراء كانوا يجدون من الحرية والتسامح ، وكان فيهم من ضعف الدين ، أو الرغبة فى التظرف ، ما يجعل مجاوزة هذه الحدود أمراً يسيراً .

وإذا رجعت إلى هذا الشعر وجدت فيه من المدح شعراً سهلا كتلك الأبيات التى مدح بها صالح بن مؤنس جعفر بن الفرات وأهله ، فقال فيهم (١) :

قد مر عيد وعيد　　ما اخضر لى فيه عود

---

(١) معجم الأدباء ج ٧ ص ١٧٢ .

وكيف يخضر عودى والماء منه بعيد
يا من له عددُ المجد كلّها والعديد
آل الفرات نداهم على الفرات يزيد
وأنت فضلك فيهم عليك منه شهود
وكل يوم لغيرى من راحتيك مُدود
هل لى إلى الرزق ذنب فكان منه صدود
ما الناس إلا شقى فى دهرنا وسعيد

وكان ابو القاسم بن أبى العفير الأنصارى ممن يعارض المتنبى ، وقد يحضر مجلسهما كافور وبعض الوزراء ، كأبى بكر بن أبى صالح الروزبارى ، وأبى الفضل جعفر بن الفرات . وكان لأبى القاسم مدائح فى الوزير أبى بكر[1] . كقوله :

أما الثناء فصادر بك وارد بادٍ بما تسدى إلى وعائد
لك يا أبا بكر إلىّ صنائع أيقظن أحوالى وجدى راقد
أوليتنى نعما متى أنكرتها شهدت على مواهب وفوائد

ثم يشير إلى كثرة مدائحه فيه فيقول :

وقصائد لى فيك لولا أنها كلم شهدت بأنهن مشاهد
ولهن فى عين الولى شواهد تترى ، وفى عين العدو جلامد

ومن الهجاء قصيدة قالها كشاجم فى هجاء غلام له اسمه كافور ، وعرض فيها بكافور الإخشيد ؛ إذ يقول :

حكيت سميك فى برده وأخطأك اللون والرائحة[2]

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبى ج ١ ص ٣٧٣ (٢) ديوان كشاجم ص ٣٣

وقال صالح بن مؤنس قصيدة فى هجاء عبد الله بن أبى الجوع رواها الثعالبى فى يتيمة الدهر[(١)]، وستأتى بعض أهاجى المتنبى فى مصر وفى كافور .

رثاء الأخشيد :

ولا يخلو شعرهم من رثاء :

إذ كان الرثاء وما زال مظهراً من مظاهر الوفاء للموتى ، أو التقرب إلى الأحياء من ذوى قرابتهم ، أو مشاركة فى حزن عام عند فقد العظماء .

وكان موت محمد بن طغج الإخشيد مثيراً لشاعرية بعض الشعراء فرثاه جماعة ، منهم محمد بن الحسن بن زكريا[(٢)]، فى قصيدة لامية تحدث فيها عن موطن العبرة فى الموت ، وأنه مدرك كل امرىء أينما كان ، والدنيا فانية ، والمنون دائرة لا مفر لأحد منها ، ثم قال :

فجعتنا بواهب لا نراه   يخلق الوجه عنده بابتذالِ
فجعتنا بمن حمى حرمة الإسـ   لام من حادثٍ ومن ختال
فجعتنا بالباسل البطل السا   مى غداةَ الوغى إلى الأبطال

ويشير إلى كرمه وحرصه على المدائح بقوله :

أين من يشترى المدائح والشكـ   ـر بأسنَى وفْرٍ وأوفى نَوَال
قطع الموتُ وصلنا منه كرها   والردى قاطعٌ لكل اتصال

ثم ترحم عليه وسقى جدثه . ثم خرج من الرثاء إلى مدح ابنه فقال :

إن خَبَا بدره فقد لاح للأمـ   ـة ، لما خبا ، طلوعُ الهلال

---

(١) ج ١ ص ٣٤٧

(٢) نهاية الأرب للنويرى ج ٥ ص ١٨٤

نوره مُشرقٌ مضىءٌ مدى الدهـ ـر منيرٌ وليس ذا اضمحلال

ورثاه رجل آخر من شعراء مصر اسمه مهلهل بن يموت فقال(١) :

أى عز مضى من الإسلام ! أى ركن أضحى حديث انهدام

ذاق مَوْتاً محمد بن طُغْجٍ هـو ليث الشرى وغيث الغمام

ويستمر فى الرثاء ولا يأتى بمعنى جديد إلى أن يقول واصفاً سعة ملكه .

فَقَدَتك الفسطاط وجداً مدى الدهـ ـر ومن بعدها بلادُ الشآم

فجُعت يَثْرِبٌ ومكة والبيـ ـت إلى زمزمٍ ، أجل ، والمقام

ويعتبر بمن مضى من الملوك السالفين الذين دهمتهم حوادث الأيام .

ثم ينتقل إلى تعزية ابنه أبى القاسم وتشجيعه فيقول :

أيهذا الأمير ، بل يا أبا القا سم يابن السميدع القمقام(٢)

ارضَ حكم الإله فى الملك الما ضى وسلِّمْ لنافذِ الأحكام

وهَنَاك الذى بَلَغت من الأمـ ـرِ وما حُزْته بحسن انتظام

ما كمثل الذى رُزِئت ولا مثـ ـل الذى قد ملكت فى ذا العام

أنت مثل الإخشيد فانهض بما مُلِّكْتَ بالجد منك والإعتزام

وأورد النويرى قصيدة عينية للمتنبى فى رثائه وتهنئة ابنه أبى القاسم فقال :

هو الزمان مُشِت بالذى جمعا فى كل يوم نرى من صرفه بِدَعا

لو كان مُمتنع تغنيه مَنْعَتُه لم يصنع الدهر بالإخشيد ماصنعا

ثم أشار إلى نكبة الإسلام فيه فقال :

لله ما حل بالإسلام حين ثوَى ! لقد وهى شعب هذا الدين فانصدعا

---

(١) شرحه ص ١٨٦ (٢) السميدع القمقام : السيد الشريف .

وجاء بأعذار عن عدم سعى اللحد إليه فقال : إنه لم يستطيع ذلك ، لأنه يجهل قدر من حل فيه ، ثم أعظم مصيبته عند معتفيه ومنتجعيه ثم قال :

لئن مضيت حميدَ الأمر مُفْتَـقَدا ... لقد تركت حميدَ الأمر مُتَّبَعا

وهنا تخلص من الرثاء إلى مدح خلفه أبي القاسم ، ومضى فى المدح فقال :

أعطت أبا القاسم الأملاكُ بيعـتَها ... ولو أبَتْ أخذت أسيافُه البِـيَعا

وانقاد أعداؤه ذُلاًّ لهيبته ... وظل متبوعهم من خوفه تَـبَعا

أضحت به همَمُ الغلمان عاليةً ... كأن مولاهم الإخشيد قد رجعا

ولم يكن الإخشيد مجهولا فى البلاد التى كان ينزلها المتنبى ، وقد عرفه وكرمه من قبل . فـكان رثاؤه له تقديراً وجزاء .

والمتنبى أقوى هؤلاء الشعراء فى رثائه[1] ، وليس فى شعرهم جميعاً من جديد حتى التخلص من الرثاء إلى التهنئة فإنه قديم فى الأدب العربي ؛ فقد دخل عبد الله بن همام السلولى على يزيد بعد موت معاويه فقال[2] :

اصبر يزيد فقد فارقت ذا مقة ... واشـكر حباء الذى بالملك حاباكا

وكثر الجمع بينهما لما تقضى به المجاملة وحسن التعزية ، وكان ذلك أكثر عند رثاء ذوى السلطان .

* * *

---

(١) وكان الإخشيد بالشام فى بعض السنين وبلغه خبر المتنبى ، فاستدعاه وأكرمه ، وقال أنشدنى قصيدتك الدالية فى ابن الفصيصى ، (على ابن إبراهيم التنوخى) فأنشده ، حتى بلغ إلى قوله .

فلـما جئتـه أعلى محـلى ... وأجلسنى على السبـع الشداد

تبسم قبـل تسليمى عليـه ... وألقى كيسه قبـل الوساد

فقام الإخشيد ، ولم يجلس له حتى يفرغ (المغرب ص ٣٥) .

(٢) نهاية الأرب جـ ٥ ص ١٨٥

(٣) العقد الفريد جـ ٣ ص ١٣٢

ومن الرثاء قصيدة طريفة فى موضوعها دقيقة فى معانيها حرص فيها قائلها على أن تكون ذاتية لا يشرك الميت فيها أحد ، وهى التى قالها عبد الرحمن الخشاب المصرى النحوى ، فى أبى سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى الصدفى ، المؤرخ المصرى المتوفى سنة ٣٤٧ ، قال[1] :

بثثت علمكَ تصنيفاً وتقريبا ... وعُدتَ بعد لذيذ العيش مندوبا
أبا سعيد ، وما نألوك إن نشرت ... عنك الدواوين تصديقا وتصويبا
ما زلت تلهج بالتاريخ تكتبه ... حتى رأيناك فى التاريخ مكتوبا
نشرت عن مصر من سكانها علماً ... مبَجَّلا بجمال القوم منصوبا
كشفت عن فخرهم للناس ماسجعت ... وُرْقُ الحمام على الأغصان تطريبا
حُجِبْتَ عنا ، وما الدنيا بمظهرة ... شخصاً ، وإن جل ، إلا عاد محجوبا
كذلك الموت لا يُبْقى على أحد ... مدى الليالى من الأحباب محبوبا

شعر الأديرة وما يتصل بها :

وكان فى البلاد كثير من الأديرة بعضها قريب من الفسطاط وبعضها بعيد عنها ، وكانت مواقعها جميلة على النيل أو فى سفوح الجبال ، وكان يحيط بها جنات من نخيل وأعناب ، وحدائق فيها أنواع الزهر ، وكان فيها قصف ومرح .

فكثر الشعر المصرى فى وصف هذه الأديرة وما يتصل بها ، وصفاً يمزجه الشاعر بما كان من مغامرات وسكرات ، ومجالس أنس ولهو ، وطرب ورياضة ، وتمتع بالصيد والقنص ، وقد يذكره ممزوجاً بالحسرة على الزمن الماضى أو الشباب الذاهب . ومن هذه الأديرة التى اشتهرت فى الشعر المصرى : دير القصير ، ودير نهيا ، ودير طمويه ، ودير سينا ، ودير مارحنا .

(١) الأدب العباسى للأستاذ نجاتى ص ٥٠٩

ومن الشعراء الذين تحدثوا عن دير القصير شاعر مصرى اسمه أبو هريرة ابن أبى العصام قال :

كم لى بدير القصير من قَصْفِ ... مَعْ كل ذى صبوة وذى ظَرْفِ (١)

ولأبى الفتح كشاجم قصيدة يحن فيها إلى هذا الدير ، ويذكر ما كان له من مآرب ومشارب ، وأيام سرور ولهو ، ويحيى معه جنات حلوان والنخلات فيقول :

سلام على دير القصير وسفحه ... فجنات حلوان إلى النخلاتِ (٢)
منازلُ كانت لى بهن مآربٌ ... وكانت مواخيرى ومُنْتَزَهاتِى
إذا جئتها كان الجياد مراكبى ... ومنصرَفى فى السُّفْن منحدرات
فأقنص بالأسحار وحشىَّ عينِها ... وأقتنص الإنسىَّ فى الظلمات
معى كلُّ بسام أغرَّ مهذبٍ ... على كل ما يهوَى النديمُ مُوَاتى
ولُحُانُ مما أمسكَتْه كلابُنا ... علينا ، ومما صيد فى الشبكاتِ
إذا ما شئت باشرت طبخه ... على كثرة من غلمتى وطُهَاتى
وصفراءُ مثل التبر يحمل كأسها ... شديدُ فتور الطرف واللحظات
كأن قضيبَ البان عند اهتزازه ... تعــلم من أعطافه الحركات
هنالك تصفو لى مشاربُ لذتى ... وتصحب أيام السرور حياتى

وكان هذا الدير على رأس جبل مشرف على النيل قرب حلوان فى طريق الصعيد ، فى غايه النزاهة والحسن ، وبه صورة مريم البتول ، وفى حجرها السيد المسيح ، فى غاية إتقان الصنعة . وكان أهل مصر ينتابونه ، ويتنزهون فيه لقربه من الفسطاط (٣) .

---

(١) يتيمة الدهر جـ ١ ص ٣٦١
(٢) ديوان كشاجم ص ١٩
(٣) خطط المقريزى جـ ٢ ص ٥٠٢

وفيه يقول محمد بن عاصم المصرى من أواخر دولة الإخشيد[١] :

إن دير القصير هاج ادّكارى　　لهو أيامنا الحسانِ القصارِ
وكأنى إذْ زرتُه بعد هجر　　لم يكن من منازلى ودياری
إذ صعودی على الجيادِ إليهِ　　وانحداری فی المُنشآت الجواری
منزلا لست مُحْصِياً ما بقلبى　　ولنفسى فيه من الأوطار
منزلا من عُلوِّه كسماءٍ　　والمصابيحُ حوله كالدَّرارى
كم شرِبْنا على التصاوير فيه　　بصغارٍ مَحْشُوةٍ وكبار
صورة من مصور فيه ظلَّت　　فتنة للقلوب والأبصار
لا وحسن العينين والشفة اللميـاء منها وخدِّها الجُلَّنارى
لا تخلفْتُ عن مزارىَ دَيْراً　　هى فيه ، ولو نأى بى مزارى
فسقى اللهُ حلوانَ فالنجدَ فدير القصير صوبَ العِشار
كم تنبهت من لذاذة نومى　　بنعير الرهبانِ فى الأسحار
والنواقيس صائحات تنادى　　حىَّ يا نائماً على الإبْتِكار

ودير طمويه فى الغرب بإزاء حلوان ، والدير راكب البحر ، حوله الكروم والبساتين والنخل والشجر ، وهو نزه عامر آهل ، وله فى النيل منظر حسن ، وحين تخضر الأرض يكون فى بساطين من البحر والزرع ، وهو أحد منتزهات أهل مصر المذكورة ، ومواضع لهوها المشهورة[٢] .

ولابن أبى عاصم المصرى فى هذا الدير[٣] .

واشرب بِطَمْوَيْهِ من صهباء صافية　　تزرى بخمر قُرَى هِيتٍ وعانات

---

(١) مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى ج ١ ص ٣٦٣

(٢) مسالك الأبصار ج١ ص ٣٧١ نقلا عن الشابشتى . (٣) خطط المقريزى ج ٢ ص ٥٠٤

على رياض من النـوار زاهرة تجرى الجداول فيها بين جنات
كأن نبت الشـَّقيق العـُصفـرِىّ بها كاسات خمر بدت فى إثر كاسات
كأن نرجـَسها من حسنه حـَدَقٌ فى خفيـة يتناجى بالإشـارات
كأنما النيـل فى مر النسيم به مستلئم فى دروع سـابريات
منازل كنت مفتونا بهـا شغفا وكن قدما مواخـيرى وحاناتى
إذ لا أزال ملما بالصـَّبُوح على ضرب النواقيس صَبـًّا بالديارات

وكان دير مارحنا على شاطىء بركة الحبش ، وكان بقربه جميزة يجتمع الناس عندها ويشربون ، وكان يذهب إلى هذا الدير شاعر مصرى ظريف ماجن ، اسمه العباس ابن البصرى من شعراء أبى القاسم أونوجور بن الإخشيد وكان مقرباً إليه ويركب معه ، ويلبس طيلسانا أزرق يتشبه بالقضاة ، وكان مليح المجالسة لطيف النادرة .

وللعباس شعر فى وصف الأديرة كقوله فى دير « نهيا » بالقرب من الجيزة(١) :

يا للديارات المـلاح وما بهـا من طيب يوم مـرَّ لى بتشـوق
أيام كنت وكان لى شـوق بها وأسير شـوقٍ صبابتى لم يطلق
يا دير « نهيـا » ما ذكرتك ساعة إلا تذكـرت الشباب بمفرقى
والدهر غَضٌّ والزمان مساعد ومقـامنا ومبيتنا بالجوسـق
يا « دير نهيا » إن ذكرتَ فإننى أسعى إليك على الخيول السبق

ثم يصف صيد الطيور وما صاده منها فيقول :

وإذا سئلتَ عن الطيور وصيدها وجنوسها فاصدُق وإن لم تُصدقِ
فالغر فالكـِرْوَانُ فالقارُورُ إذ يشجيك فى طيرانه المتـَحـلّقِ

(١) الديارات لأبى الحسن الشابشتى ورقة ١٣٠

أشَهِدْتَ حرب الطير فى غيطانه لما تحرَّق منـــه كل محرقِ
والزمَّجُ الغضبـانُ فى رهطٍ له ينحط بين مُرَعـِّدٍ ومُبَرِّقِ
ورأيت للبازِىِّ سطوة موسِرٍ ولغيره ذلَّ الفقير المـُمْلقِ
كم قد صبوت بغِـرَّتى فى شِرَّتى وقطعتُ أوقاتى بِرَمْىِ البُنْدُقِ
وخلعت فى طلب المجون حبايلى حتى نُسِبْتُ إلى فعال الأخْـرقِ
ومهاجر ومكاسر ومنافر قلقَ الفـؤادُ به وإن لم يقلقِ
لو عاين التفاح حمرة خده لصبا إلى ديباج ذاك الرونقِ
يا حامل السيف الغداةَ وطرفه أمضى من السيف الحسامِ المطلقِ
ارفق بعبدك لا تطل أشجانه وارفق به يا صاحب الثَّغْر النقى

وهذا شاعر آخر من شعراء الإخشيديين هو عبد الله بن محمد بن أبى الجوع الذى صادق المتنبى وروى عنه . وكان من كبار علماء اللغة فى مصر .

كان هذا الشاعر يستبق اللذات ويهرع إليها فى شعبان قبل أن يدركه الصوم (١) . ويدعو إخوانه إلى حفلة مرحة فيها خمر ونساء وورد وغناء فيقول :

شعبان قد صار نِضْوا ولم نُفِد فيه لهوا
وليس ذلك منّـــا جهلا ، ولا كان سهوا
فبـالمودة إلاّ بكَرْتَ للقصف غَدْوا
حتى نقومَ فنَرْفُو ما خرَّق الدهر رَفْوا
من بعد تقديم جَدْى مُسَمَّن ظل يُشوَى
له ثلاثون يوما يحبو إلى الضرع حَبْوا
لما انتزعتُ حشاه عوَّضْتُه البقل حَشْوا

(١) يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٥٤

وقد عنيت بجامٍ ملأْتُه لك حـلوى
وقهوة بنتِ كَـرْم صَـفَتْ من الذمِّ صفوا
ما شُعشعت قَطّ إلا سـطت على الهمِّ سطوا
تجنّبْتُها كلَّ وَغـدٍ يمحو المحاسن محوا
إلا إذا ما اقتنَصْنا عذبَ الخلائق حلوا

وشـادنٍ ذى دلال يشدو فيلهيك شـدوا
إما غنـاءً وإما عجائباً عنه تروى
حتى تظل بما فيـه من وَقارِك خِلوا
وعندنا لك وَرْد يحدو المسرة حدوا
ريحانُه لا يُوازَى لوناً وعطراً وسَرْوا
فما اعتذارك فى أن تُفنى زمانَكَ صَحوا
وأنت بعد قليل بالصوم، والله، تُطْوَى

والناحية اللفظية فى هذه القصيدة رشيقة خفيفة مرقصة، وهى قصيدة جميلة بما فيها من سهولة ورقة وحسن تلطف وإغراء بالطعام والشراب والغناء والريحان. وترى فى هذا الوصف الخاص مقدمة لما كثر فى شعر الفاطميين والأيوبيين والمماليك من تعرض للحياة الخاصة فى مثل هذا الأسلوب.

وله من قصيدته التى تقدمت فى وصف «دير نهيا[1]:» أبيات فى الربيع:

أو ما ترى وجه الربيع وقد زهت أنواره بنهـارِهِ المتألقِ
وتجاوبت أطياره وتبسمت أشجاره من ثغر زهر مُورق

(١) الديارات ١٢٨

لم يَغْـدُها طل الرَّذاذِ ببرده حتى تفتـّح كل جفن مطـبَق
والبدر فى وسط السماء كأنه وجهٌ مليحٌ من قناع أزرق

وللشاعر صالح بن موسى فى وصف الربيع وآثاره وأزهاره :

أو ما ترى حسن الريا ض وما اكتسين من الزهرْ
وجه الربيع وحبذا وجه الربيع إذا ظهر
الوشى يُنْـشَرُ والملا حفُ والمطارِفُ والحبر
هذا البنفسَـجُ فى الحدَا دِ بغير حُزْن قد ظهر
وأتى البهارُ بِصـُفْرةٍ فلـكل حسن قد بهر
وكأن آذريُونَهُ كاساتُ خمر تُبْـتَدَر
وكأنما المنثورُ عِقـ ـدٌ فى جوانبه انتثر
والأقحوان فضاحك عن عسجد فيه درر
وشـقائق النعمان كالـ ـأعلام ثمَّ لمن نظر
وتوردَّدَ الورد الذكـــى وفاحَ مسكا فى السحر
وتُجاوِبُ الطيرُ الغصو نَ بكل لحن مشتهر
فمغرِّدٌ حسن الغنا ءِ شدا وآخرُ قد زَمَرْ
وتسرقت أنفاسـنا بنسيم أنفاس السحر

وقد ترى شاعراً يقدم كتاباً إلى صديق له فيجعل التقديم شعراً ، كما فعل الحسن بن على الأسدى لما بعث « كتاب الأنيس » إلى صديق له :(١)

قد بعثنا بمؤنس لك فى الوحـ ـدة يدعى كتاب الأنيس

(١) يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٦٨

فيه مايشتهى الأديب من العلـ ـم وفيه جلاء هم النفوس
فيه ما شئت من بدور معان ضاحكات إلى وجوه شموس
والنفيس البهى ما زال يهدى كل حين إلى البهى النفيس

وأثر من هذا العهد نوع من الشعر الذى سميناه الشعر القضائى . ومن ذلك أبيات قيلت فى هجاء القاضى أبى بكر بن الحداد سنة ٣٢٤ والطعن فى أحكامه(١) :

قولوا لحدادنا الفقيه العالم الماهر الوجيه
وليت حكما بغير عهد وغير عقد نظرت فيه
ثم أبحت الفروج لما وقعت فيها على البديه
هذا فعال حملت فيه وزرك مَعْ وِزرِ من يليه
وهل ترى ذا ولست فيه بجائز من مخالفيه
أنكرت حالا من ابن عمرو ما أنت فيه ومرتضيه
وخنت عهدا ، والله ربى لناقض العهد مبتليه
والمكر فى الناس داء سوء والعجب أيضاً لمرتديه

وكانت ولايته من جهة الإخشيد ، وكان رجلا فاضلا عالماً فلما رميت الرقاع فى المسجد تتضمن الطعن فيه ، ومنها هذه ، أجاب جماعة من المصريين عنها .

ومدحه شاعر اسمه أحمد بن محمد بن أبى الكحال بقصيدة يقول فيها :

كالشافعى تفقهاً والأصمعـ ـى تفكهاً ، والتابعى تزهدا

ومدحه محمد بن موسى المعروف بسيبويه بقصيدة فيها :

ما يضر البحر أمسى زاخرا أن رمى فيه صبى بحجر

(١) ملحق الكندى ص ٥٥٦

وولى قضاء مصر رجل يسمى عبد الله بن أحمد بن شعيب ، ويعرف بابن وليد . وكان القاضى محمد بن بدر يكرهه ولا يثق بأحكامه ولا بكاتبه ، فقال فيه من قصيدة طويلة(١) :

لو كنت تخشى قضيات المعادى لما ... ألقيت فى كل أمر فاضح علما
أعمى عن الرشد فى كل الأمور فقد ... أصبحت فى الدين بين الناس متهما
يا ابن الوليد تدبر ما أتيت به ... ولا تكن للهوى مستكملا عمما
لو كنت تسمع قول الحق معتمدا ... أو كنت تخشى عذاب الله معتصما
لما استعنت بجهاد اللعين ، وما ... رأيت أنت له فى صالح قدما
جعلته كاتباً يمضى الأمور ولم ... يمس فى العلم قرطاساً ولا قلما

وقد تولى جماعة من المصريين هجاءه أيضاً .

ولكن هذا الشعر كله — على ما فى بعضه من جمال ورقة وطرافة — ترك الميدان لشعر المتنبى الذى روى الدهر قصائده معجباً بها ؛ فى مصر وفى غيرها أكثر من ألف عام .

المتنبى فى مصر :

كان المتنبى فى حلب شاعر سيف الدولة ، وكان يتعالى على الشعراء ويدل بنفسه وأدبه على الأمراء ، فكثر حاسدوه ، وملئوا نفس سيف الدولة ، فسخط عليه . وأحس المتنبى أن حلب لم تعد المنزل الكريم الذى كان ينزله من قبل ، ففارقها إلى دمشق غضبان أسفاً .

وكانت شهرة المتنبى الأدبية تملأ الآفاق ، فلما وصل إلى دمشق أراد ابن ملك

(١) ملحق الكندى ص ٥٧٠

اليهودى — حاكمها من قبل كافور — أن يمدحه أبو الطيب ، فأبى ، وتركها إلى الرملة ؛ حيث الأمير الحسين بن طغج الإخشيد ، فمدحه ، ثم مدح أبا القاسم العلوى بعد تمنع وإباء .

حرص كافور على المتنبي :

وكان كافور يقدر أدب المتنبي ، ويعرف فضله فى الإشادة بسيف الدولة ، ونشر اسمه فى الآفاق . فما إن أحس بالنفور بينهما ، وبانتقال المتنبي إلى دمشق حتى طلبه من ابن ملك . فلما ارتحل إلى الرملة طلبه من أميرها الحسين بن طغج الإخشيد .

مدحه وهجاؤه لكافور :

وجاء المتنبي إلى كافور بمصر فنزل عنده منزلا كريماً ؛ ولكنه جاء وفى نفسه أشد الأسف لفراق سيف الدولة ، والتبرم بالأعداء الذين أوقعوا بينهما ، والسخط على الأصدقاء الذين لا وفاء عندهم ، وكان كبير الآمال طامعاً فى الحكم . فقدم على كافور راجياً أن يهب له ضيعة أو ولاية ؛ ولهذا نرى أكثر شعره فى مصر يدور حول هذه الأغراض : الحنين إلى العهد القديم ، والأمل فى المستقبل الباسم عند كافور ، والشكوى من الأيام والناس لما لقى منهم ، والفخر بنفسه وبأصله . وقد تجد ذلك كله فى أول قصيدة مدح بها كافوراً ، لما وفد عليه سنة ٣٤٦ . وهى التى مطلعها :

كفى بكَ داءً أن ترى الموتَ شافيا ... وَحسبُ المنايا أن يَكُنَّ أمانيا

تمنيتَها لما تمنيتَ أن ترى ... صديقاً فأعيا ، أو عدوا مُداجِيا

ومنهـا :

حَبَبْتكَ قلبي قبل حُبِّكَ من نأى ... وقد كان غدارا فكن لىَ وافيا

وأعلمُ أن البـيـنَ يشكيكَ بعده ... فلست فؤادى إن رأيتُك شاكيا

وتحدث عن خيله التى سارت :

قواصدَ كافور توارك غـيره ... ومن قصدَ البحر استقل السواقيا

فجاءت بنا إنسانَ عينِ زمانه ... وخلَّتْ بياضا خلفها ومآقيا

ثم يخاطبه فيقول :

أبا كُلِّ طيبٍ ، لا أبا المسكِ وحدَه ... وكلِّ سحابٍ ، لا أخُصُّ الغَـواديا

ويسأله ما يريد فى قوله :

وغيرُ كثير أن يزورَك راجلٌ ... فيرجعَ مَلْكاً للعراقين واليـا

فقـد تهب الجيش الذى جاء غازياً ... لسائِلك الفردِ الذى جاء عافيـاَ

ويقول صاحب الصبح المنبي (١) إن أبا الطيب سأل كافوراً أن يوليه صيداء من بلاد الشام ، أو غيرها من بلاد الصعيد فأبى ، وألح أبو الطيب ، فقال لكافور فى شوال سنة ٣٤٧ هـ :

أبا المسك هل فى الكأس فضلٌ أناله ... فإنى أغَنِّى منذ حين وتشربُ

وهبتَ على مقدار كَفَّىْ زمانـنا ... ونفسى على مقدار كفَّيْك تطلبُ

إذا لم تَنُطْ بى ضَيْعةً أو ولايةً ... فجودك يكسونى وشغلك يسلبُ

ولا تخلو قصائده بعد ذلك من هذه المعانى أو أكثرها ، وقد يضيف إليهـا عتابا أو استبطاء ، ولكن كافورا اكتفى بالمال الذى كان يهب له ، والتكريم الذى كان يخصه به . ولم يعطه ضيعة ولا ولاية . فامتنع المتنبى عن مدحه زمناً ، وضاق ذرعاً

(١) هامش العكبرى ج ١ ص ١١٥

به وبمن حوله ، وما لقيه منهم من جفاء وإعراض ، وحبسه كافور عن الرحيل ، فاحتال حتى خرج من مصر فى يوم العيد سنة ٣٥٠ بعد أن قال فى هجاء كافور قصيدة دالية مقذعة مطلعها :

عيدٌ بأية حال عدت يا عيدُ بما مضى أم بأمر فيك تجديد

وطعن فيها كافورا طعنات جارحة إذ يقول .

إنى نزلت بكذابين ، ضيفهمُ عن القِرَى وعن الترْحال محدودُ
جُودُ الرجال من الأيدى ، وجودُهمُ من اللسان ، فلا كانوا ولا الجودُ !
ما يقبض الموتُ نفساً من نفوسهمُ إلا وفى يده من نَتْنِها عودُ
من كل رِخْوِ وِكاءِ البطنِ منفتِقٍ لا فى الرجال ولا فى النسوان معدودُ
أكلما اغتال عبد السوء سيدَهُ أو خانه فله فى مصر تمهيدُ !
صار الخصِىّ إمام الآبقين بها فالحرُّ مستعبَدٌ ، والعبد معبود
نامت نَواطِيرُ مصر عن ثعالبها فقد بَشِمْنَ وما تفنى العناقيدُ
العبد ليس لحر صالح بأخٍ لَوْ أنه فى ثياب الحرِّ مولود
لا تشترى العبدَ إلا والعصا معه إن العبيد لأنجاسٌ مناكيدُ

إلى آخر هذه القصيدة .

وهجاه ، وذم أهل مصر معه ، وحرض على قتله ، فقال :

ساداتُ كلِّ أناسٍ من نفوسهمُ وسادةُ المسلمين الأعْبُد القُزُمُ
أغايةُ الدين أن تُحفُوا شوارَبكم يا أمةً ضحِكت من جهلها الأمَم
ألاَ فتى يورِدُ الهندىَّ هامَتَه كيما تزولَ شكوكُ الناسِ والتهم !

ويقول فى مصر وما فيها من المضحكات وانقلاب الأوضاع كارتفاع الوزير ابن الفرات وكافور ، اللذين سادا وخضعت لهما الرقاب .

وكم ذا بمصرَ من المضحكاتِ   ولكنه ضحكٌ كالبُكا
بها نَبَطىٌّ من أهل السواد   يُدرِّسُ أنساب أهل العُلا
وأسود مِشْفَرُه نصفُه   يقال له أنت بدرُ الدُّجى !

أراد بالنبطى الوزير ابن الفرات . وأراد أن يثير أهل البلاد على كافور ووزيره ، فاتهمه بقتل مولاه بعد خيانته ، وعجب أن يكون ذلك مبرراً للحكم فى مصر ، وتحدث عن أصله الذى لا يرفعه إلى أى مقام ، بله الإمارة ، وحرض عليه علانية « كيما تزولَ شكوكُ الناس والتهم » .

بعض خصائص المدح والهجاء عنده:

ويظهر أن المتنبى اعتمد كثيراً على اسم كافور وأصله وجسمه ولونه فى مدحه وهجائه له ، كما كان يحاول ذلك فى أكثر مدحه وهجائه ، وتراه يحسن الانتفاع بذلك إلى حد كبير ، فيجعل أبا المسك « أبا كلِّ طيبٍ لا أبا المسكِ وحْدَه ». ويرى أن كنيته بأبى المسك ليست من ذلك العطر الأسود ولكنها من عاطر الثناء عليه :

وبِمِسْك يكنى به ليس بالمسـ   ـك ولكنه أريجُ الثناء

وأن سواد الجلد ليس أمراً إذا قيس ببياض النفس وصفائها :

إنما الجلدُ ملبسٌ ، وابيضاض النَّـ   فْسِ خيرٌ من ابيضاض القَباء

بل جاوز المتنبى هذا الحد ، فجعل السواد أمنية الملوك ، ولكن من لهم به !

مَنْ لبيض الملوك أن تبدَّل اللـ   ـوْنَ بلوْنِ الأستاذِ والسحناء

ولكنه حين يسخط ويقسو على كافور يذيقه العذاب الأليم من هذه العيوب فيجعله — فيما رأينا — « رِخْوَ وكاء البطن » ، لا يعد فى الرجال ولا فى النسوان ويجعله « أَمة حبلى » « وأسود مشفره نصفه » ، وينكر عليه أن يصل إلى أى فضل أو مكرمة لأنه وضيع الأصل :

من عَلَّم الأسودَ المخصىَّ مَكْرُمَة ... أقومُه البيضُ أم آباؤُه الصِّيد
أم أذْنه فى يد النخاسِ دامية ... أم قدره وهو بالفَلْسَيْن مردود

ويصغره بتصغير اسمه ، فيقول :

أولىَ اللئام كُوَيْفِيرٌ بمعذرة ... فى كل لؤم ، وبعضُ العُذْر تفنيدُ
وذاكَ أن الفحولَ البيضَ عاجزةٌ ... عن الجميل فكيف الخِصْيَة السود

ويسخر منه فيقول :

ويعجبنى فى النعل رجلاكَ إننى ... رأيتُك ذا نَعْل إذا كنتَ حافيا
وإنك لا تدرى ألونك أسود ... من الجهل ، أم قد صار أبيض صافيا

ويجعله غاية فى إثارة الضحك وطرد أحزان الثكالى ، فيقول له :

ومثلك يؤتَى من بلادٍ بعيدةٍ ... ليضحك رباتِ الحِدادِ البواكيا

أما أصل كافور فكان موضع عناية أبى الطيب مدحاً وهجاء ، وكان يبدع حينما يغالط على طريقة الشعراء ، فيجعل أفعال كافور تغنى عن النسب فيقول :

ويغنيك عما ينسُبُ الناس أنه ... إليك تناهى المكرُمات وتُنسب
وأى قبيل يستحقكَ قدرُه ! ... مَعَدُّ بن عدنان فداكَ ويَعْرُب

ثم هجا أصله فرده أسفل سافلين ، وذمه وذم كل عبد معه إذ قال : « إن العبيد

لأنجاس منا كيد » وقال : « العبد ليس لحر صالح بأخ » ، وشعراً كثيراً فى رقه ، وبعده عن المكارم لضعة أصله ، وبطء نسبه .

وكان هذا الاعتماد على اللون والاسم والأصل والجسم إبداعاً من المتنبى فى عصر ساد فيه البديع ، ولكنك لا تحس بشىء من التكلف فى تلاعب المتنبى باسم كافور أو لقبه أو لونه ، إذ أنه كان يرى بعقلة وذكائه مواطن المدح والذم فى هذه النواحى ، فيصوغها صياغة فريدة تبعدها عن التكلف والثقل .

حساده بمصر :

وكان لأبى الطيب حساد بمصر نقدوا أدبه ، وحرفوا معانيه ، وتتبعوا عثراته ، ومن هؤلاء : الوزير جعفر بن الفرات الملقب بابن حنزابة ، ومحمد بن موسى الملقب بسيبويه المصرى ، والشاعر صالح بن مؤنس ، وكان أصل هذا الحسد أو العداوة أن المتنبى أبى أن يمدح هذا الوزير فسخط عليه ، وأثار خوف كافور منه . فكان سبباً فى حرمانه أن ينال ضيعة أو ولاية كما كان يرجو .

أما سيبويه المصرى فكان نحوياً أديباً ناقداً ، ولعل ابن حنزابة أثاره على المتنبى فكان يتلمس أخطاءه ويذيعها . ومن ذلك أنه عاب عليه قوله :

أبا المسك هل فى الكأس فضل أنالُه فإنى أغنى منذُ حينٍ وتشربُ

وعد ذلك استهانة بكافور واتهاماً له بالبخل ، وعد من قلة الذوق أن يقول المتنبى لكافور :

وما طربى لما رأيتك بدعة لقد كنت أرجو أن أراك فأطرَب

وقال إنه جعل الأمير كالقرد يتزاحم الناس عليه ليطربوا برؤية ألاعيبه .

ويُجهِّل المتنبى بالنحو لأنه رفع الفعل (أطربُ) والواجب أن ينصب لأنه معطوف على « أرى » .

وروى أن سيبويه كان يقول : مدح الناس المتنبي لقوله :

ومن نَكَدِ الدنيا على الحرِّ أن يرى   عَدواً له ما من صداقته بُدٌّ

ولو قال : « من مداراته أو مداجاته بد » لكان أحسن . وقيل إن المتنبي اجتاز به فقال له : بلغني أنك أنكرت على قولى : « عدواً له ما من صداقته بد » فما كان الصواب عندك ؟ فقال له : إن الصداقة مشتقة من الصدق فى المودة ، ولا يسمى الصديق صديقاً وهو كاذب فى مودته ، فالصداقة إذاً ضد العداوة ، ولا موقع لها فى هذا الموضع » . وجاءه بشاهد من الشعر . فتبسم المتنبي وانصرف وسيبويه يصيح عليه : أبكم الرجل وجلال الله [1] .

وقول المتنبي قول شاعر يتصرف فى اللغة أكثر من حدود القواميس . ولا أظنه كان يعجز عن الرد على سيبويه ، وأن يخرج البيت على أن المراد بالصداقة آثارها كالتبسم والتلطف والمجاملة الخ ، ولكن المتنبي أهمله هنا كما أهمل ابن خالويه وأمثاله فى الشام ، وأظن ابتسامته بعد ما سمع نقد سيبويه كانت ابتسامة استهزاء .

على أن المدح الذى يشمل من المعانى ما يجرح كافورا أو يحقر من شأنه كان أشد فعلا فى نفس كافور ، كالبيت المتقدم ، « وما طربى لما رأيتك بدعة » .

وقوله :

ولله سر فى علاك ، وإنما   كلام العدا ضرب من الهذيان

وكذلك كان إكثار أبى الطيب من الإشارة إلى سواده فى مدحه ؛ مهما أجاد فى ذلك .

وكان للمتنبي بمصر من يعجب به ويروى شعره من الأدباء ، كأبى على صالح ابن رشدين الكاتب الشاعر . يقول فيه صاحب يتيمة الدهر [2] « أحد أئمة الكتاب ، المهرة فى سائر الآداب ؛ صحب المتنبي وروى شعره » .

---

(١) الصبح المنبى ص ١١٨ وما بعدها على هامش العكبري ج ١

(٢) ج ١ ص ٣٥٧

ومنهم عبد الله بن أبى الجوع الأديب الكاتب الشاعر « أحد رواة المتنبى الأدباء ، وأصحابه العلماء ، وممن مهر فى لغة العرب ، وأجاد أنواع الأدب[1] » .

وسبق له بعض الشعر الجميل .

وصف مصر :

ويؤخذ على المتنبى أنه فتح عينيه على جمال الريف المصرى ، وعظمة النيل ، وضخامة الأهرام ، فلم تحرك مشاعره هذه المناظر ، ولم تثر خياله تلك العجائب ، ولم يؤثر عنه إلا بيت واحد فى الأهرام ، قاله عرضاً فى رثاء فاتك أبى شجاع : وهو

أينَ الذى الهرمان من بنيانِهِ ما قَوْمُه؟ ما يَوْمُه ؟ ما المَصْرَعُ ؟
تتخلفُ الآثار عن أصحابها حيناً ، ويدركها الفناء فتَتْبَعُ

والحق أنه كان منصرفا عن هذا كله ، كما انصرف عما رأى بالشام من جمال المناظر وسحر الطبيعة ، لأنه كان مشغولا بأشياء أخر ملكت عليه فؤاده وشعوره ؛ كطلب المال والولاية ، فانصرف إلى المدح والهجاء والفخر وشكوى الزمان وسوء الحظ ، ولو أنه انصرف إلى شيء من وصف الطبيعة والآثار لجرى لسانه بالسحر الحلال ، كما فعل عندما وصف شعب بوان ، عرضاً ، وهو ذاهب إلى مدح عضد الدولة .

وصف الحمى :

وقد أثرت ظروفه الخاصة فى شعره ، ومن ذلك قصيدته التى يصف فيها الحمى لما أصابته بمصر ، وصفاً بديعاً يعد من عيون الشعر العربى ، واستقلت القصيدة به إلا قليلا من الأبيات التى لم تخل من شكوى أو حكمة أو شبه ذلك ؛ فإنه شكا فيها النفاق

(١) اليتيمة جـ١ ص ٣٥٣

وشك فى الود . ولعل الدافع إليها كان الشكوى من الزمان ، والرغبة فى الفخر أكثر من وصف الحمى حيث يقول :

فلما صار وِدُّ الناس خِبًّا　　جزيتُ على ابتسامٍ بابتسامِ
وصرت أشك فيمن أصطفيه　　لعلمى أنه بعضُ الأنام

ومنها :

ولم أر فى عيوب الناس شيئاً　　كنقص القادرين على التمام

ويبدأ حديثه عن الحمى وما فعلت به فيقول إنها أقعدته وألزمته الفراش ، واستمع إليه وهو يقول :

أقمت بأرض مصر فلا ورائى　　تخب بى المطى ولا أمامى
وملَّنِىَ الفراشُ وكان جنبى　　يَمَلُّ لقاءَه فى كل عام
قليلٌ عائدى ، سَقِمٌ فؤادى　　كثيرٌ حاسدى ، صعبٌ مرامى
عليلُ الجسم ، ممتنع القيامِ　　شديدُ السكر من غير المُدَام

وكانت تزوره غبا ، وتضنيه ليلا ، وتوسعه سقاما ، وتغرقه فى عرقه ، وكان يخشى موعدها ، ويكره صدقها ، ويحس بذلك كله فى نفسه ، فينطلق به لسانه مصبوغاً بصبغة أدبه من قوة التعبير ، وضخامة الألفاظ ، وحسن التعليل وجمال الخيال فيقول :

وزائرتى كأنَّ بها حياءً　　فليسَ تزورُ إلا فى الظلام
بذلت لها المَطارِفَ والحشايا　　فعافَتْها وباتَتْ فى عظامى
يضيقُ الجلدعن نَفْسِى وعنها　　فتوسعُه بأنواع السقام

وانظر إلى التعليل الغريب لما يصيبه من عرق الحمى عند انتهاء نوبتها إذ يقول :

إذا ما فارقتنى غسلتنى　　كأنَّا عاكفان على حرام
كأن الصبح يطردها فتجرى　　مدامعُها بأربعة سجام

أراقبُ وقتها من غير شوق ... مراقبةَ المَشُوقِ المسْتهام
ويصدقُ وعدُها ، والصدقُ شرٌّ ... إذا ألقاك فى الكُرَبِ العِظام

ويعجب من وصولها إليه على رغم الشدائد التى تراحمت ، وكانت جديرة أن تحول بينها وبينه فيقول :

أبِنْتَ الدهرِ ، عندى كلُّ بنْت ... فكيف وَصلْتِ أنتِ من الزِّحام !
جرحت مُجَرَّحاً لم يبق فيه ... مكانٌ للسيوف ولا السِّهام

ثم يحرص على أن يتخلص إلى الفخر والشكوى فيقول :

يقول لى الطبيب أكلت شيئاً ... وداؤك فى شرابك والطعام
وما فى طبِّهِ أنى جَوَادٌ ... أضرَّ بجسمه طول الجمام

ثم يقول :

فإن أمرض فما مرض اصطبارى ... وإن أُحمْ فما حُمَّ اعتزامى
وإن أسلم فما أبقى ، ولكن ... سلمتُ من الحِمام إلى الحِمام

ونرى كثيراً من الأبيات التى تسير مسير الأمثال فى هذه القصيدة ، كما نرى بعض المعانى المتأثرة بالفلسفة فى صورة أدبية قوية كالبيت الأخير .

صلته بأبى شجاع فاتك .

وهناك وال آخر مدحه المتنبى بمصر ، ورثاه بعد موته ، وصدقه المحبة فى شعره مادحاً وراثياً ، هو أبو شجاع فاتك ، الذى كان مولى للاخشيد مع كافور . وكان يحكم الفيوم ويقيم بها ، واشتدت به العلة فقدم مصر للتداوى سنة ٣٤٨ ، وأبو الطيب فيها . وكان يسأل عنه قبل أن يراه ؛ ثم التقيا ، وأهدى إليه فاتك هدايا متتابعة كانت أولاها ألف دينار . فاستأذن أبو الطيب كافوراً فى مدحه فأذن له ، فمدحه

بقصيدة من خير قصائده مطلعها :

لا خيلَ عندك تهديها ولا مالُ فَلْيُسْعِدِ النطق إن لم يُسْعِدِ الحال

واجْزِ الأمير الذى نُعماه فاجئةٌ بغير قولٍ ، ونعمى الناس أقوال

وكان فاتك يلقب المجنون لشجاعته فقال فيه .

وقد يلقبه المجنونَ حاسده إذا اختلطن وبعض العقل عُقّال

إذا العدى نشبت فيهم مخالبه لم يجتمع لهمُ حلم ورئبال

وظل المتنبي وفياً له بعد موته فرثاه بعد أن ترك مصر سنة ٣٥٠ فى القصيدة العينية التى مطلعها :

الحزن يقلق والتجمل يردع والدمع بينهما عصىٌّ طيِّع

وهى من المراثى الفائقة . ورثاه بأبيات فى قصيدة أخرى قالها بعد خروجه من بغداد سنة ٣٥٢ مطلعها :

* حتام نحن نسارى النجم فى الظلم *

وقد ضرب مثلا عظيما فى الوفاء بهذا الرثاء .

ثم يأتى الفاطميون إلى مصر وتستقل عن العباسيين استقلالا يظهر أثره فى أدب العصر التالى .

الفصل الثاني عشر

المؤثرات فى هذا الأدب

يتأثر الأدب بمؤثرات متعددة تطبعه بطوابع خاصة ، وتتزاحم هذه المؤثرات أحياناً ، وتتعاون أحياناً ، ويختفى بعضها ، كما يتغلب بعضها ويكون صاحب الأثر الأول . والمؤثرات التى يُحتمَل أنها أثرت فى هذا الأدب ، أو كان يجب أن تؤثر فيه هى :

١ — البيئة :

ونقصد بها مصر بنهرها العظيم ، وواديها الخصيب ، وزروعها الناضرة ، وجناتها الظليلة المثمرة ، وصحرائها الشاسعة ، وجبالها الكثيرة ، وهوائها الجميل ، وجوها المعتدل .

وهذه البيئة لم تترك فى الأدب العربى إلا آثاراً قليلة كرسالة عمرو فى وصف البلاد ، وهى أقوى ما أثر ، على الرغم من أنها لم تكن مقصودة لذاتها — وهناك أبيات ثلاثة قالها ابن قيس الرقيات فى « حلوان ذى الكروم » وما حولها ، وأبيات له فى وصف السفن التى غدت من الكريون « إلى حلوان تستبق[1] » .

وقد تجد بعض أسماء الأماكن المصرية ، واسم مصر نفسها ، يتردد كثيراً فى الأدب ، والشعر خاصة ، ولكنه لا يتجاوز سرد الأسماء .

---

(١) ٧٨ ، ١٤٧ ، ١٤٩ من هذا الكتاب .

ولا نجد وصفاً أدبياً جميلا لهذه البيئة ، أوأدباً من وحيها إلا فى عهد الإخشيديين لما ظهر شعراء الأديرة الذين وصفوا ماحولها من متنزهات؛ وتحدثوا عنها فى الربيع فأكثروا الحديث عن أزهارها وأطيارها ، ومزجوا ذلك بذكريات الأيام الجميلة التى استمتعوا فيها بالشباب والشراب والصيد واللهو فى تلك المتنزهات والأديار .

وأما النيل فكان وحيه ضعيفاً إلى الأدباء على الرغم من قوته وسحره ، وخيراته ووضوح آثاره واختلاف أحواله على مدى العام . ومن هذا الوحى الضعيف قول نصيب فى مدح عبد العزيز بن مروان ، يشبهه بالنيل فى الكرم والخير .

فبشر أهل مصر فقد أتاهم مع النيل الذى فى مصر نيل

وقول أبى نواس يقرن الخصيب به فى اليمن والبركة :

النيـــل ينعش ماؤه مصرا ونداك ينعش أهـله الغَمُر

وقوله فى ذم أهل البلاد :

أموالكم جمة والبخل عارضها والنيل مع جوده فيه التماسيح

وقد ترى أحاديث عنه فى الكلام عن العجائب ، أو حين التحدث عنه جغرافيا كوصفه من منبعه إلى مصبه ، وهو وصف لم يقصد به الأدب .

٢ ـــ الثقافة :

وشاعت فى البلاد من أول الإسلام ثقافة إسلامية عمادها العلوم الشرعية واللسانية ثم شاركتها الثقافة العقلية ، ولم يكن لهـــذه الثقافة فى الأدب المحض ، بشعره ونثره ، أثر يذكر ، ولكن كان لها أثر قوى فى مجالس العلم وكتب العلماء ، ومناظرات أهل المذاهب والعقائد ، يبدو فى الموضوعات التى كان يدرسها أولئك العلماء ، وفى طرق البحث كالعناية بالاستقصاء ، والاعتماد على المنطق المنظم والغوص وراء المعانى الدقيقة ، والتماس الأسباب والعلل . وغير ذلك مما يطبع مجالس العلم وأبحاث العلوم . وفى كتب الفقه عند الشافعية والمالكية والحنفية بمصر كثير من

هذه المجالس والمناظرات . وأمثلة للغة العلم والجدل . أوضحها استخدام ألفاظ وجمل اصطلاحية محدودة المعانى دقيقة الاستعمال .

وإذا كان لمدرسة الاسكندرية ، أو لقوانين الرومان أثر فى العقل العربى . والتشريع الإسلامى بمصر فقد كان ضعيفاً أيضاً نتلمسه تلمسا . وأكثر تأثرها بالفلسفة اليونانية كان عن طريق العراق .

ومن آثار الثقافة الإسلامية فى الأدب ما تراه فى اقتباسه لغة القرآن الكريم كقول المعلى الطائى :

لا نلتقى أبداً معاينة حتى نقوم لربنا صفا

وقول الجيشى فى آل طولون :

فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم كأنها من زمان غابر ذهبا
وكم تركوا من جنة أنف ومن نعيم جنى من غدرهم غضبا

وقوله فى شوق البلاد إلى ابن الخليج :

وما شوقها كان من طبعها ولكن ربك أوحى لها

وقول سعيد القاص لبدر الحمامى المتغلب على ابن الخليج :

فاسعد بنصر الله والفتح الذى عظمت به النعمى على الأبرار

٣ — النقد :

وللنقد أثره فى الأدب فإنه يبصر الشعراء والكتاب بعيوبهم ، ويدعوهم إلى التجديد أو الإجادة . وكان بمصر نقد أدبى يخشى . ونسمع به لأول مرة فى عهد عبد العزيز ابن مروان عندما وفد نصيب عليه وأراد أن يصل بمدحه إلى مسامعه ، فحذره صاحبه المصرى أن ينتحل ؛ لأن الأمير أديب راوية وعنده رواة[1] خبراء .

وانظر إلى قول أمية بن أبى عائذ فى عبد العزيز[2] :

تسير بمدحى عبد العزيز ركبان مكة والمنجدونا

(١) ص ١٣١ من هذا الكتاب
(٢) الأغاني جـ ٢٠ — ١١٥

مُحَبَّرة من صريح الـكلا م ليست كما لَفّق المحدثونا
وكان امرأً ســـيداً ماجداً يصَفّى العتيقَ وينفى الهجينا

وكان بمصر رجل يقال له سرج الغول يستدعيه الشافعى ليناظره ويذاكره ، وكان هذا الرجل عالما باللغة ، ولا يقول أحد شيئاً من الشعر إلا عرضه عليه(١) .

ونسمع بهـذا النقد مرة أخرى فى هجاء أبى تمام ليوسف السراج الذى عاب عليه ميله عن السهل من المعانى حتى احتاجت فى فهمها إلى فلاسفة اليونان(٢) . ولـكن ما أثر هذا النقد فى نفس السَّراج ؟

ونسمع بعد ذلك بوقائع معينة فى النقد عندما جاء المتنبى إلى مصر ، فأثار عليه ثائرة سيبويه المصرى وصالح ابن مؤنس وغيرهما بسبب ما رأوه من عيوب لفظية ومعنوية فى شعره ، ولم يترك هذا النقد أى أثر فيه لاعتداده بنفسه .

لـكن دراسة الأدب ونقده فى مصر قد تركا أثرا فى الأدباء وتوجيهاً لهم بما كان يقوم به أساتذة النحو ورواة الأدب من ثناء وذم لبعض الشعراء ، أو بعض النصوص وكان لهـذا النقد والدراسة مجالس فى المساجد أو فى بيوت الخاصة ، وقد يختلطان بدروس النحو عندما يستطرد العـالم من الشاهد إلى بقية القصيدة أو عندما ينقد البيت أو الأبيات التى يعرض لهـا . كما كانا يتصلان برواية الأخبار والأشعار .

٤ — الاتجاه الأدبى العام :

ونذكر جيداً أن تأثير الأدب العربى العام وبخاصة فى حواضر الخلافة كان له أثره فى الأدب العربى بمصر . فالشعراء الذين رحلوا إلى مصر كانت مدائحهم لعبد العزيز بن مروان متقاربة ، وكانت صورة من المدائح العامة التى كان يفد بها غيرهم من الشعراء . ويقال مثل ذلك فى المدح أو الهجاء الذى رأيناه من أبى نواس وأبى تمام ودعبل ، وإن اختلفت الأساليب والعبارات .

(١) بغية الوعاة ص ٢٥٥ (٢) ص ٢٢٤ من هذا الـكتاب

والأدب المحلى كان يتأثر بهذا الأدب العام كثيراً ، وانظر إلى مدحة المعلى لعبد الله بن طاهر ، وهجاء الحسين الجمل لابن وهب[١] .

ولما شاعت المحسنات البديعية فى العراق ظهر أثرها فى مصر . وكانت الكتابة فى العراق ذات أثر بعيد فى الكتابة المصرية حتى فى عهد الطولونيين والأخشيدين وتعليل ذلك يسير فقد كانت الحواضر وما زالت ذات نفوذ واسع على غيرها من أمصار الدولة ، فى الأدب والثقافة والفنون ، ويقلدها النازحون عن هذه الحواضر إكباراً لها ولرجالها . فإذا ضعفت سيطرتها ظهر استقلال الأمصار بأدبها وظهرت فيه طوابع محلية خاصة تميزه من غيره .

٥ — التاريخ الحديث :

أما تاريخ البلاد من الفتح الإسلامى ، فكان مسيطراً إلى حد كبير على أدبها ، وقد رأينا صداه فى الرسائل والخطب ، وظل هذا الصدى قوياً فيما قيل من أشعار فى الأحداث والفتن والحروب والمناسبات التاريخية، كما بيناه فى ثنايا الكتاب .

٦ — التاريخ القديم :

ولكن لهذه البلاد تاريخاً قديماً ، وحضارة عظيمة عاشت آلاف السنين ، وكان لأهلها فى هذه الآلاف من السنين علوم وفنون خلدتها آثار لا تخشى البلى ، على سطح الأرض وفى جوفها . وكان للبلاد أدبها الذى نبتت أساطيره قبل الملك « مينا » ؛ وتنوع ، ونقش على الصخر ، وسطر على البردى .

وكانت آثار البلاد كثيرة بعضها شامخ كالأهرام الكثيرة المتفرقة فى أنحاء البلاد ، والمسلات الباسقات ، والمعابد والبرابى ، فى الأقصر ، والكرنك ودندره وأخميم ، وغيرها من مواطن الآثار الفرعونية ، كما كانت الاسكندرية موطن الفن اليونانى والرومانى ومن أشهر آثاره المنارة وعمود السوارى .

---

(١) ص ٢٠٨ ، ٢١٣ من هذا الكتاب .

وسمى العرب هذه الآثار بالعجائب ، وعد الجاحظ منها عشرين عجيبة ، فيما نقله عنه المقريزى [١] .

وما خفى من هـذه الآثار فى جوف الأرض كان عظيما أيضاً ، ولم يسلم من العبث به وهتك أستاره منذ العهود القديمة . ولم يكف لصوص المقابر عن انتهاك حرماتها طلباً للذهب الذى كان يملؤها .

وليس غريباً أن نجد المصريين فى الإسلام يطلبون الثروة من الكنوز الدفينة فى هذه المقابر ، التى كانوا يسمونها « المطالب » ، وأن تروى عن ذلك قصص وأخبار . ونسمع بذلك لأول مرة فى عهد عبد العزيز بن مروان : فإن المسعودى [٢] يحدثنا حديثاً عجيباً عن مطلب من هذه المطالب كشف فى عهد عبد العزيز؛ وأنه أمد الباحث عنه بالمال ، لما أخبره بما فيه من العجائب ، وكان منها ديك على عمود من الذهب، وعيناه ياقوتتان تساويان الدنيا ؛ وأن الرجال حفروا حتى وجدوا رأس الديك. « فبرق عند ظهوره لمعان عظيم كالبرق الخاطف » . وركب عبد العزيز إلى ذلك الموضع « فنظر إلى ما ظهر من ذلك ، فأسرع بعضهم فوضع قدمه على درجة منسبكة من نحاس تنتهى إلى ما هنالك ، فلما استقرت قدمه على المرقاة الرابعة ظهر سيفان عظيمان عاديان عن يمين الدرجة وشمالها ، فالتفا على الرجل فلم يدرك حتى جزآه قطعاً وهوى جسمه سفلا . فلما استقر جسمه على بعض الدرج ... صفر الديك تصفيراً عجيباً ... وحرك جناحيه ، فظهرت من تحته أصوات عجيبة قد عملت بالكواكب والحركات ، إذا ما وقع على بعض تلك الدرجات شىء أو ماسها تهافت ما هناك من الرجال إلى أسفل تلك الحفيرة . وكان فيها ممن يحفر ويعمل وينقل التراب ، ويبصر ويتحرك ، ويأمر وينهى ، نحو ألف رجل ، فهلكوا جميعاً . فجزع عبد العزيز وقال : هذا ردم

---

(١) الخطط ج ١ ص ٣١ (٢) مروج الذهب ص ١٥٧ المطبعة الأزهرية

عجيب الأمر ، ممنوع النيل ، نعوذ بالله منه . وأمر جماعة من الناس فطرحوا ما أخرج من هناك من التراب على من هلك من الناس فكان ذلك الموضع قبراً لهم .

وفى عهد الطولونيين كانت منطقة الأهرام وعين شمس موطن البحث عن هذه المطالب أو الكنوز ، وعثر فيها على توابيت وموميات وتماثيل جميلة الصنع . روى أن ابن طولون ركب يوماً إلى الأهرام (١) فجاءه الحجاب بقوم عليهم ثياب صوف ، وفى أيديهم مساح ومعاول فسألهم عما يعملون ، فقالوا : نحن قوم نطلب المطالب ، فأمرهم ألا يفعلوا ذلك بعد الآن إلا بإذنه ، ويكون معهم رجل من قبله . ثم ذكروا له أن فى سمت الأهرام مطلباً قد عجزوا عنه ، فأمدهم بالنفقات الكثيرة اللازمة لاستخراجه ، فكشفوا عن حوض كبير عظيم مملوء بالدنانير ، وعليه غطاء مكتوب عليه ، فأحضروا من قرأه .

وروى السيوطى فى حسن المحاضرة (٢) أن أحمد بن طولون لما ملك مصر حفر على أبواب الأهرام فوجدوا فى الحفر قطعة مرجان مكتوباً عليها سطور باليونانى فأحضر من يعرف ذلك القلم فإذا هى أبيات شعر فترجمت ومما كان فيها :

ستفتح أقفالى وتبدو عجائبى ... وفى ليلة فى آخر الدهر تنجم
ثمان وتسع واثنتان وأربع ... وسبعون من بعد المئين فتسلم
ومن بعد هذا جزء تسعين برهة ... وتلقى البرابى صخرها وتهدم
تدبر فعالى فى صخور قطعتها ... ستبقى وأفنى قبلها ثم تعدم

فجمع أحمد بن طولون الحكماء وأمرهم بحساب هذه المدة فلم يقدروا على تحقيق ذلك ، فيئس من فتحها .

وروى أنه فى عهد ابن طولون ، وجد الكنز المشهور بعين

(١) سيرة ابن طولون للبلوى ص ١٩٤

(٢) جـ ١ ص ٩ وهامش السيرة المذكورة ص ١٩٥

شمس ، وأتى له منه بميت وعلى صدره لوح ذهب مكتوب بالقبطية ، فقرىء ، فإذا فيه : أنا أكبر الملوك ، وذهبي أخلص الذهب ؛ فحمل ذلك ابن طولون على تعديل نسبة الذهب فى نقوده .

وكان فى عين شمس صنم على مقدار الرجل المعتدل الخلق ، من كذّان[1] أبيض ، حسن الصورة ، يخيل لمن استعرضه أنه ينطق ، ووصف لابن طولون فأحب رؤيته ، نخوفه خادم نصرانى ثقة أن يراه ، لأنه ما رآه وال قط إلا عزل ، لكن ابن طولون ركب إليه فى سنة ٢٥٨ ، فتأمله ، ثم أحضر القطاعين وأمرهم أن يجتثوه من الأرض حتى درس وعفا خياله ، وذرى ما بقى حياله فى الصحراء . وعاش ابن طولون بعده اثنتى عشرة سنة .

وترى رغبة القوم فى حب المعرفة وكثرة الأسئلة عن أشياء تتصل بالنيل والآثار مما رواه المسعودى[2] عن أحمد بن طولون أنه استدعى رجلا قبطياً من الصعيد الأعلى عمره مائة وثلاثون سنة ، ليسأله عن أشياء من ذلك ، فجاءوا به سنة نيف وستين ومائتين . ووكل به ابن طولون من يسأله ، فسأله عن بحيرة تنيس ودمياط فأخبر أخباراً عجيبة ، منها أن بحيرة تنيس « المنزلة » كانت جنات وبساتين ، وأن البحر بين العريش وبين جزيرة قبرص كان يبساً .

وسئل عن الأهرام فقال[3] : إنها قبور الملوك . ثم سئل كيف بنيت الأهرام الململسة فأخبرهم ، فقيل له : « ما بال هذه الكتابة التى على الأهرام والبرابى لا تقرأ . فقال : دثر الحكماء وأهل العصر الذين كان هذا قلمهم ، وتداول مصر الأمم فغلب على أهلها القلم الرومى ... على حسب ما ولدوه من الكتابة بين الرومى والقبطى الأول » .

---

(١) حجارة . سيرة ابن طولون للبلوى .

(٢) مروج الذهب جـ ١ ص ١٤٩ (٣) جـ ١ ص ١٥٠

وكان لهذا العالم القبطى مجالس كثيرة[1] عند أحمد بن طولون .

وكان فى عصر الإخشيد تنقيب وبحث .

قال المسعودى : « إن جماعة من أهل الدفائن والمطالب ، ومن قد أغرى بحفر الحفائر وطلب الكنوز وذخائر الأمم المستودعة بطن الأرض ببلاد مصر ، وقع إليهم كتاب ببعض الأقلام السالفة ، فيه وصف موضع ببلاد مصر على أذرع يسيرة من بعض الأهرام بأن فيه مطلباً عجيباً ، فأخبروا الإخشيد محمد بن طغج بذلك ، فأذن لهم فى حفره وأباحهم استعمال الحيلة فى إخراجه فحفروا حفراً عظيما إلى أن انتهوا إلى آزُجٍ وأقباء ، وحجارة مجوفة فى صخر منقور فيه تماثيل قائمة على أرجلها من أنواع الخشب ، قد طليت بالأطلية المانعة من سرعة البلى وتفرق الأجزاء ، والصور مختلفة : منها صورة شيوخ وشبان ونساء وأطفال ، أعينهم من أنواع الجواهر كالياقوت والزمرد والفيروزج والزبرجد ، ومنها ما وجوهها ذهب وفضة ، فكسروا بعض تلك التماثيل فوجدوا فى أجوافها رمماً بالية ، وأجساماً فانية ، وإلى جانب كل تمثال منها نوع من الأبنية كالبرابى وغيرها من الآلات من المرمر والرخام . وفيه نوع من الطلاء الذى قد طلى منه ذلك الميت الموضوع فى تمثال الخشب ، وما بقى من الطلاء متروك فى ذلك الإناء ؛ والطلاء دواء مسحوق ، وأخلاط معمولة لا رائحة لها ، فجعل منه على النار ففاح منه روائح طيبة مختلفة ، لا تعرف فى نوع من الأنواع التى للطيب » .

« وقد جعل كل تمثال من الخشب على صورة ما فيه من الناس على اختلاف أسنانهم ومقادير أعمارهم ، وتباين صورهم ، وبإزاء كل تمثال من تلك التماثيل تمثال من الحجر المرمر أو من الرخام الأخضر على هيئة الصنم ، على حسب عبادتهم للتماثيل ، وكان ذلك فى سنة ٣٢٨ » .

---

(١) ج ١ ص ١٥٣

ثم يقول المسعودى[١] :

وقد كان لمن سلف وخلف من ولاة مصر إلى أحمد بن طولون وغيره إلى هذا الوقت — وهو سنة ٣٣٢ — أخبار عجيبة فيما استخرج فى أيامهم من الدفائن والأموال والجوهر ، وما أصيب فى هذه المطالب سن القبور والخزائن » .

وقد أدهشتهم هذه الآثار الظاهرة والمستورة ، وحاولوا معرفة شىء عنها ، وقراءة ما كتب عليها ؛ وفسروا ما وجدوه مكتوباً عليها أحياناً ، واستعصى عليهم قراءة المكتوب فلم يترجموه أحياناً أخرى ، وكان تفسيرهم لهذه الآثار عجيبا ، بل قرروا أن ذا النون المصرى الإخميمى ، الزاهد ، كان ممن يقرأ عن هذه البرابى ، وأنه قال : رأيت فى بعض البرابى كتاباً تدبرته . فإذا هو : « احذر العبيد المعتقين ، والأحداث المقربين ، والجند المتعبدين ، والنبط المستعربين » . قال : ورأيت فى بعضها كتاباً فتدبرته فإذا فيه : « يقدر المقدر والقضاء يضحك » وزعم أنه رأى فى آخره كتابة وتبينها فى ذلك القلم الأول فوجدها :[٢]

تدبر بالنجوم ولست تدرى ورب النجم يفعل ما يريد

وحين أورد المسعودى الحديث عن الأهرام وما عليها من الكتابة قال إن منها مكتوباً هو : « إنا بنيناها فمن يدعى موازنتنا فى الملك ، وبلوغنا فى القدرة ، وانتهاءنا من السلطان فليهدمها ، وليزل رسمها ؛ فإن الهدم أيسر من البناء ، والتفريق أيسر من التأليف » .

ونرى من هذه التراجم شعراً ونثراً لما كان على الأهرام أو غيرها من الآثار أن أكثرها من وحى الخيال ولسان الحال .

---

(١) جـ ١ ص ١٥٨ .

(٢) مروج الذهب جـ ١ ص ١٥٥ طبعة ١٣٠٢ هـ

وعنيت كتب التاريخ بهذه الآثار والعجائب كما عنيت بها كتب الخطط ، ووصفها المؤرخون ، وأبدعوا فى وصفها ، ورووا كثيراً من قصصها وحكاياتها ، ونستطيع أن نعدها من الأدب التاريخى أو من القصص المبنية على التاريخ ، أو نعدها من أدب الوصف . ولكنها لم تكتب لتكون أدبا ، ومن هنا أهملها مؤرخو الأدب . وتركوها للتاريخ ، وكانت موضع تحقيق .

ولكن ما السر فى عدم تعلق الأدب المحض بها ؟ وأنه لم تنسج حولها القصص الأدبية ؟ وما السبب فى عدم وقوف شعراء العرب عليها كما وقفوا باكين على الأطلال والدمن ؟ وما الذى صرفهم عن الاعتبار بها ، والاتعاظ بمن أنشئوها ثم تركوها ، وصاروا مثلا للآخرين ؟ .

وماعذر الطولونيين ومن بعدهم فى إهمال أدب الآثار القديمة ؟ لقد رأوا ما ظهر منها ، وكشفوا كثيراً مما بطن وكان عندهم المثال الذين يسيرون على طريقته ؟ وهو سينية البحترى فى إيوان كسرى ، وكانت قوية ومشهورة جداً ، لجودتها ولغرابتها موضوعاً وقافية . وكان عندهم من قبل البحترى أبيات كريب بن مجلد ، فى وصف صنم فى حمام زبان على شكل امرأة ، يبدو من وصفه أنه من آثار اليونان أو الرومان ، ومن هذه الأبيات(١) :

من كان فى نفسه للبيض منزلة ... فليأت أبيضَ فى حمام زبان
عَبْل لطيف هضيم الكشح معتدل ... على ترائبه فى الصدر ثديان
لا روح فيه ، ولا شفر يقلبه ... لكنه صنم فى خلق إنسان

والجواب على ذلك أن هذا الأدب العربى المحض كان أسير التقليد فلم يتجه إلى وصف الآثار القديمة مع كثرة ما رأى العرب منها فى مصر والعراق والشام

---

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ١١٤ — ١٥٨ من هذا الكتاب .

والأندلس ، ولم يشغل الأدباء أنفسهم بوصفها أو الاتعاظ بها ، ولم يتركوا شيئاً من الأدب حولها إلا نادراً .

ثم إن وقوف العرب على الأطلال والدمن كان وقوفاً تثيره ذكريات الأحباب وماضى الشباب ، وبِلى الأطلال ، وارتحال أهل الديار .

أما هنا فالآثار ألغاز وطلاسم لا يفهمون أسرارها ، ولا تثور عواطفهم عند رؤيتها ، ولا يتصل تاريخهم بها .

حقاً إنهم وقفوا على بعض الآثار التى شهدوا عزها وذلها ، ورأوا عظمتها وفعل الأيام بها . وظهر لنا من ذلك رثاء ابن شافع للدار المذهبة التى كانت لآل عبد العزيز ابن مروان [١] .

ومنه ما رأيناه من الشعر الذى قيل فى أعقاب الطولونيين فى الشماتة بهم ، واستقبال من أبادوهم ؛ أو فى البكاء لما أصابهم ورثاء دورهم وقصورهم ، والأسى على أيامهم ، والاعتبار بمصيرهم ، وقد يصحب ذلك وصف مجمل أو مفصل لهذه الآثار ، أو لأيام المجد والعظمة ، فيثير البكاء ويدعو إلى الاعتبار .

ومنه رثاء عمارة اليمنى لدولة الفاطميين ، وما كان من شعراء الأندلس فى رثاء دولهم التى كانت تتهاوى واحدة بعد أخرى .

ولكن وقوفهم على تلك القصور والدور ؛ ورثاءهم لتلك الممالك والدول ، كان أشبه بالوقوف على الأطلال والدمن ، أثارته مشاهدة تقلبات الدهر ، ورؤية الآثار فى حالى اليسر والعسر ، فكان ما أصابها على مرأى ومسمع منهم داعياً إلى بكائها ، والاعتبار بها . أما الآثار القديمة فيثير الحديث عنها إكبارها ، والإعجاب بفنها ، والدهشة لما تحويه من سحر وعبقرية وشبه ذلك .

وقد ظل الأدب العربى مقصراً فى هذه الوقفات على الآثار الخالدة ، حتى جاء شوقى فوقف على آثار الفراعنة وآثار العرب يصفها ويرثيها ، ويتحدث عن عظمتها الماضية ، وعبرها الباقية ، فأبدع إبداعا عظيما .

(١) ص ١٦٠ من هذا الكتاب

الفهرس

المقدمة :

الفصل الأول : الفتح الإسلامى لمصر : ١ — ١٩

معرفة العرب بها ، مسير عمرو إليها (٤) عوامل انتشار اللغة العربية بها : الإسلام (٥) هجرة القبائل (٨) كثرة العرب بمصر (١٣) أثر الهجرات فى اللغة (١٦)

الفصل الثانى : الخطب والوصايا : ٢٠ — ٥٣

(ا) الخطابة : حاجة الفاتحين إليها (١٩) خطبة لعمرو (٢٠) فى الصلح بين عمرو والمقوقس (٢٤) خطب عتبة (٢٩) الخطابة بعده (٣٥) الخطابة العباسية (٤٠) من الطولونيين إلى الفاطميين (٤٣)

(ب) الوصايا : الفرق بينها وبين الخطابة (٤٦) وصية قيس بن سعد (٤٧) وصايا مروان بن الحكم (٤٨) وصايا ابن طولون (٥١)

الفصل الثالث : القصص : ٥٤ — ٧٥

متى ظهر فى الإسلام (٥٤) وفى مصر (٥٥) صورته (٥٦) أول قصة . عمرو والكرة (٥٨) عمل المؤرخ والأديب (٦٠) قصص أخرى (٦٣) كتاب المكافأة (٦٦)

الفصل الرابع : كتابة الرسائل : من عمرو إلى ابن طولون ٧٦ — ١٠٢

(ا) فى زمن الراشدين (٧٧) بين عمرو والخليفة . رسالة عمرو فى وصف مصر (٧٩) رسائل أخرى

(ب) فى عهد بنى أمية (٩٠) نقل الديوان إلى العربية (٩٢)

(حـ) فى عهد العباسيين : الليث بن سعد (٩٧) رسالة المعتصم (٩٩)

الفصل الخامس : الرسائل من ابن طولون إلى الفاطميين ١٠٣ — ١٢٧

ديوان الإنشاء (١٠٣) فضل ابن طولون على الكتابة (١٠٥) قصته مع ابن عمار ورأيه فى الكتاب (١٠٧) موقفه من الأدب (١١١) بينه وبين ابنه (١١٦) الكتابة فى مصر والعراق (١١٩) صفات الكتابة (١٢٠) ابن عبد كان (١١٩) ابن نصير (١٢٢) رسالة الإخشيد إلى أرمانوس (١٢٤) النجيرمى (١٢٦)

الفصل السادس : الشعر إلى آخر بنى أمية : ١٢٨ — ١٦١

(ا) إلى عبد العزيز بن مروان (١٢٨)

(ب) فى عهد عبد العزيز (١٣٥) شعراؤه (١٣٥ — ١٥٢)

(حـ) من عبد العزيز إلى العباسيين (١٥٥)

الفصل السابع : شعر العصر العباسى : — ١ ١٦٢ — ١٨٢

الشعر التاريخى ، صدى النزاع بين الأمين والمأمون (١٦٦) فى ثورة ابن الجروى والسرى بن الحكم (١٦٨)

الفصل الثامن : شعر العصر العباسى : — ٢ ١٨٣ — ٢٠٦

الشعر القضائى : القاضى المفضل (١٨٥) القاضى العمرى (١٨٧) قضية الحرس (١٨٩) قضية السباق (١٩٣) القاضى البكرى (١٩٥) الشعر فى الخلافات المذهبية (٢٠١) ابن القطاس (٢٠٣) ابن الليث والعمائم (٢٠٤) صورة الجماعة فى الشعر (٢٠٦)

الفصل التاسع : الشعراء فى عهد العباسيين : ٢٠٧ — ٢٢٩

(ا) شعراء مصر : ابن عفير (٢٠٧) المعلى الطائى (٢٠٨) رثاء جارية (٢١٠) فى محبة الأولاد (٢١١) الجمل وشعره (٢١٢)

(ب) الشعراء الزائرون ، من مدحوا يزيد المهلبي (٢١٤) أبو نواس (٢١٧) أبو تمام (٢٢٢) دعبل (٢٢٥) كلمة عن الشعر والشعراء (٢٢٨)

الفصل العاشر : شعر الطولونيين : ٢٣٠ — ٢٥٧

١ — فى عهد دولتهم : مدح وهجاء وفخر ورثاء . شعر ابن جدار فى مغنية وفى ثقلاء (٢٣٩)

٢ — الشعر فى أعقاب الطولونيين : فى التشفى والشماتة (٢٤٣) عظمة ملكهم (٢٤٥) رثاء دولتهم والاعتبار بهم (٢٤٨) فى حرب المغرب (٢٥٦)

الفصل الحادى عشر : الشعر فى عهد الاخشيديين ٢٥٨

بعض الشعر (٢٥٩) رثاء الإخشيد (٢٦١) شعر فى وصف الأديرة وما يتصل بها (٢٦٤) دعوة إلى مجلس أنس (٢٦٨) شعر فى الربيع (٢٦٩) شعر قضائى هجائى (٢٧١) المتنبى فى مصر (٢٧٢) حرص كافور عليه ، مدحه وهجاؤه له (٢٧٣) خصائص المدح والهجاء (٢٧٦) حساده بمصر (٢٧٨) وصف مصر ، ووصف الحمى (٢٨٠) صلته بأبى شجاع (٢٨٢) .

الفصل الثانى عشر : المؤثرات فى هذا الأدب ٢٨٤ — ٢٩٥

البيئة (٢٨٤) الثقافة (٢٨٥) النقد (٢٨٦) التيار الأدبى العام (٢٨٧) التاريخ الحديث والقديم (٢٨٨) الآثار وصلتها بالأدب من عبد العزيز إلى الإخشيديين (٢٨٩)

صواب الخطأ

وقعت أخطاء لم يمكن تجنبها . وهذا صواب أهمها :

الصفحة	السطر	الصواب
١٤	٥	اثني عشر
١٧	٥	استعانها
١٨	٥	وهؤلاء
٤٣	٦	٢٦٩
٤٣	١٧	أمر الإخشيديين
٦٠	١٢	تأثلته
٦٣	٢	عمرا والشماس
١٧٢	٧	ما زلت
١٧٧	١	وقال أبو تمام
٢١٤	٢١	يزيد بن أسيد
٢١٥	١٦	بعصيبه
٢٢٥	١٥	٤ — دعبل
٢٣٥	هامش	الوليد وكنيته أبو عبادة

[تم طبع كتاب « الأدب العربي فى مصر » فى
مطبعة لجنة البيان العربي بالقاهرة ، فى يوم الثلاثاء أ غرة
رمضان سنة ١٣٧٠ (الموافق ٥ من يونيه سنة ١٩٥١) .
والحمد لله أولاً وآخراً] .

سيد محفوظ

المدير الفنى للمطبعة

G